مايكل اونداتجي

المريض الانكليزي

مراجعة: سعدي يوسف

ترجمة: أسامة إسبر



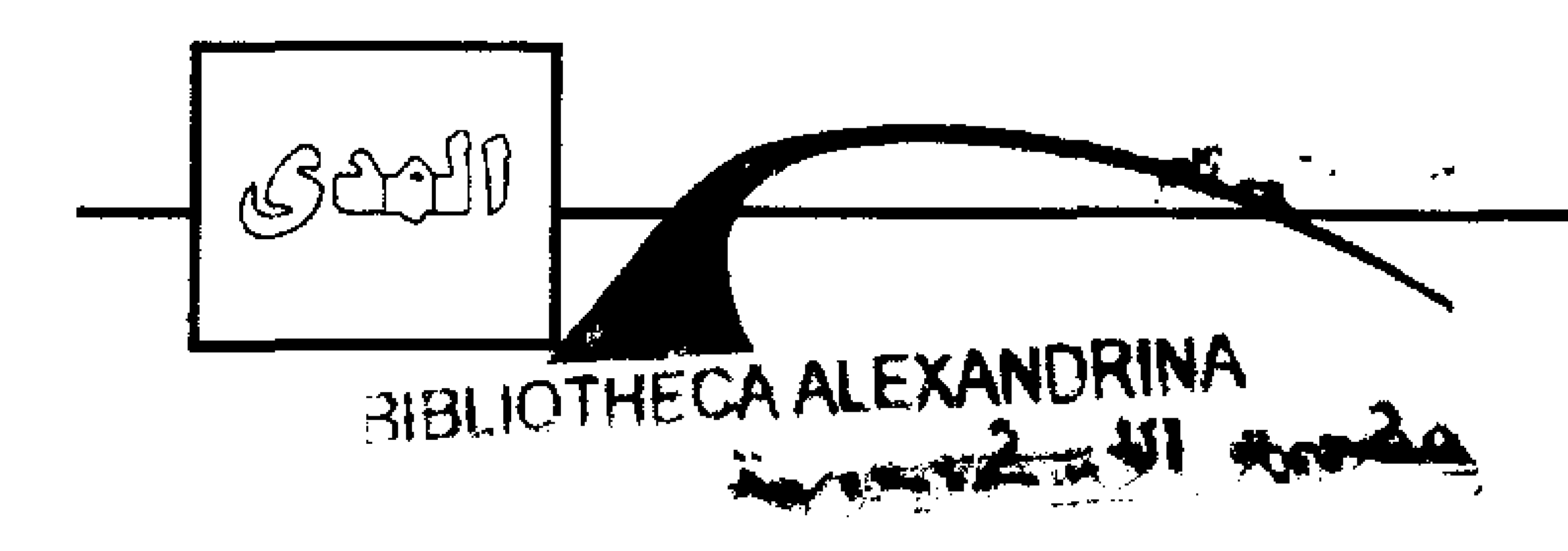
المريض الإنكليزي

مايكل أونداتجي

المريض الإنكليزي

مراجعة: سعدي يوسف

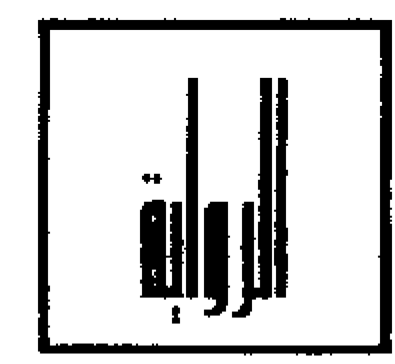
ترجمة: أسامة إسبر



منشورات

٣٠





اسم المؤلف :مايكل أونداتجي
عنوان الكتاب :المريض الإنكليزي
ترجمة :أسامة إسبر
الناشر :دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الثانية :١٩٩٧

Author : Michael Ondatje
Title : The English Patient

Al Mada : Publishing Company
Second Edition 1997

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

أنا متأكد أن معظمكم يتذكر الظروف المأساوية لموت جيوفري كليفتون في كيلف كيبر والذي تبعه فيما بعد اختفاء زوجته كاثرين كليفتون الذي حدث أثناء بعثة ١٩٣٩ الصحراوية التي انطلقت للبحث عن زيرزورا .

لا أستطيع أن أبدأ هذا اللقاء الليلة دون أن أشير ببالغ الأسى إلى هذه الحوادث المأساوية .

المحاضرة هذا المساء...

من محاضر اجتماع الجمعية الجغرافية
في تشرين الثاني ـ ١٩٤ ، لندن

For Marna, the Butterfly

For Maryanna, The Deep Soul

I

الڤيلا

تقفُ في الحديقة حيث كانت تعملُ وتنظرُ بعيداً . تشعر بتغيّر في الطقس . تهبُّ الريحُ مرةً أخرى وتعلو ضجة في الجوّ ، تتأرجح أشجار السرو الطويلة . تستدير وتتحرّك صعداً نحو المنزل متسلقةً حائطاً منخفضاً ، شاعرةً بالقطرات الأولى للمطر فوق ذراعيها العاريتين . تجتاز الرواق وتدخل إلى المنزل بسرعة .

لا تتوقف في المطبخ ، تعبره وتصعد درجاً مظلماً ثم تتابع سيرها عبر صالةٍ طويلةٍ يتبدّى في نهايتها سهم ضوئيّ قادمٌ من باب مفتوح .

تنعطف إلى الغرفة التي هي حديقة أخرى من أشجار وعرائش مرسومة على حيطانها وسقفها . يستلقي الرجل في السرير ، جسده معرّض للنسيم ، حين تدخل ، يديرُ رأسه نحوها ببطء .

تغسل جسده الأسود كلّ أربعة أيام مبتدئة من قدميه المحطّمتين . تبلل قطعة قماش ، تضعها فوق كعبيه وتعصر ماءها ، تنظر إلى الأعلى حين يغمغم وترى ابتسامته . الحروق فوق عظمي الساقين أكثر سوءاً . ما وراء الأرجواني . عظم .

اعتنتْ به طوال شهور وعرفتْ الجسد جيداً ، القضيبَ النائم كحصانٍ بحري ، الوركين النحيلين المشدودين . ظَنَّتْ أنها عظام وركي المسيح . إنه

ملاكها اليائس ، يستلقي مسطحاً على ظهره دون مخدةٍ محدقاً بالأوراق المرسومة على السقف بظلّة الأغصان ، وفوق ذلك ، السماء الزرقاء .

تسكب الكالامين في شكل خطوط على صدره حيث الحروق قليلة ، حيث تستطيع أن تلمسه . تحبُّ التجويف تحت الضلع السفلي ، جرفه الجلدي . حين تصل إلى كتفيه تنفخ هواء بارداً على عنقه ، ثم يغمغم .

تخرج من تركيزها وتسأله : ماذا ؟

يدير وجهه الأسود ذا العينين الرماديتين نحوها . تضع يدها في جيبها . تقشر الخوخة بأسنانها ، تزيل النواة وتمرّر لُبَّ الثمرة إلى داخل فمه .

يهمس ثانيةً ، جاراً القلب المُصغي للممرّضة الشابة الموجودة قربه إلى حيث يذهب ذهنه ، إلى بئر الذاكرة التي تابع الإنغماس فيها طوال تلك الأشهر قبل أن يموت .

يروي الرجل بهدوء قصصاً في الغرفة تنزلق من مستوى إلى آخر كالصقر . يستيقظ في التعريشة المرسومة التي تحيطه بأزهارها المتناثرة وأذرع الأشجار الكبيرة . يتذكر النزهات ، امرأةً قبَلَتْ أجزاءً من جسمه ، محروقة الآن ، لها لون الباذنجان .

يقول : أمضيتُ أسابيع في الصحراء ، ناسياً أن أنظر إلى القمر ، كما يمكن أن يمضي رجل متزوّج الأيام ولا ينظر أبداً إلى وجه زوجته . ليست هذه ذنوباً ناجمة عن اللامبالاة ، بل علائم انشغال .

تلاحق عيناه وجه المرأة الشابة . إذا حركَت رأسها ، ستنتقل تحديقته معها إلى الحائط . تنحني إلى الأمام . كيفَ حُرِقت ؟

إنها نهاية بعد الظهر . تلعب يداه بقطعة الشرشف ، يداعبها بقفا أصابعه .

سقطتُ محترقاً في الصحراء .

عثروا على جسدي وصنعوا لي قارباً من العصي وجروني عبر الصحراء . كنا في بحر الرمل ، نعبر بين فينة وأخرى مجاري أنهار جافّة . إنهم البدو الرحل . لقد سقطت حتى أن الرمل نفسه اشتعل . شاهدوني أقف عارياً خارج الحريق . كانت الخوذة الجلدية تشتعل فوق رأسي . حزموني في مَهْدٍ ، هيكل زورقٍ ، وتحركت الأقدام بصوتٍ مكتومٍ وهي تركض معي . حطّمتُ صَمْت الصحراء .

كان البدو يعرفون عن النار وعن الطائرات التي تسقط من السماء منذ ١٩٣٩ . كانوا يصنعون بعض أدواتهم وآنيتهم من معدن الطائرات والدبابات المحطّمة . كان هذا زمن الحرب في السماء . كان بوسعهم التعرّف على أزيز طائرة مصابة وأن يشقوا طريقهم عبر حطاماتٍ كهذه . يتحوّل مسمارٌ مصوملٌ من ركن الطيار إلى قطعة مجوهرات . ربما كنت أول شخص خرج حياً من آلةٍ مشتعلة . رجل كان رأسه يحترق . لم يعرفوا اسمي . لم أعرف قبيلتهم .

من أنت ؟

لا أعرف . تلحوّن في السؤال .

قُلْتَ إنك انكليزي .

لا يتعبُ أبداً في الليل بما يكفي لينام . تقرأ له من أي كتاب تتمكن من العثور عليه في المكتبة التي تقع في الطابق الأرضي . يضطرب ضوء الشمعة فوق الصفحة وفوق وجه الممرضة المتحدّث ، بالكاد يكشف في هذه الساعة الأشجار والمشهد الذي يزيّن الجدران ، يصغي إليها وهي تبلع كلماتها كالماء .

إذا كان الجو بارداً تتحرك بحرص إلى السرير وتستلقي إلى جانبه . لا تستطيع وضع أي وزن عليه دون أن تؤلمه ، حتى رسغها النحيل .

أحياناً في الثانية بعد منتصف الليل ، يكون مستيقظاً وعيناه مفتوحتان في

الظلمة .

استطاع أن يشم رائحة الواحة قبل أن يدخل إليها ، السائلَ في الجوّ ، خشخة الأشياء ، النخيل والألجمة ، دوي العلب التنكية التي كشفت نبرتها العميقة أنها مليئة بالماء .

سكبوا الزيت على قطع كبيرة من القماش الناعم ووضعوها عليه . لقد دُهِنَ .

استطاع أن يحسَ بالرجل الصامت الذي كان يبقى دائماً قربه ، أحسَ بنكهة نفسه حين كان ينحني ليزيل عنه القماش كل يوم حين يخيّم الليل ، ليفحص جلده في الظلام .

حين عُرّيَ ، أصبح مرةً ثانيةً الرجلَ العاري قرب الطائرة الملتهبة . نشروا عليه طبقاتٍ من اللبّاد الرمادي . تساءل أية أمة عظيمة عثرت عليه ، أية بلاد ابتكرت تمراً ليّناً ليمضغه الرجل الذي إلى جانبه ثم ينقله من ذلك الفم إلى فمه . لم يستطع أن يتذكر أثناء ذلك الوقت الذي أمضاه مع أولئك البشر ، من أين هو . كان كل ما يعرفه هو أنه ربما كان العدو الذي يقاتلهم من الجوّ .

اعتقد فيما بعد في مستشفى بيزا ، أنه شاهد إلى جانبه الوجه الذي كان يجيء كلّ يوم ويمضغ التمر حتى ينعّمه له ثم يمرره إلى فمه .

لم يكن يوجد لونٌ في تلك الليالي ، لا كلام ولا أغنية . كان البدو يصمتون حين يستيقظ . كان على مذبح أرجوحة وتخيل عند انعدام قيمته مئات منهم حوله ويمكن أن يكون هناك فقط إثنان عشرا عليه ، انتزعا قبعة النار التي تشبه قرن الوعل عن رأسه . عرف هذين الإثنين من تذوّق اللعاب الذي دخل إليه مع البلح أو من أصوات قدميهما وهما يركضان فقط .

ستجلس وتقرأ الكتاب تحت تذبذب الضوء . ستنظر بين فينة وأخرى عبر صالة الفيلا التي كانت مستشفى حربياً حيث عاشت مع الممرضات

الأخريات قبل أن ينقلن جميعاً بالتدريج ، وكانت الحرب التي تتجه شمالاً على وشك الانتهاء .

في هذا الوقت من حياتها أصبحت الكتب المنفذ الوحيد للخروج من زنزانتها . أصبحتْ نصف عالمها . تجلس إلى الطاولة الليلية محدودبةً ، تقرأ عن الفتى الشاب في الهند الذي تعلّم أن يحفظ غيباً مجوهرات وأشياء متنوعة موضوعة على صينية ، تُقذف من مدرسٍ إلى آخر ـ أولئك الذين علموه اللهجة ، الذين علموه الذاكرة ، الذين علموه أن ينجو من التنويم المغنطيسي .

يستلقي الكتاب في حضنها ، أدركت أنها كانت تحدّق في مسام الورقة لأكثر من خمس دقائق ، إلى الطية في زاوية الصفحة السابعة عشرة التي طواها أحدهم كعلامة . مررت يدها فوق الصفحة . أحسّت بشيء يركض في ذهنها مثل فأرة في السقف أو فراشة على النافذة الليلية . نظرت إلى الصالة ، رغم أنه لم يكن أحد يعيش هناك الآن ما عداها هي والمريض الانكليزي في فيلا سان جيرولامو . كانت تملك ما يكفي من الخضار المزروعة في البستان المقصوف ليبقيا على قيد الحياة ، وكان رجل يأتي بين حين وآخر تتبادل معه الصابون والبطانيات وما تبقى في المستشفى الحربي مقابل أشياء أخرى ضرورية ، كالفاصولياء واللحم . ترك لها الرجل زجاجتي خمر وكل ليلة بعد أن تستلقي مع الرجل الانكليزي لينام تصبّ لنفسها كأساً بشكل احتفالي وتحملها إلى الطاولة الليلية خارج الباب المغلق إلاّ قليلاً ، وتشرب منغمسةً في أي كتاب كانت تقرؤه .

كانت الكتب بالنسبة للرجل الانكليزي ، حين يصغي باهتمام أو بعدم اهتمام ، تحتوي على ثغرات في الحبكة ، مثل أقسام من طريقٍ مسحتها العاصفة ، وعلى حوادث مفقودة وكأن الجراد التهم قسماً من نسيجٍ مطرزٍ ، وكأن الجص الذي أضعفه القصف سقط عن جداريةٍ في الليل .

وكانت الفيلا التي سكنتها هي والرجل الانكليزي تشبه ذلك كثيراً . لا يمكن الدخول إلى بعض الغرف بسبب الحطام وسمحت ثغرة أحدثتها قنبلة لضوء القمر وللمطر أن يمرا إلى المكتبة في الأسفل ـ حيث يوجد في إحدى الزوايا كرسي بذراعين دائم البلل . لم تكن مهتمة بالرجل الانكليزي قدر ماتهم الثغرات في الحبكة . لم تلخص الفصول المفقودة . كانت تحضر الكتاب ببساطة وتقول : «الصفحة ٩٦» أو «الصفحة ١١١» ، وكان هذا هو المؤشر الوحيد . رفعتْ يديه إلى وجهها وشَمَّتهما ـ ما تزالان تعبقان برائحة المرض .

قال : يداك تخشوشنان .

الأعشاب والأشواك والركش .

انتبهي . لقد حذرتك من الأخطار .

أعرف .

ثم تبدأ القراءة .

لقد علمها والدها عن الأيدي ، عن براثن الكلب وعندما يكون والدها وحيداً في المنزل مع الكلب ينحني ويشم قاعدة كفّه . يقول وكأنه تناول جرعة براندي : إن هذه هي الرائحة الأعظم في العالم . باقة أزهار . شائعات عظيمة عن السفر! ستتظاهر بالقرف ، إلا أن رائحة كف الكلب أعجوبة ، لم توحِ ابداً بالقذارة . قال والدها : إنها كاتدرائية! حديقة أحدهم ، حقل الأعشاب ذاك ، نزهة عبر بخّور مريم* ـ تكثيف التلميحات عن كل الممرات التي سلكها الحيوان أثناء النهار .

حركة سريعة في السقف كحركة الفأر ،تنقل نظرها عن الكتاب إلى الأعلى ثانيةً .

* نبات عشبي جميل الزهر .

أزاحوا قناع الأعشاب الطبية عن وجهه . إنه يوم الكسوف الذي كانوا ينتظرونه . أين كان ؟ أية حضارة هذه التي تفهم التنبؤات بالطقس والضوء ؟ الأحمر أو الأبيض ، يجب أن يكونوا إحدى القبائل الصحراوية الشمالية الغربية . أولئك الذين استطاعوا أن يصطادوا رجلاً من السماء ، الذين غطوا وجهه بقناعٍ محبوكٍ من قصب الواحة . يمتلك الآن حاملاً من العشب . كانت حديقته المفضلة في العالم هي الحديقة العشبية في « كيو » حيث الألوان جميلة ومتنوعة كطبقات الرماد البركاني في تلة .

نظر إلى الطبيعة أثناء الكسوف . كانوا علموه أن يرفع ذراعيه ويسحب من الكون قوةً إلى جسمه ، كما تسحب الصحراء الطائرات . حُمِلَ في محفة من اللبّاد والأغصان . رأى الشرايين المتحركة لطيور البشروس تعبر بصره في نصف ظلمة الشمس المغطاة .

كان يوجد دائماً مراهم أو ظلمة على جسمه . سمع في إحدى الليالي صوتاً كقرع أجراس ريح ، عالياً ، في الجوّ ، وبعد هنيهة توقّف ثم نامَ جائعاً إليه ، تلك الضجة التي تشبه صوتاً منحدراً من حنجرة طائرة ، ربما من بشروس أو من ثعلب صحراوي وضعه أحد الرجال في جيب برنسه نصف المغلق . سمع في اليوم التالي الصوت الزجاجي حين استلقى مرة أخرى مغطى بالقماش . خرجت ضجة من الظلمة . أزيل اللباد عند الشفق وشاهد رأس رجل على طاولةٍ يتحرك نحوه ، ثم أدرك أن الرجل يحمل نيراً كبيراً تتدلى منه مئات الزجاجات الصغيرة على أطوال مختلفة من الخيوط والأسلاك . كان يتحرك وكأنه جزء من ستارة زجاجية وكان جسمه مغلّفاً بذلك المنظر .

كانت القامة تشبه معظم رسومات كبار الملائكة التي حاول أن ينسخها حين كان في المدرسة ، دون أن يفهم أبداً كيف يمكن للجسم أن يتسع لعضلات أجنحةٍ كهذه . سار الرجل سيراً طويلاً وبطيئاً وبهدوء حتى أنه بالكاد سمعَ صوت الزجاجات . موجة من الزجاج ، كبير ملائكة ، جميع المراهم التي أدفأتها الشمس داخل الزجاجات ، بحيث حين يُدلَّك الجلد بها تبدو أنها

سُخِّنَت ، من أجل جرحٍ بشكلٍ خاص . كان يوجد خلفه ضوء متنقّل ـ الألوان الزرقاء وألوان أخرى ترتجف في الضباب وعلى الرمل . صخب الزجاج الخافت والألوان المتنوعة والمشية الملكية ووجهه الذي يشبه بندقية سوداء مائلة . من قريب بدا الزجاج خشناً ، مسفوعاً بالرمل ، زجاجاً فقد حضارته . كان لكل زجاجة سدادة صغيرة ينزعها الرجل بأسنانه ويبقيها بين شفتيه وهو يمزج محتويات زجاجةٍ مع محتويات أخرى ويكون أيضاً هناك سدادة أخرى بين أسنانه . وقف بجناحيه فوق ذلك الجسد المحترق المنبسط على ظهره ، نصب عصوين عميقاً في الرمل ثم حرّر نفسه من النير الذي يبلغ طوله ستة أقدام والذي توازن الآن مستنداً بين الدعامتين . خرج من تحت حانوته . ركع على ركبتيه واقترب من الطيار المحروق ووضع يديه الباردتين على عنقه وأبقاهما هناك .

يعرفه الجميع على طول طريق الجمال من شمال السودان إلى الجيزة ، طريق الأربعين يوماً . يقابل القوافل ، يتاجر بالتوابل والسوائل ويتنقّل بين الواحات والمخيمات المائية .

يسيرُ عبر العواصف الرملية مرتدياً معطف الزجاجات هذا ، ساداً أذنيه بسدادتين صغيرتين بحيث يبدو لنفسه وعاءً ، هذا الطبيب التاجر ، ملك الزيوت والعطور والأدوية ، هذا المعمدان . سيدخل مخيماً وينصب ستارة من الزجاجات أمام أي مريض .

جثا قرب الرجل المحروق . ضمَّ نعليه إلى بعضهما على شكل كوب وتمدد إلى الخلف ، ليفتح ، حتى دون أن ينظر ، زجاجاتٍ معيّنة . كانت العطور تفوح مع فتح كل زجاجةٍ صغيرة . فاحتْ رائحة البحر ، رائحة الصدأ .

نبات النيل . الحبر . وحل النهر . خشب السهم ، غاز الفورمالدهايد ، زيت الكاز ، الأثير . مدّ الهواء الفوضوي .

صرخت الجمال حين شمَت الروائح . بدأ يدلك الأضلاع بمعجونٍ أخضر وأسود . كان عظم طاووس مطحوناً ، تمّت المقايضة به في مدينة تقع في الغرب أو إلى الشرق ـ إنه أقوى شافٍ للجلد .

يتوضع بين المطبخ والكنيسة الصغيرة المدمرة بابٌ يؤدي إلى مكتبة إهليلجية الشكل . بدا المكان آمناً في الداخل ماعدا ثغرة كبيرة على مستوى اللوحة في الحائط البعيد سبَّبها هجوم بقذائف الهاون على الفيلا منذ شهرين . تكيَّفَت بقية الغرفة مع هذه الإصابة وقبلت عادات الطقس ونجوم المساء وصوت الطيور . كان يوجد صوفا وبيانو مغطى بشرشفٍ رمادي ورأس دب محشو وجدران مرتفعة من الكتب . أحنى المطر الذي ضاعف وزن الكتب الرفوف الأقرب إلى الحائط المصاب . كان البرق يدخل إلى الغرفة أيضاً مرةً بعد أخرى عابراً البيانو المغطّى والسجادة .

في النهاية البعيدة أبواب فرنسية مقفلة بألواح . لو كانت مفتوحة ، ستمكنها أن تسير من المكتبة إلى الرواق ثم تهبط ستاً وثلاثين درجة ، تائبةً ، عبر الكنيسة باتجاه ما كان مرجاً قديماً جرّحته القنابل الفوسفورية والانفجارات . لغم الجيش الألماني كثيراً من المنازل التي انسحب منها ، ولهذا خُتِمتْ معظم الغرف بالشمع الأحمر وأُقفِلَتْ الأبواب بالألواح .

كانتْ واعية بوجود هذه الأخطار حين دخلت الغرفة وسارت إلى ظلمة ما بعد الظهر فيها . توقفت فجأةً شاعرةً بوزنها على الأرضية الخشبية ظانةً أنه كافٍ لتشغيلِ أيةِ آلية موجودة هناك . قدماها على الغبار . كان الضوء الوحيد ينسكب من الدائرة المطلّة على السماء والتي أحدثتهاقذيفة هاون .

بطقطقة انفصالٍ وكأنه انتزعَ من وحدةٍ مفردة ، سحبتْ كتابَ آخر الموهيكانيين ، وحتى في نصف الضوء هذا أبهجتها السماء الزبرجدية والبحيرة في لوحة الغلاف ، والهندي في صدر الصورة . ثم ، وكأن شخصاً موجوداً في الغرفة يجب ألاّ يُزعج عادتْ أدراجها وخطت على آثار قدميها من أجل الأمان وأيضاً كجزء من لعبة خاصّة ، بحيث سيبدو من الخطوات أنها دخلت الغرفة ومن ثم اختفى الجسد المادّي . أغلقت الباب وأعادت ختم التحذير .

جلست في تجويف النافذة في غرفة المريض الإنكليزي وكانت الجدران المرسومة على جانب منها والوادي في الجانب الآخر . فتحت الكتاب . كانت

ي بعضها في موجةٍ متصلّبة . شعرت بأنها مثل كروزو تعثر
لتسلَ وجفّ على الشاطئ . قصة عام ١٩٥٧ ، رسوم
ريب . وكما في جميع أفضل الكتب توجد الصفحة الخاصة بقائمة
بالرسوم التوضيحية ، سطر من النص لكل منها .

دخلت إلى القصّة عارفة بأنها ستخرج منها منغمسة في حيوات الآخرين ، في حبكات تعود إلى عشرين عاماً خلت ، وجسدها مليء بالجمل واللحظات ، كأنه مستيقظ من النوم بثقلٍ سبّبته أحلامٌ لم يتم تذكرها .

حوصرت بلدتهم الإيطالية التليّة حارسة الطريق الشمالي الغربي لأكثر من شهر وتركّز القصف المدفعي على الفيلتين وعلى الأبرشية التي تحيط بها بساتين التفاح والخوخ . كانت توجد فيلا مديتشي التي عاش فيها الجنرالات . فوقها تماماً تقع فيلا سان جيرولامو ، التي كانت سابقاً ديراً للراهبات والتي جعلتها شرفاتها المفرّجة كقلعة الحصْنَ الأخير للجيش الألماني . آوتْ مائة جندي . وحين بدأت البلدة التليّة تتفكك كسفينة حربية في البحر تحت القذائف انتقل الجنود من الخيام في البستان إلى غرف نوم الدير المزدحمة . تفتتتْ أجزاء من الطابق العلوي للفيلا تحت الانفجارات . حين احتل الحلفاء أخيراً البناء وحوّلوه الى مستشفى خُتمَ الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الثالث ، رغم أن جزءاً من المدخنة والسقف لم يتساقط .

أصرّت هي والرجل الإنكليزي على البقاء حين انتقلت الممرضات الأخريات والمرضى إلى مكان أكثر أماناً في الجنوب . كانا في ذلك الوقت يشعران بالبرد الشديد ولم يكن يوجد كهرباء . كانت بعض الغرف المواجهة للوادي بدون جدران وحينَ تفتحُ باباً ستشاهد سريراً مبللاً بالماء يجثم في الزاوية ، ومغطى بالأوراق . كانت الأبواب مفتوحة على الخارج وأصبحت بعض الغرف مَطْيراً* مفتوحاً .

* قفص كبير لحفظ الطيور .

فقد الدرج درجاته السفلى بسبب النار التي أُضرمتْ قبل أن يغادر الجنود . كانت ذهبت الى المكتبة وأحضرت عشرين كتاباً ثبتتها بالمسامير على الأرض ثم على بعضها وبهذه الطريقة أعادت بناء الدرجتين في الأسفل . استخدمت معظم الكراسي لإشعال النار . تركت الكرسي ذا الذراعين في المكتبة لأنه كان مبللاً دائماً بسبب عواصف المساء التي دخلت عبر ثقب قذيفة الهاون . نجا من الحرق كل ماكان مبللاً في شهر نيسان ذاك من عام ١٩٤٥ .

بقي القليل من الأسرة . فضّلتْ أن تعيش كالبدو في المنزل مع حشيتها أو أرجوحتها الشبكية . تنام أحياناً في غرفة المريض الإنكليزي وأحياناً أخرى في الصالة ، وفق درجة الحرارة أو الريح أو الضوء . في الصباح تطوي حشيتها وتربطها بخيطٍ الى عجلة . أصبح الطقس أكثر دفئاً وبامكانها أن تفتح المزيد من الغرف لتهوي الزوايا المظلمة جاعلة ضوء الشمس يجفّف الرطوبة كلها . تفتح الأبواب في بعض الليالي وتنام في غرف فيها جدران غائبة . تستلقي على الحشية عند حافة الغرفة . تواجه منظر النجوم المتراكمة والغيوم المتنقلة ، توقظها دمدمة الرعد والبرق . كانت تبلغ العشرين من العمر ومجنونة ولا مبالية بالأمان أثناء ذلك الوقت ولم تخف من احتمال أن تكون المكتبة ملغومة أو من الرعد الذي يُجْفِلها في الليل . قلقت بعد الأشهر الباردة حين حصِرَتْ في الأماكن المظلمة المحميّة . دخلت غرفاً وسَّخها الجنود ، غرفاً أحرق أثاثها فيها . أخرجت الأوراق والخراء والبول والطاولات المفحّمة . كانت تعيش كمتشردة ، بينما في مكانٍ آخرٍ يستلقي المريض الإنكليزي في فراشه كملك .

كان المكان من الخارج يبدو مدمّراً . اختفى دَرَجٌ خارجي درابزونه متدلٍ . كانت حياتهما تتصف بالبحث عن أي طعام وبالأمان غير المؤكد ، يستخدمان الشمعة في الليل عند الضرورة فقط خوفاً من قطاع الطرق الذين كانوا يبيدون أي شيء يعثرون عليه . حمتهما الحقيقة البسيطة في أن الفيلا

مدمّرة . إلا أنها شعرت بالأمان هنا ، بأنها نصف شابة ونصف طفلة بعد أن خرجت مما حدث لها أثناء الحرب ، وضعت بَعْض القواعد الخاصّة لنفسها . لن تُؤمَر ثانيةً بتنفيذ الواجبات للصالح العام . ستعتني بالمريض الإنكليزي فقط . ستقرأ له وتحمّمه وتقدم له جرعات المورفين ، وكان هذا تواصلها الوحيد معه .

اشتغلتْ في الحديقة وفي البستان . حملت الصليب الذي يبلغ طوله ستة أقدام من الكنيسة المقصوفة لتستخدمه كفزّاعة فوق مرقد البذار . علقت عليه علب سردين فارغة تصلصل وتصخب كلما هبّتْ الريح . تخطو داخل الفيلا عبر الحطام إلى تجويف مضاءٍ بالشمع حيث توجد حقيبتها المرتبة بعناية والتي تحتوي بالإضافة الى بعض الرسائل بعض الملابس المطوية وصندوقاً معدنياً من المواد الطبّية . نظّفت أجزاء صغيرة من الفيلا فقط ، وتستطيع أن تحرق كلّ هذا إذا أرادت .

تُشعلُ عودَ ثقابٍ في الصالة المظلمة وتحركه على فتيل الشمعة . يرفع الضوء نفسه على كتفيها . إنها مستندة إلى ركبتيها . تضع يديها على فخذيها وتتنشّق رائحة الكبريت . تتخيّل أنها تتنشّقُ الضوءَ أيضاً .

تتراجع بضعة أقدامٍ وترسمُ بقطعة من الحوّار مستطيلاً على خشب الأرضية ، ثم وهي تتراجع إلى الخلف ترسم المزيد من المستطيلات إلى أن يتشكل هرمٌ منها ، مفرد ثم مزدوج ثم مفرد ، يدها اليسرى تستند إلى الأرض منبسطةً ، ورأسها المنحني جادٌ . تبتعدُ شيئاً فشيئاً عن الضوء إلى أن تستند إلى كعبيها وتجلس منحنية .

تضع قطعة الحوّار في جيبها . تقف وتشدّ تنورتها المرتخية وتربطها حول خصرها . تخرج من جيب آخر قطعة معدنية وتقذفها أمامها فتسقط تماماً وراء المربّع الأبعد .

تقفز إلى الأمام ، ساقاها تضغطان بقوة ، ظلها يلتفّ في عمق الصالة

خلفها . إنها سريعة جداً ، حذاؤها الرياضي ينزلق على الأعداد التي رسمتها داخل كل مستطيل ، تهبط قدم ثم قدمان ثم قدم واحدة مرة أخرى إلى أن تصل إلى المربّع الأخير .

تنحني وتلتقط قطعة المعدن . تقف في ذلك الموضع دون حراك وماتزال تنورتها مشدودة على فخذيها ويداها تتدليان بارتخاء وهي تتنفس بصعوبة . تتنشّق جرعة من الهواء وتطفئ الشمعة .

إنها في الظلمة الآن . لاشيء إلا رائحة الدخان .

تقفز وتستدير فتهبط مواجهةً الطريق الآخر ، ثم تقفز إلى الأمام أكثر وحشية الآن عبر الصالة السوداء ، وتهبط على المربعات التي تعرف أنها هناك ، حذاؤها الرياضي يصخب ويضرب على الأرضية العاتمة بحيث يتردّد صدى الصوت في الأماكن البعيدة للفيلا الإيطالية المهجورة خارجاً نحو القمر وندبة الوادي الذي يحيط بالبناء على شكل نصف دائرة .

يسمع الرجل المحروق في الليل أحياناً رجفةً خفيفة في البناء . يشغّل مساعده السمعيّ ليلتقط الضجة الصاخبة التي لا يستطيع أن يفسرها أو يموضعها .

تلتقط الدفتر الموضوع على الطاولة الصغيرة قُرب فراشه . إنه الكتاب الذي أحضره معه عَبْرَ النار ، نسخة من كتاب التواريخ لهيرودت أضاف إليها صفحات قطعها من كتب أخرى وألصقها أو الملاحظات التي كتبها بنفسه - بحيث اجتمعت كلّها داخل نص هيرودت .

تبدأ بقراءة خطّه الصغير المائل بشدّة .

توجد ريحٌ دواميّة في جنوب المغرب ، العجاج ، التي يدافع الفلاحون عن أنفسهم منها بالسكاكين . توجد «الأفريكو» التي وصلتْ في بعض الأحيان الى مدينة روما . الـ «ألم» ، ريحٌ خريفية تهبّ من يوغسلافيا .

« الأريفي » المعمدة أيضاً « بآرف » أو « ريفي » والتي تسفعُ بألسنةٍ عديدة .
توجد رياحٌ متواصلة تعيش في صيغة الزمن الحاضر .

رياح أخرى أقل استمرارية تغيّر جهتها ، تستطيع أن تقلب الفرس وراكبها وتعيد جمع نفسها على عكس حركة الساعة . تقفز « البستْ روز » إلى أفغانستان لمدة ١٧٠ يوماً وتدفن القرى . ريح القُبلي الحارة والجافة التي تهب من تونس وتلتف وتتدحرج وتنتج وضعاً عصبياً . الهابوب ، عاصفة غبارية سودانية ترتدي جدراناً صفراء متوهجة ارتفاعها ألف متر ويعقبها المطر . الهارماتان التي تهبّ وتغرق نفسها في النهاية في المحيط الأطلسي . « الأمبات » ، نسيم بحري في شمال أفريقيا . ثمت الرياح التي تتنهّد نحو السماء فقط والعواصف الغبارية الليلية التي تجيء مع البرد . الخماسين ، غبار في مصر يستمر من آذار إلى أيار سُمّيَتْ على الإسم العربي للرقم خمسين ، تزدهر لمدة خمسين يوماً ـ الطاعون السادس في مصر . « الداتو » التي تهبُ من جبل طارق وتحمل الشذى .

يوجد أيضاً الـ ـــــ ، ريح الصحراء السرية التي محا اسمها ملك بعد أن ماتَ ابنه فيها . والنفحات ، التي تهبّ من شبه الجزيرة العربية . « ميزار انفولوسين » ، ريح جنوبية غربية عنيفة وباردة يسميها البربر الريح التي « تنتف الطيور » . البَشبار ريح شمالية غربية سوداء وجافّة تهب من القوقاز ، ريحُ سوداء . السامييل التي تهب من تركيا ، « السم والريح » ، تستخدم في الحرب بالإضافة إلى رياح السم الاخرى ، السموم ، التي تهب من شمال أفريقيا والسولانو التي يقتلع غبارها تويجات نادرة ويسبب الدوار .

رياح أخرى خاصّة .

تتنقّل على الأرض كطوفان مزيلةً الطلاءَ مسقطةً أعمدة الهاتف ناقلةً الأحجار ورؤوس التماثيل . تهب الهارماتان عبر الصحراء الكبرى مليئة بالغبار الأحمر ، غبار كالنار ، كالطحين ، يدخل ويتجمع في مغاليق البنادق . سمّى البحارة هذه الريح الحمراء بحرَ الظلمات . يخرج رملٌ أحمر من الصحراء

ويكسو المسافة التي تفصل كورنول وديفون ، يُنتج سيلاً من الوحل كان يُعتقد خطأ أنه دم . «أعلن عن أمطار من دمٍ بشكل واسعٍ في البرتغال وأسبانيا في ١٩٠١» .

يوجد دائماً ملايين الأطنان من الغبار في الجوّ ، كما يوجد ملايين المكعبات من الهواء في الأرض ويوجد لحم حيٌّ في التربة كالديدان والخنافس والمخلوقات التحت ـ أرضية أكثر مما يوجد مما يرعى ويعيش فوقها . يسجّل هيرودت موتَ جيوش مختلفةٍ طمرتها رياح السموم ولم تُلْمح مرة ثانية أبداً . أغضبتْ هذه الريح الشريرة مرّةً إحدى الأمم فأعلنت الحربَ عليها وتقدّمت بعتاد معركة كامل ، لكي تُدفَن بشكل سريع وكامل فقط .

عواصف غبارية في ثلاثة أشكال . الدوامة . العمود . الغطاء . في الأول يضيع الأفق . في الثاني يحيط بكَ جُنٌّ راقص . الثالث الذي هو الغطاء «ملون بالنحاس» وتبدو الطبيعة وكأنها تحترق .

ترفع عينيها عن الكتاب وتشاهد عينيه تنظران إليها . يبدأ بالحديث عَبْرَ الظلمة .

أبقاني البدو على قيد الحياة لسبب ما . كنتُ مفيداً . افترض أحدهم أنني أمتلك مهارة حين تحطّمتْ طائرتي في الصحراء . أنا رجلٌ يستطيع التعرّف على بلدة غير مسمّاة من شكلها الهيكلي على خريطةٍ . امتلكت دائماً معلومات كالبحر في داخلي . أنا شخصٌ إذا تُرِكَ وحيداً في منزل أحدهم يتجه إلى المكتبة ، يخرج مجلداً ويستنشقه . هكذا يدخلُ إلينا التاريخ . كنت أعرف خرائط قاع البحر ، الخرائط التي ترصد نقاط الضعف في درع الأرض ، الخرائط المرسومة على الجلد التي تحتوي على الطرق المتعددة للصليبيين .

وهكذا كنت أعرف مكانهم قبل أن تتحطم طائرتي بينهم ، عرفت متى عبره الإسكندر في عصرٍ سابقٍ ، من أجل هذا السبب أو تلك العقيدة . كنت أعرف عادات البدو الذين يسكرهم الحرير أو الآبار . صبغتْ إحدى القبائل أرضية وادٍ بأكملها لتزيد الحمل الحراري ، ولتزيد بهذه الطريقة من احتمال

سقوط المطر ، وبنتْ أبنية عالية لتبقرَ بطن سحابةٍ . كان يوجد بعض القبائل التي يرفع أفرادها راحات أكفهم إلى الأعلى حين تهب الريح مؤمنين أن هذا لو أنجزَ في اللحظة المواتية ، يستطيع أن يحرف عاصفةً في مجال قريبٍ من الصحراء نحو قبيلة أخرى غير محبوبة . كانت تحدث حالات غرقٍ مستمرة ، تحوّل قبائل فجأة إلى آثار والرمل في لهاثها .

من السهل فقدان حسّ التحديد في الصحراء . حين خرجتُ من الجو وتحطمت طائرتي في الصحراء ، في تلك الأحواض الصفراء ، كان كل ما فكرت به هو أن أصنع طوفاً .

... يجب أن أصنع طوفاً .

ورغم أنني كنتُ هنا في الرمال الجافة ، عرفت أنني كنت بين قوم مائيين .

شاهدت في « تاسيلي » نقوشاً على الصخر تعود إلى الوقت الذي كان فيه سكان الصحراء يصطادون الأحصنة المائية وهم في قواربهم القصبية . شاهدت في وادي « سورا » كهوفاً جدرانها مغطاة بلوحاتٍ للسبّاحين . كان يوجد هنا بحيرة . استطعت أن أرسم شكلها على حائطٍ . استطعت أن أقودهم إلى حافتها . منذ ستة آلاف عام .

اسألي بحاراً عن أقدم شراعٍ معروف وسيصف لك شراعاً شبه منحرف يتدلى على سارية قارب قصبي تمكن مشاهدته في الرسوم الصخرية في « نُبيا » . إنه ما قبل ـ سلالي . مايزال يمكن العثور على حربونات في الصحراء . كانوا قوماً مائيين . حتى اليوم تبدو القوافل كنهرٍ . وما يزال الماء إلى اليوم هو الغريب هنا . الماء هو المنفى ، يُحمَل في الأوعية والقوارير ، إنه الشبح الذي بين يديك وفي فمك .

حين ضعت بينهم ، غير متأكد أين كنت ، كان كل ما أحتاجه هو ظهر حيوان صغير ، عادة محلية ، خلية من هذا الحيوان التاريخي ، وسوف تنزلق خريطة العالم إلى مكانها .

ما الذي كان معظمنا يعرفه عن أجزاء كهذه في أفريقيا ؟ كانت جيوش النيل تتقدّم وتتراجع ـ ساحة معركة يبلغ عمقها ثمانمائة ميل في الصحراء . دبابات من نوع « ويبت » ، قاذفات متوسطة المدى من نوع بلنهايم . مقاتلات كلاديتور ذات سطحين . ثمانية آلاف رجل . لكن من هو العدو ؟ المستنقعات المحلية « للعقيلة » . كان جميع الأوروبيين يشنون حروبهم في شمال أفريقيا ، في « سيدي رزق » ، في « باكوح » .

سافرَ على مدولبةٍ خلف البدو لمدة خمسة أيام في الظلمة ، الغطاء على جسمه . استلقى داخل تلك الأقمشة المبللة بالزيت . فجأة انخفضت درجة الحرارة . وصلوا إلى الوادي الذي يقع داخل الجدران الحمراء المرتفعة لينضموا إلى بقية القبيلة الصحراوية المائية التي كانت تنتشر وتنزلق فوق الرمل والحجارة بينما تتحرك العباءات الزرقاء كرذاذ الحليب أو كجناحٍ . أزاحوا عنه القماش الناعم ، عن امتصاص جسمه . كان داخل الرحم الأضخم للوادي . وكانت الصقور المرتفعة فوقهم تنحدر ألف عامٍ نحو ذلك الشق الحجري حيث يخيّمون .

نقلوه في الصباح الى النقطة الأبعد للشق . بدؤوا يتحدثون حوله بصخب وبدأت اللهجة فجأة تتوضّح . إنه هنا بسبب البنادق المدفونة .

نُقلَ نحو شيء ما ، وكان وجهه المعصوب يحدق إلى الأمام مباشرةً وجُعلَت يده تصل مسافة ياردة . بعد أيام من السفر ، ياردة واحدة فقط . يحنونه الى الأمام ليلمس شيئاً لقصدٍ ما ، وذراعه ماتزال ممسوكة . راحة كفه نحو الأسفل ومفتوحة . يلمسُ ماسورة « الستن » ثم تُحرَّر يده . تتوقّف الأصوات . إنه هنا ليترجم البنادق .

« بندقية آلية ، ١٢ مليمتر ، نوعها بريدا ، من إيطاليا » .

سحب المزلاج وأدخل اصبعه فلم يجد أية رصاصة ، أرجعه ثم ضغط على الزناد . بوب ، « إنها بندقية مشهورة » . همسَ . نُقل إلى الأمام ثانيةً .

« بندقية فرنسية ٧٫٥ مليمتر ، تشاتيليرو . بندقية آلية خفيفة موديل ١٩٢٤ » .

« بندقية ألمانية تدعى MG-15 ، ٧٫٩ مليمتر ، للخدمة الجوية .

قرّبوه إلى كل بندقية . بدتْ الأسلحة من فترات زمنية مختلفة ومن بلدان كثيرة . بدت متحفاً في الصحراء . ينفض غبار القُنْدق* والمخزن ويضع اصبعه في المنظار . يتفوّه باسم البندقية ثم ينقل إلى بندقية أخرى . سُلّمَت له ثمانية أسلحة بشكل رسمي . تفوّه بأسمائها بصوت مرتفع متحدثاً بالفرنسية ثم بلغة القبيلة الخاصّة . لكن ما الذي كان يهمهم في هذا ؟ ربما لم يكونوا بحاجة للإسم بل لأن يعرفوا بأنه يعرف ماهي البندقية .

أمسك من رسغه ثانية وغاصت يده في صندوق ذخيرة . يوجد بعض الرصاص في صندوق آخر يقع على اليمين من عيار ٧ مليمتر بالإضافة الى أنواع أُخرى .

حين كان طفلاً تربّى مع عمةٍ وعلى عشب مرجها بعثرت مجموعة أوراق لعب مقلوبة وعلمته لعبة البلمنية** ، كان يُسمح لكل لاعب بأن يقلب ورقتين وعليه في النهاية أن يفتحهما عبر الذاكرة . حدث هذا في مكانٍ آخر حيث جداول السلمون وصوت العصافير الذي تعرّف عليه من جزء في ذاكرته . عالمٌ مسمى بشكل كامل . الآن ، بوجهه المعصوب بقناعٍ من ألياف العشب يلتقط رصاصةً ويتحرك مع حامليه ، يقودهم نحو بندقية ، يضع الرصاصة ، يلقمها يرفعها في الجوّ ويطلق النار . تصرّ الضجة بجنون في أسفل جدران الوادي . « لأن الصدى هو روح الصوت يثيرُ نفسه في الأمكنة المجوّفة » . رجلٌ اعتقد أنه كئيب ومجنون كتبَ هذه الجملة في مستشفى انكليزي . وهو الموجود في الصحراء الآن ، كان عاقلاً ، بفكر واضح ، يلتقط أوراق اللعب ، يجمعها مع

* قُندق البندقية : خشبتها التي فيها الأنبوب .

** لعبة لتقوية الذاكرة .

بعضها بسهولة ، يبتسم لعمته ، يطلق كلّ مزيج ناجح في الجوّ وكان الرجال اللامرئيون حوله يستجيبون لكل اطلاق نارٍ تدريجياً بابتهاج . يستدير ليواجه جهةً واحدة ، ثم يعود إلى البريدا هذه المرة على محفته البشرية الغريبة يتبعه رجل يحمل سكيناً والذي نقشَ شيفرة متوازية على صندوق الذخيرة ومخزن البندقية . أفرحته الحركة والابتهاج بعد العزلة . كانت هذه مكافأة منحها بمهارته للرجال الذين أنقذوه من أجل هدفٍ كهذا .

سافرَ معهم إلى قرى لاتوجد فيها نساء . انتقلت معرفته كعملةٍ مفيدةٍ من قبيلة إلى أخرى . كانت قبائل تتألف من ثمانية آلاف فرد . اطلع على عادات خاصة وموسيقا معينة . بعينين معصوبتين تقريباً يسمع أغاني جرّ الماء لقبيلة « مزينة » بابتهاجاتها ورقصاتها وآلات نفخها التي تُستخدم لحمل الرسائل في أوقات الطوارئ ، آلة النفخ المضاعفة « الماكرونا » (أنبوب واحد يطلق باستمرار لحناً رتيباً) . ثم في إقليم القيثارات ذات الأوتار الخمسة . قرية أو واحة من مقدمات موسيقية وفواصل مسرحية . تصفيق . رقص تجاوبي .

كانَ يمنح البصر بعد الغسق فقط حيث يستطيع أن يشاهد آسريه ومنقذيه . يعرف الآن أين هو . يرسم للبعض خرائط تمتد إلى ماوراء حدودهم ويعلّم قبائل أخرى آلية البنادق . يجلس الموسيقيون في الطرف الثاني حول النار . ألحان قيثارة « السمسميّة » تُقْذف بعيداً مع هبوب النسيم أو تنتقل الألحان إليه من فوق ألسنة اللهب . يرقصُ غلامٌ كان مرغوباً أكثر من أي شيء شاهده في هذا الضوء . كتفاه النحيلتان بيضاوان كالبردي ، يعكس ضوءُ النار التعرّق على معدته . ويبدو العري من خلال فتحاتٍ في الكتان الأزرق الذي يرتديه من أجل الإغواء من العنق إلى الكعب ، كاشفاً نفسه كخيطٍ من البرق الأسمر .

يحيط بهم ليل الصحراء الذي يقتحمه نظامٌ حرٌ من العواصف والقوافل . يوجد دائماً أسرارٌ ومخاطر حوله ، كما حرك يده حين كان فاقد البصر وجرح نفسه بموسى ذي حدّين في الرمل . أحياناً لا يعرف إن كانت هذه أحلاماً .

الجرح نظيف ، لا يؤلم وعليه أن يمسح الدم على جمجمته (مايزال وجهه غير قابل للمس) ليشير لآسريه بوجود الجرح . هلْ ابتكرَ هذه القرية التي بلا نساء والتي أُخضِرَ إليها في صمتٍ تامٍ أو ذلك الشهر كله الذي لم يشاهد فيه القمر ؟ هل حلم بهذا وهو مغطى بالزيت واللباد والظلمة ؟

عبروا آباراً حيث كانت المياه ملعونة . كان في بعض الأماكن المفتوحة بلدات مخبأة وكان ينتظر حين يحفرون في الرمل ليصلوا إلى الغرف المدفونة أو ينتظر بينما يحفرون من أجل أعشاش الماء . والجمال المحض لغلامٍ بريء ، كصوتٍ من صبي في الجوقة والذي تذكره كأنقى الأصوات ، مياه النهر الأكثر عذوبة ، العمق الأكثر شفافية للبحر . هنا في الصحراء التي كانت بحراً قديماً حيث لاشيء كان مربوطاً ، أو مستمراً ، كان كل شيء ينجرف كتموّج الكتّان عبر الصبي وكأنه يعانق أو يحرر نفسه من محيط أو من مشيمته الزرقاء بعد الولادة . غلامٌ يضجُ بالإثارة أعضاؤه إزاء لون النار .

ثم تُغطى النار بالرمل ، يذوي دخانها حولهم . خفوت أصوات الآلات الموسيقية كالنبض أو المطر . يلوح الغلام بيديه عبر النار الضائعة ليصمت آلات النفخ . لايوجد غلام ، لاتُسْمَع خطوات حين يغادر . الأسمال المستعارة فقط . يزحف أحد الرجال إلى الأمام ويجمع المنيَّ الذي سقط على الرمل . يحضره إلى مترجم البنادق الأبيض ويضعه في يديه . في الصحراء لاتحتفل بأي شيءٍ إلاّ الماء .

تقف فوق المغسلة ، تُمسكها ، ناظرة إلى الحائط الجصي .

أزاحت جميع المرايا وجمعتها في غرفةٍ فارغةٍ . تمسك المغسلة وتحرك رأسها من جانب إلى آخر ، محررة حركة الظل . تبلّل يديها وتمشط شعرها بالماء إلى أن يتبلل بشكل كامل . يبردها هذا وتحبه حين تخرج ليهب عليها النسيم وينسيها مشاكلها .

II

في الأنقاض القريبة

أمضى الرجل ذو اليدين المضمدتين أكثر من أربعة أشهر في المستشفى العسكري في روما إلى أن سمع مصادفةً عن المريض المحروق والممرضة . سمعَ اسمها ، استدارَ عند المدخل وسار عائداً إلى من تبقى من الأطباء الذين عبرهم لتوّه ليسأل عن مكانها . كان يتعافى هناك لوقتٍ طويل وعرفوه كرجلٍ مراوغ . إلا أنه تحدث إليهم الآن وسألهم عن الإسم وأجفلهم . لم يتحدث أبداً طوال ذلك الوقت . كان يتواصل بالإشارات والإيماءات وبين فينة وأخرى كان يبتسم . لم يكشف شيئاً ، حتى اسمه . كتبَ رقمه التسلسلي الذي أظهر أنه مع الحلفاء فقط .

فُحصت وضعيته مرتين وأكدتها رسائل من لندن . يوجد عنقود من الندب المعروفة عليه . وهكذا عاد الأطباء إليه وانحنوا فوق ضماده . إنه في النهاية شخص مشهور يريد الصمت . بطل حرب .

بهذه الطريقة شعر أنه أكثر أماناً ، دون أن يكشف أي شيء . سواء جاؤوا إليه باللطف أو بالحيلة أو بالسكاكين . لم يتفوّه بكلمة لأكثر من أربعة أشهر . كان حيواناً ضخماً في حضرتهم ، في الأنقاض القريبة حين أُحضِرَ وقُدمتْ له جرعات منتظمة من المورفين لتخفيف ألم يديه . سيجلس على كرسي بذراعين في الظلام ويراقب مدّ الحركة بين المرضى والممرضات أثناء الدخول والخروج من الأجنحة وغرف التخزين .

حين كان يعبر مجموعة الأطباء في الصالة ، سمعَ اسم المرأة فأبطأ من خطواته واستدار عائداً إليهم وسأل بشكل محدد في أي مستشفى تعمل . إلا أن الممرضة والمريض رفضا المغادرة .

لماذا لم تجبراهما على الخروج ؟

ادّعتْ بأنه مريض جداً بحيث لايستطيع أن ينتقل . كان بوسعنا أن نحضره بأمان طبعاً ، ولكن لايوجد وقتٌ للجدل في هذه الأيام . كان شكلها فظاً أيضاً .

هل هي متأذية ؟

لا . صدمة جزئية من قذيفة على الأرجح . كان يجب أن تُرسَل إلى وطنها . المشكلة هي أن الحرب انتهت هنا . لا تستطيع أن تجعل أي شخص يقوم بأي شيء بعد الآن . المرضى يخرجون من المستشفيات . الجنود يهربون قبل أن يتم إرسالهم إلى أوطانهم .

سألَ : أية فيلا ؟

يقولون إنها واحدة في حديقتها شبح . «سان جيرولامو» . حسناً ، تمتلك شبحها الخاص ، مريضاً محروقاً . يوجد وجه لكن لايمكن التعرّف عليه . جميع الأعصاب تلاشتْ . بوسعك أن تمرر عود ثقاب على وجهه ولن تجد تعبيراً . الوجه نائمٌ .

سألَ : من هو ؟

لانعرف اسمه .

لن يتحدث .

ضحكتْ مجموعة الأطباء . لا ، إنه يتحدث ، يتحدّث طوال الوقت ، لا يعرف من هو فقط .

من أين جاء ؟

أحضره البدو إلى واحة سيوة . ثم أمضى فترة قصيرة في بيزا ، ثم... قد يرتدي أحد العرب لصْقَةَ اسمهِ . سيبيعها على الأرجح وسنحصل عليها يوماً .

وربما لن يبيعوها أبداً . هذه رُقى عظيمة . إن جميع الطيارين الذين يسقطون في الصحراء ، لا أحد منهم يجيء ومعه بطاقة هوية . إنه يسكن الآن في فيلا توسكانية والفتاة لن تتركه . إنها ببساطة ترفض ذلك . آوى الحلفاء مائة مريضٍ هناك . قبل ذلك سيطر عليها الألمان بجيش صغير وكانت حصنهم الأخير . بعض الغرف تحتوي رسوماً ولكل غرفة فصل مختلف . يوجد ممرٌ ضيق خارج الفيلا . إنها تبعد عشرين ميلاً عن فلورنسا ، في التلال . ستحتاج إلى جواز مرور بالطبع . نستطيع على الأرجح أن نجد شخصاً يأخذك بالسيارة . مايزال الوضع هناك مرعباً . قطيع ميت . أحصنة قُتِلَتْ بالرصاص ، نصف مأكولة . بشرٌ يتدلون معلقين بالمقلوب من الجسور . الشرور الأخيرة للحرب . منطقة غير آمنة بشكل كامل . لم يذهب اللغّامون إلى هناك بعد لينظفوا المنطقة من الألغام . انسحب الألمان وهم يدفنون وينصبون الألغام في طريقهم . مكان مريعٌ لمستشفى . رائحة الموتى هي الأسوأ . نحتاج إلى سقوط ثلوج كثيرةٍ لتنظيف هذه البلاد . نحتاج إلى غربان .

شكراً لكم .

خرجَ من المستشفى إلى ضوء الشمس ، الى الهواء لأول مرةٍ خلال شهور ، من الغرف ذات الضوء الأخضر التي تستلقي في ذهنه كالزجاج . توقّف هناك مُتَنَفِّساً كلّ شيءبما فيه استعجالَ الجميع . فكر أولاً بأنه يحتاج إلى حذاء نعله مطاطي . أحتاج إلى بوظة .

عانى من صعوبة النوم في القطار ، مهتزاً من جانب إلى آخر . الآخرون يدخنون في المقصورة . صدغه يضرب إطار النافذة . الجميع يرتدون ثياباً داكنةً وبدت العربة وكأنها في النار من منظر جميع السجائر المشتعلة . لاحظ أن المسافرين يصلّبون كلما مرّ القطار إلى جانب مقبرة .

إنها في شكل فظّ هي نَفْسُها .

بوظة للوزتين ، هذا ما تذكره . رافقَ فتاةً ووالدها لتزيل لوزتيها . نظرتْ

نظرةً واحدةً إلى الجناح الممتلئ وببساطةٍ رفضتْ . هذه ، الأكثر تكيفاً ولطفاً بين الأولاد ، تحولت فجأة إلى حجرٍ صلبٍ من الرفض . لا أحد سيزيل أي شيء من حنجرتها رغم أن حكمة اليوم تنصح بذلك . ستعيش معهما ، كيفما بدتا . كان ما يزال لا يعرف ماهي اللوزة .

لم يلمسوا رأسي أبداً ، وفكّر بأن هذا غريب . كانت الأوقات الأسوأ حين بدأ يتخيّل ما الذي سيفعلونه.، ما الذي سيقطعونه بالتالي . كان يفكر دائماً برأسه في تلك الأيام .

حركة في السقف كَعَدْوِ فأْرٍ .

وقف بحقيبة سفره في النهاية «البعيدة للصالة» . وضع الحقيبة على الأرض ولوَّح عبر الظلمة والبرك المتقطّعة لضوء الشمعة . لم تصدر قعقعة عن الخطوات حينَ سارَ نحوها ، لاصوت على الأرض ، وهذا أدهشها ، كان شيئاً مألوفاً ومريحاً لها ، أنه استطاع أن يقترب من عزلتها ومن عزلة المريض الإنكليزي دون صخب .

حين عبر المصابيح في الصالة الطويلة رمتْ ظله أمامه . رَفعَتْ الفتيل في المصباح الزيتي وهكذا وسّعَتْ قَطْرَ الضوء حولها . جلست هادئةً جداً ، الكتاب في حضنها ، حين جاءَ إليها وانحنى قربها كعمٍ .

«أخبريني ماهي اللوزة» .

عيناها تحدقان به .

« ما أزال أذكر كيف هربْتِ من المستشفى يتبعك رجلان كبيران» .

هزّت رأسها .

«هل مريضك هناك ؟ هل بوسعي الدخول ؟» .

هزّت رأسها وتابعتْ هزّه إلى أن تحدّث ثانية .

« إذاً سأراه غداً ، فقط أخبريني أين أذهب . لا أحتاج إلى أغطية . هل يوجد مطبخ ؟ لقد قُمتُ برحلةٍ غريبة من أجل أن أعثر عليك » .

حين ذهب عبر الصالة ، عادت إلى الطاولة وجلستْ مرتجفة . كانت بحاجةٍ إلى هذه الطاولة . إلى هذا الكتاب الذي وصلتْ إلى منتصفه لتجمع قوتها . رجلٌ كانت تعرفه قطع الطريق كله بالقطار وسار أربعة أميال صاعداً التل من القرية وعبر الصالة إلى هذه الطاولة ليراها فقط . دخلتْ إلى غرفة المريض الإنكليزي بعد بضع دقائق ووقفت هناك ناظرةً إليه . ضوء القمر عبر الأوراق على الحيطان . كان هذا الضوء الوحيد الذي جعل الوَهْم يبدو مُقنعاً . استطاعت أن تقطف تلك الزهرة وتثبتها على فستانها .

يفتح الرجل الذي يُدعى « كارافاجيو » جميع النوافذ في الغرفة ليستطيع أن يسمع أصوات الليل . يخلع ثيابه ، يحك راحتي كفه بلطفٍ على عنقه ويستلقي لوهلةٍ على السرير غير المعدّ . تضجّ الأشجار ، يتحوّل القمر إلى سمكة فضيّة تقفز على أوراق الأزهار النجميّة* في الخارج .

القمر يتوضّع عليه كجلد ، كحِمْلٍ من الماء . بعْدَ ساعةٍ يصعد إلى سقف الفيلا . على القمة يكتشف الأقسام المقصوفة على منحدر الأسقف ويشاهد الحدائق المدمّرة والبساتين التي تجاور الفيلا . ينظر أين هم في إيطاليا .

تحدثا في الصباح عند النهر بتردّد .

« بما أنك الآن في إيطاليا يجب أن تعرفي المزيد عن ڤيردي » .

« ماذا » ؟ رفعتْ بصرها عن البطانيات التي تغسلها في الحوض .

يذكّرها : « قلتِ لي مرةً أنك تحبينه » .

* نبات .

تحني « هنا » رأسها مستاءةً .

يتمشى « كارافاجيو » ، ناظراً إلى البناء للمرة الأولى ، محدقاً من الرواق إلى الحديقة .

« نعم ، كنتِ تحبينه . كنتِ تجنّنينا بمعلوماتك الجديدة عن « جيوسيبي » . ياله من رجل! الأفضل في كل شيء ، كما ستقولين . وكان علينا جميعاً أن نوافقك الرأي ، الفتاة المغرورة التي تبلغ السادسة عشرة من عمرها .

« أتساءل ما الذي حدثَ لها » . تنشر الغطاء المغسول على حافة الحوض .

« كنتِ شخصاً بإرادة خطيرة » .

تسير على الأحجار المستوية التي ينبثق العشب من شقوقها . يراقب قدميها اللتين ترتديان جوربين أسودين . والثوب الرمادي الرقيق . على الدرابزين .

« أعتقد أنني جئتُ إلى هنا لأن شيئاً في ذهني دفعني إلى ذلك من أجل « ڤيردي » . ثم طبعاً غادرتَ أنت وأبي إلى الحرب... انظر إلى الصقور . تأتي إلى هنا كلّ صباح . كل شيء مدمّر إلى قطعٍ هنا . إن المياه الوحيدة الجارية في هذه الفيلا كلها ، هي في هذا الحوض . انتزع الحلفاء أنابيب المياه حين غادروا . اعتقدوا أن هذا سيجعلني أرحل » .

« يجب أن ترحلي . مايزال عليهم تنظيف هذا الإقليم . توجد قنابل غير متفجرة في جميع أنحاء المكان » .

تصعد إليه وتضع أصابعها على فمه .

« أنا سعيدة برؤيتك يا « كارافاجيو » لا بمشاهدة بأي شخصٍ آخر . لا تقل إنك جئت إلى هنا لتحاول أن تقنعني بالمغادرة » .

« أريد أن أعثر على بارٍ صغير فيه بيانو وأشرب دون أن تنفجر قنبلة لعينة . أصغي إلى فرانك سيناترا وهو يغنّي . يجب أن نحضر بعض أشرطة

الموسيقا . هذا جيد لمريضك » .

« إنه مايزال في أفريقيا » .

يراقبها ، ينتظرها كي تقول المزيد ، إلا أنه لايوجد المزيد ليقال عن المريض الإنكليزي . يغمغم : « بعض الإنكليز يحبون أفريقيا . يعكسُ جزء من دماغهم الصحراءَ بدقّة . وهكذا لا يصبحون أجانب هناك » .

يرى رأسها يوافق بهزة صغيرة . وجه هزيل ، شعر قصير ، بدون قناع ولغز شعرها الطويل . إذا كان هناك أي شيء فهو أنها تبدو هادئةً في عالمها هذا . النبعُ يقرقرُ في الخلفيّة ، الصقور ، الحديقة المدمرة للفيلا .

يعتقد أن هذه قد تكون الطريقة للخروج من الحرب . الاعتناء برجل محروق ، غَسْل بعض البطانيات في الحوض ، غرفة عليها رسوم كالحديقة . وكأن كل ما يبقى هو كبسولة من الماضي تمتد إلى ما قبل ڤيردي بوقت طويل . آل مديتشي يفكّرون ببناء درابزون أو نافذة ، يحملون شمعة في الليل بحضور مهندس مدعوّ ـ أفضل مهندس في القرن الخامس عشر ـ ويطلبون شيئاً أكثر اقناعاً لتأطير تلك الفسحة .

تقول : « إذا كنت ستبقى هنا ، سنحتاج إلى المزيد من الطعام . لقد زرعت الخضر ، لدينا كيس من الفاصولياء ، إلا أننا نحتاج بعض الفراريج » . تنظر إلى « كارافاجيو » ، عارفة المهارات التي كان يتمتّع بها ، دون أن تقولها تماما .

يقول : « لقد فقدت قوّتي » .

تعرض عليه « هنا » : إذاً سآتي معك . سنقوم بذلك سويةً . تستطيع أن تعلمني السرقة ، أرني ماذا أفعل » .

« أنت لا تفهمين . لقد فقدت عَصَبي » .

« لماذا » ؟

« لقد قُبِضَ عليَّ . لقد قطعوا يديّ اللعينتين تقريباً .

أحياناً في الليل ، حين يكون المريض الإنكليزي نائماً أو حتى بعد أن تكون قد قرأت وحيدةً خارج بابه لوهلةٍ ، تذهب للبحث عن « كارافاجيو » . سيكون في الحديقة ، مستلقياً على الحافّة الحجرية للحوض ، ناظراً إلى النجوم ، أو ستجده على دكة أكثر انخفاضاً . يجد من الصعوبة في هذا الطقس الصيفي الباكر أن يبقى في الداخل ليلاً . يقضي معظم الوقت على السطح قرب المدخنة المحطّمة ، إلا أنه ينزلق نازلاً بصمت حين يرى قامتها عبر الدكة تنظر إليه . ستجده قرب تمثال كونت بلا رأس ، تحبُ قطةٌ محلية أن تجلس على جذر عنقه بوقارٍ وجنون وتُرَيِّلُ حين يظهر البشر . عليها دائماً أن تشعر أنها هي التي عثرتْ عليه ، هذا الرجل الذي يعرف الظلمة ، الذي حين يسكر يدّعي أن عائلةً من البوم رَبَّتْهُ .

يقفان على رعنٍ ، تظهر فلورنسا وأضواؤها في المسافة . أحياناً يبدو لها مسعوراً ، أو هادئاً جداً . تلاحظ في النهار بشكلٍ أفضل كيف يمشي ، تلاحظ الذراعين المتصلّبين فوق اليدين المضمدتين ، كيف يستدير جسمه كله بدلاً من العنق فقط حين تشير إلى شيء بعيدٍ على الهضبة . إلا أنها لم تقل له أي شيءٍ عن هذه الأشياء .

« يظن مريضي أن عظم الطاووس المطحون دواء عظيم » .

ينظر إلى الأعلى نحو السماء الليلية : « نعم » .

« هل كنت جاسوساً إذن » ؟

« ليس تماماً » .

يشعر بالمزيد من الراحة كونه أكثر غموضاً معها في الحديقة المظلمة ، بصيص المصباح في غرفة المريض الإنكليزي يطلُّ من الأسفل .

« أحياناً كانوا يرسلوننا لنسرق . هنا كنتُ إيطالياً ولصاً . لم يستطيعوا تصديق حظهم ، كانوا يفعلون مابوسعهم ليستخدموني . كان يوجد حوالي أربعة أو خمسة منّا . قمتُ بعمل جيد لبعض الوقت . ثم بالمصادفة تمّ تصويري . هل تستطيعين تخيّل هذا ؟

« كنت أرتدي سترةً ، بزةَ قِرْد من أجل أن أدخل إلى ذلك الحشد إلى الحفلة لأسرق بعض الأوراق . فعلاً كنتُ ما أزال لصاً . لم أكن وطنياً أو بطلاً عظيماً . جعلوا مهاراتي رسمية فقط . إلا أن إحدى النساء أحضرتْ كاميرا وكانت تُصَوِّر الضباط الألمان . التقطت صورتي وأنا أسير عبر قاعة الرقص . في منتصف الخطوة ، جعلني صخبُ الكاميرا أدير رأسي نحوها . وهكذا أصبح كل شيء خطيراً . إنها عشيقة أحد الجنرالات .

كانت جميع الصور التي تلتقط أثناء الحرب تعالج رسمياً في مختبرات حكومية ويفحصها الجستابو ، وهكذا سأكون هناك ، بوضوح . لست في أية قائمة وسوف يكون لي ملف يعدّه مسؤول حين يذهب الفيلم إلى مختبر ميلان . وكان هذا يعني أنه عليَ أن أحاول سرقة ذلك الفيلم واستعادته بطريقةٍ ما » .

تنظر إلى المريض الإنكليزي الذي يبدو جسده النائم كأنه يبعد أميالاً في الصحراء ، يشفيه رجل يستمر في غمس أصابعه في الوعاء الذي صنعه من ضَمِّ نعليه ، منحنياً إلى الأمام ، ضاغطاً المسحوق الغامق على الوجه المحروق . تتخيّلُ وزنَ اليد على خدها هي .

تسير عبر الصالة وتصعد إلى أرجوحتها ثم تؤرجحها وهي تغادر الأرض .

إن لحظات ماقبل النوم هي اللحظات التي تشعر فيها بأنها أكثر حياةً ، تقفز عبر أجزاء اليوم ، محضرةً معها كلّ لحظةٍ إلى السرير كطفلٍ بكتبه المدرسية وأقلامه . يبدو أن اليوم لايمتلك نظاماً إلا في تلك الأوقات التي هي مثل جسْرٍ بالنسبة لها ، ويكون جسمها مليئاً بالقصص والمواقف . أعطاها كارافاجيو على سبيل المثال شيئاً ما ، دافعاً ، مسرحيةً وصورة مسروقةً .

يغادر الحفلة في سيارةٍ تصدرُ جلبةً على الممر الحصوي الذي يلتفّ ببطءٍ

خارجاً من محيط المنزل ، تزأر السيارة هادئة كالبحر في ليل الصيف . كان ينظر إلى المصورة بقية المساء أثناء اجتماع فيلاً « كوزيما » ويستدير مبتعداً كلما رفعت الكاميرا لتصوّر في جهته . والآن يستطيع أن يتجنبها بعد أن عرف أنها موجودة . يتحرك إلى نطاق حوارها ، اسمها « آنا » ، عشيقة ضابط سيبقى هنا في الفيلا هذه الليلة وفي الصباح سيسافر شمالاً عبر توسكاني . إن موت الفتاة أو اختفاءها المفاجئ سيثير الريبة . في هذه الأيام يتم التحقيق في أي شيء غير عادي .

يركض على الأعشاب بجوربه بعد أربع ساعات ، ظلّه ملتفٌ تحته ، ملون بالقمر . يقف على الممر الحصوي ويتحرك ببطءٍ فوق الصخر الرملي . ينظر إلى الأعلى نحو فيلا « كوزيما » ، إلى الأقمار المربعة للنافذة . قصر نساء الحرب .

شعاع سيارة ـ كشيء انتشر من خرطوم مياه ـ يضيء الغرفة التي هو فيها ويتوقف ثانية في منتصف الخطوة مشاهداً عيني المرأة عليه ورجلاً يتحرك فوقها ، أصابعه في شعرها الأشقر . ولقد رأتْ ، كما يعرف ، رغم أنه عارٍ الآن ، الرجل نفسه الذي صورته باكراً في الحفلة المزدحمة ، لأنه بالمصادفة يقف بالطريقة نفسها الآن ، نصف ملتفتٍ من الدهشة من الضوء الذي يكشف جسمه في الظلام . تنحرف أضواء السيارة إلى زاوية الغرفة وتختفي .

ثم يخيم السواد . لايعرف إن كان سيتحرك أو أنها ستهمس للرجل الذي يضاجعها عن وجود شخص آخر في الغرفة . لصٌ عارٍ . قاتلٌ عارٍ . أعليه أن يتحرك ـ ويرفع يديه ليحطم عنقاً ـ نحو الزوجين في الفراش ؟

يسمع ممارسة الرجل تستمر ، يسمع صوت المرأة ـ لاهمس ـ يسمعُ تفكيرها ، عيناها موجهتان نحوه في الظلام . يجب أن تكون الكلمة إنشغالاً بالتفكير . ينزلق ذهن « كارافاجيو » إلى هذا الاعتبار ، الى مقطع آخر ليوحي بجَمْع فكرةٍ كما يُصْلِحُ المرء بدون براعة دراجة نصف مكتملة . قال له أحد أصدقائه إن الكلمات أشياء مخادعة ، إنها مخادعة أكثر من الكمنجات . يتذكر ذهنه شَعْرَ المرأة الأشقر والشريطة السوداء التي فيه .

يسمع السيارة تستدير وينتظر لحظة ضوءٍ أخرى . مايزال الوجه الذي يبزغ من الظلمة كسهم ينظر إليه . ينتقل الضوء من وجهها إلى جسد الجنرال إلى السجادة ثم يلمس « كارافاجيو » وينحدر عليه مرة أخرى . لم يعد بوسعه أن يشاهدها . يهز رأسه ثم يحاكي قطع حنجرته . يرفعُ الكاميرا بين يديه ليجعلها تفهم ثم يدخل الظلمة ثانية . يسمع أنين متعةٍ يصدر عنها ويدرك أنها وافقت معه . لاكلمات ، لاتلميح بسخرية ، تبرم عقداً معه فقط . ترتّب شيفرة للتفاهم ، وهكذا يعرف أنه يستطيع أن يتحرك الآن بأمان إلى الشرفة ويقفز في الليل .

كان العثور على غرفتها أكثر صعوبة . دخلَ الفيلا وعبر بصمت الصور الجدارية التي تعود إلى القرن الخامس عشر على طول الممرات . في مكان ما كانت توجد غرف نومٍ كجيوب داكنة في بزّةٍ ذهبيّة . كانت الطريقة الوحيدة لعبور الحراس هي أن يبدو بريئاً . تعرّى بشكل كامل وترك ثيابه في حوض للأزهار .

يصعد عارياً ومتمهلاً الدرجَ إلى الطابق الثاني حيث الحراس ينحنون إلى الأسفل ليضحكوا على شيء ، خاص ، وجهه تقريباً إزاء ردفه . يستدعي انتباه الحراس إلى دعوته المسائية ، أكان هذا في الهواء الطلق ؟ أهذا إغواءٌ دون مصاحبة من الآلات الموسيقية ؟

صالة طويلة في الطابق الثالث . حارس قرب الدرج وآخر في النهاية القصوى على بعد عشرين ياردة وهكذا مشية مسرحية طويلة ، وعلى « كارافاجيو » أن ينجزها الآن مراقباً بريبةٍ واحتقار من قبل حارسين منتصبين قبالة بعضهما ، مشية المؤخرة والقضيب ، يقف عند قسم من الصور الجدارية ليحدق إلى حمار مرسوم في أيكةٍ . يسند رأسه على الحائط وينام تقريباً ثم يمشي ثانيةً . يتعثر وحالاً يجمع قوته في مشية عسكرية . تلوح يده اليسرى الضالة إلى سقف الملائكة الأطفال العراة الأكفال مثله ، تحيّة من لص ، رقصة

فالس قصيرة بينما يندفع المنظر الجصّي كيفما اتفق ويعبره ، قلاعٌ ، عليقٌ أبيض وأسود ، قديسون واقفون في يوم الثلاثاء هذا أثناء الحرب من أجل انقاذ قناعه وحياته . « كارافاجيو » في الخارج على الآجر يبحث عن صورته .

يربت على صدره العاري وكأنه يبحث عن معبر ، يمسك عضوه ويتظاهر بأنه يستخدمه كمفتاح ليدخله إلى الغرفة المحروسة . ضاحكاً يتراجع مغتاظاً من فشله الفاجع وينزلق إلى الغرفة الثانية وهو يطن .

يفتح النافذة ويخرج إلى الشرفة . ليلة جميلة مظلمة . ثم يتسلق ويهبط إلى شرفةٍ تقع في الطابق الأسفل . الآن فقط يستطيع أن يدخل إلى غرفة « آنا » وجنرالها . لاشيء أكثر من عطر في وسطهم . قدمٌ بلا أثر . بلا ظلّ . القصة التي رواها لولدِ أحدهم منذ سنوات عن الشخص الذي بحث عن ظلّه ـ كما يبحث الآن عن صورة نفسه في قطعة فيلم .

يدرك في الغرفة حالاً بدايات الحركة الجنسية . يداه في ثيابها المرمية على ظهور الكراسي ، الساقطة على الأرض . يستلقي ويتدحرج على السجادة ليشعر بأي شيء صلب كالكاميرا ، لامساً جلد الغرفة . يتدحرج في صمتٍ على شكل مروحة ولا يعثر على أي شيء . لايوجد حتى حبّة ضوء .

ينهض على قدميه ويؤرجح ذراعيه ببطء . يلمس صدراً رخامياً . تتحرك يده على طول يدٍ حجرية ـ يفهم الآن الطريقة التي تفكّر بها المرأة ـ عُلِّقَتْ عليها الكاميرا ، ثم يسمع السيارة وبشكل متزامن حين يستدير تشاهده المرأة في الانتشار المفاجئ لضوء السيارة .

يراقبُ « كارافاجيو » « هنا » التي تجلس مقابله وتنظر في عينيه محاولةً أن تقرأه ، محاولةً أن تحذر تدفّق الفكر كما اعتادت زوجته أن تفعل . يراقبها وهي تتنشّقهُ ، باحثة عن الأثر . يدفنه ويعيد النظر إليها عارفاً أن عينيه لا

تُخطئان ، واضحتان ، كأي نهرٍ ، موثوقتان كمنظر . يعرف أن الناس يضيعون فيهما وهو قادر على الاختباء بشكل جيد . إلا أن الفتاة تراقبه بسخرية ، تغطي رأسها بسؤال كما يفعل كلبٌ حين يتم التحدّث إليه بنبرةٍ أو طبقة صوتية غير بشرية . تجلس إزاءه أمام الجدران الغامقة الدموية اللون التي لا يحبُ لونها ، وبشعرها الأسود وتلك النظرة ، كانت نحيلةً صبغها ضوء البلاد باللون الزيتوني ، ذكّرته بزوجته .

لا يفكر بزوجته في هذه الأيام ، رغم أنه يعرف أن بوسعه أن يدور ويستدعي جميع حركاتها ، ويصف أي مظهر فيها ، وَزْنَ رسغها على قلبه أثناء الليل .

يجلس ويداه تحت الطاولة مراقباً الفتاة وهي تأكل . مايزال يفضّل أن يأكل وحيداً ، رغم أنه يجلس دائماً مع « هنا » أثناء الوجبات . يظن أنه الغرور . الغرور البشري . لقد شاهدته من نافذةٍ يأكل بيديه بينما كان يجلس على إحدى الدرجات الست والثلاثين قرب الكنيسة ، لاتظهر شوكة أو سكين ، وكأنه كان يتعلّم أن يأكل مثل شخص من الشرق . تشاهدُ أخيراً في لحيته الجذامية الشائبة وسترته السوداء ، الإيطاليَ الذي فيه . تلاحظ هذا كثيراً .

يراقب دُكْنتها إزاء الجدران البنية والحمراء ، يراقب جلدها ، شعرها القصير . كان يعرفها هي ووالدها في تورنتو قبل الحرب . ثم أصبح لصاً ، رجلاً متزوجاً ، انزلق في عالمه المختار بثقة كسولةٍ ، بارعاً في خداع الأغنياء أو في ابهاج زوجته « جيانيتا » أو هذه الإبنة الشابة لصديقه .

أما الآن فبالكاد يوجد عالم حولهما وأجبرا على الإنغماس في أنفسهما أثناء تلك الأيام في البلدة التليّة قرب فلورنسا ، داخل المنزل أثناء أيام المطر ، أحلام يقظة على الكرسي الناعم في المطبخ أو في السرير أو على السطح ، لا يمتلك مؤامرات ليُسَيِّرها ، يهتمُ فقط بـ « هنا » ويبدو أنها قيدتْ نفسها إلى الرجل الميت الذي في الطابق العلوي .

يجلس في مواجهة الفتاة أثناء الوجبات ويراقبها وهي تأكل .

منذ نصف عام ، كانت «هنا» قادرة على رؤية أسدٍ أبيض من نافذة تقع في نهاية الصالة الطويلة في مستشفى «سانتا تشيارا» في «بيزا» . كان ينتصب وحيداً على قمة الشرفات المفرّجة ويتصل لونياً مع الرخام الأبيض للكاتدرائية والمقبرة رغم أن شكله الفظّ والساذج بدا جزءاً من حقبةٍ أخرى . بدا كمثل هديةٍ من الماضي يجب أن تُقْبَل . مع ذلك قبلته أخيراً بين هذه الأشياء التي تحيط بالمستشفى . ستنظر في منتصف الليل عبر النافذة وتعرف أنه ينتصب أثناء اطفاء الأنوار في فترة حظر التجول وسيبزغ مثلها في تحوّل الفجر . ستنتظر الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف لترى صورته الظلية وتفصيلته النامية . كان يحرسها كل ليلة وهي تتحرك بين المرضى . حتى أثناء القصف تركه الجيش هناك ، واهتمَّ أكثر ببقيّة المجمّع الخيالي ـ بمنطقه المجنون حيث يميل البرجُ كشخص صَدَمَتْهُ قذيفة .

تقع أبنية المستشفى في أراضي أبرشية قديمة . ولم تعد الحديقة المشذَّبة التي نحتها رهبانٌ حريصون جداً منذ آلاف الأعوام محصورة داخل أشكال حيوانية يمكن التعرّف عليها ، وكانت الممرضات أثناء النهار يخرجنَ المرضى على كراسٍ مدولبة بين الأحجام الضائعة . بدا أن الحجر الأبيض بقيَ مستمراً فقط .

أصيبت الممرضات أيضاً بصدمة القذائف بسبب الموت حولهن ، أو من شيءٍ صغير كرسالةٍ . كن يحملن ذراعاً مقطوعة عبر الصالة أو يمسحن دماً لا يتوقف أبداً وكأن الجرح كان بئراً وبدأن يفقدن إيمانهن وثقتهن بأي شيء . تحطَّمْن بالطريقة التي كان يتحطم بها رجل وهو يحاول تعطيل لغمٍ لحظة انفجاره ، بالطريقة التي انهارت فيها «هنا» في مستشفى «سانتا تشيارا» حين سارَ مسؤول في المكان بين مائة سرير وسلّمها رسالةً أخبرتها بموت والدها .

أسدٌ أبيض .

في وقتٍ ما بَعْدَ هذا عثرت على المريض الإنكليزي ، على شخصٍ بدا

كحيوانٍ محروق ، متوتر وغامق ،بِركة لها ، وأصبحَ بعد شهور مريضها الأخير في فيلا «سان جيرولامو» . انتهت حربهما ورفض كلاهما العودة مع الآخرين إلى أمان مستشفيات «بيزا» . كانت جميع المرافئ الساحلية مثل «سورينتو» و «مارينا دي بيزا» مليئة بالجنود الأميركان الشماليين والبريطانيين الذين ينتظرون إرسالهم إلى أوطانهم . إلا أنها غسلتْ بزّتها ، طوتْها وأعادتها إلى الممرضات المغادرات . قيل لها إن الحرب لم تنته في كل مكان .

انتهت الحرب . هذه الحرب انتهت . الحربُ هنا . قيل لها سيكون مثل الفراق . هذا ليس فراقاً . سأبقى هنا . حُذِّرتْ من الألغام غير المنظّفة من قلة الماء والطعام . صعدتْ إلى الطابق العلوي ، إلى الرجل المحروق ، المريض الإنكليزي وقالت له إنها ستبقى أيضاً .

لم يقل شيئاً . لم يقدر حتى على إدارة رأسه نحوها . إلا أن أصابعه انزلقت إلى يدها البيضاء وحين انحنتْ فوقه وضع أصابعه السوداء في شعرها وأحسَّ بأنه باردٌ داخل وادي أصابعه .

كم عمرك ؟

عشرون .

قال إنه كان يوجد دوق حين كان يموت أراد أن يُحْمَل عالياً إلى برج في بيزا وهكذا يستطيع أن يموت ناظراً إلى المسافة الوسطى .

أراد صديقٌ لأبي أن يموت أثناء رقصة شنغهاي ، لا أعرفُ ماهي ، لقد سمع بها بنفسه .

ماذا يعمل والدك ؟

إنه... إنه في الحرب .

أنتِ أيضاً في الحرب .

لاتعرف عنه شيئاً . حتى بعد شهر أو أكثر من الاعتناء به وحَقْنهِ بالمورفين . خجلا كلاهما في بداية الأمر وكان هذا واضحاً من حقيقة أنهما

وحيدان . تغلّبا فجأة على الخجل . ذهب المرضى والأطباء والممرضات والعتاد والبطانيات والمناشف ، كلها هابطةً الهضبة إلى فلورنسا ومن ثم إلى بيزا . خبّأتْ أقراص الكودين بالإضافة إلى المورفين . راقبت المغادرة ، خطّ الشاحنات . وداعاً ، إذن . لوحت من نافذتها وهي تغلق المصاريع .

يرتفع خلف الفيلا حائطٌ صخريٌ أعلى من المنزل تتوضّع إلى الغرب من البناء حديقة طويلة مسيّجة ، وعلى بعد عشرين ميلاً كانت سجادة مدينة فلورنسا ، التي تختفي غالباً تحت ضباب الوادي . أفادت شائعة أن أحد الجنرالات الذين عاشوا في فيلا « ميديتشي » القديمة المجاورة ، أكلَ بلبلاً .

إن فيلا سان جيرولامو التي بُنيت لتحمي سكانها من لحم الشيطان ، تتمتع بمظهر حُصنٍ محاصر ، سقطتْ أعضاء معظم التماثيل أثناء الأيام الأولى للقصف . وبدا أنه يوجد ترسيمٌ قليل بين المنزل والبرية ، بين البناء المصاب وبقايا التراب الذي قُصفَ وحُرِق . كانت الحدائق البرية بالنسبة « لهنا » غرفاً إضافية . اشتغلت على حوافّها مدركة دائماً لوجود الألغام غير المتفجرة . بدأت تعمل بعاطفة وحشية تتولّد في شخصٍ ترعرع في المدينة فقط ، في بقعة تربتها خصبة تقع إلى جانب الفيلاّ ، رغم التراب المحروق ، رغم قلة الماء ، يوماً ما ستعلو تعريشة من الليمون ، غرف للضوء الأخضر .

دخلَ « كارافاجيو » إلى المطبخ ليجد « هنا » جالسة محدودبة الظهر إلى الطاولة . لم يستطع أن يشاهد وجهها ، أو ذراعيها المدسوستين تحت جسمها ، شاهدَ الظهر العاري والكتفين العاريتين فقط .

لم تكن هادئة أو نائمة . كان رأسها يهتز فوق الطاولة مع كلّ ارتعادة .

وقف « كارافاجيو » هناك . أولئك الذين يبكون يفقدون طاقةً أكثر مما

يفقدون حين يقومون بأي فعل آخر . لم يكن قد جاء الفجر بعد . وجهها إزاء ظلمة الطاولة الخشبية .

قالَ : « هنا »! وهدأت نفسها وكأنها يمكن أن تُموّه بالهدوء .

« هنا » .

بدأت بالأنين بحيث أصبح الصوت حاجزاً بينهما ، نهراً لايمكن عبره الوصول إليها .

لم يكن قرّر في البداية أن يلمسها وهي عارية فقال" « هنا » : ثم وَضَعَ يده المضمدة على كتفها . لم تتوقف عن الإرتجاف . ظن أنه الأسى الأعمق ، حيث الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي التنقيب عن كل شيء .

رفعت نفسها ومايزال رأسها الى الأسفل ثم وقفت إزاءه وكأنها تجرّ نفسها من المجال المغناطيسي للطاولة .

« لاتلمسني إذا كنت ستحاول أن تنام معي » .

كان الجلد شاحباً فوق تنورتها التي كانت كل ما ارتدته في هذا المطبخ وكأنها نهضت من السرير ، ارتدت ثيابها بشكل جزئي وجاءت إلى هنا ، الهواء البارد الذي يهب من التلال يدخل إلى المطبخ ويلفها بعباءته .

كان وجهها أحمر ومبللاً .

- « هنا » .

- « هل تفهم » ؟

- « لماذا تعبدينه كثيراً » ؟

- أحبه .

« « لاتحبينه ، تعبدينه » .

« اذهب يا « كارافاجيو » ، أرجوك » .

« لقد قيدتِ نفسك إلى جثة لسببٍ ما .

« أعتقد أنه قديس . قديس يائس . أتوجد أشياء كهذه ؟ رغبتنا هي أن نحميهم » .

« إنه لا يأبه حتى . . »

« أستطيع أن أحبه » .

« فتاة في العشرين من عمرها ترمي نفسها خارج العالم لتغرم بشبح!

توقّفَ « كارافاجيو » . عليك أن تحمي نفسك من الحزن . دعيني أقول لك هذا . هذا شيء تعلمته . إذا تجرعت سمّ شخص آخر ، ظانة أنه بوسعك أن تشفيه بمشاركتك له في ذلك ، ستخزنينه في نفسك بدلاً من ذلك . كان رجال الصحراء أذكى منك . افترضوا أنه يمكن أن يكون مفيداً وهكذا أنقذوه ، ولكن حين لم يعد مفيداً تركوه » .

« اتركني وحدي » .

حين تكون منعزلة تجلس واعيةً لعصبِ كعبها المُبلّل من الأعشاب الطويلة للبستان . تقشر خوخة عثرت عليها في البستان وتحملها في جيبها القطني الأسود . حين تكون وحيدة تحاول أن تتخيّل من يمكن أن يأتي على الطريق القديمة تحت الغطاء الأخضر لأشجار السرو الثماني عشرة ؟

حين يستيقظ المريض الإنكليزي تنحني فوق جسمه وتضع ثلث الخوخة في فمه . يلتقطه فمه المفتوح ، كالماء ، أما الفك فلا يتحرك . يبدو وكأنه سيصرخ من المتعة . تستطيع أن تحسَ أن الخوخة بُلِعَتْ .

يرفع يده ويمسح عن فمه القطرة الأخيرة التي لا يستطيع لسانه أن يصل إليها ويضع إصبعه في فمه ليمصّها . دعيني أخبركِ عن الخوخ ، يقول لها . حين كنتُ صبياً...

بعد الليالي الأولى ، بعد أن أُحرقت جميع الأسرّة كوقودٍ ضد البرد ، أخذتْ أرجوحة رجل ميت وبدأت تستخدمها . كانت تثبّت العلاّقات في أيةِ حيطان ترغب فيها ، في أية غرفةٍ تريد أن تستيقظ فيها ، عائمةً فوق كل القذارة والكورديت والماء الذي على الأرضية والجرذان التي بدأتْ تظهر هابطة من الطابق الثالث . كانت تتسلق كل ليلة إلى الخط الشبحي الخاكيَ للأرجوحة التي أخذتها من جندي ميت ، من شخص ماتَ وهي تعتني به .

حذاء للتنس وأرجوحة . هذا ما أخذته من الآخرين في هذه الحرب . ستستيقظ تحت زحف ضوء القمر على السقف ، مكسوّة بقميص قديم كانت تنام فيه دائماً بينما يتدلى ثوبها على مسمار قرب الباب . ارتفعت الحرارة الآن وبهذه الطريقة تستطيع أن تنام . من قبل ، حين يكون الجو بارداً ، كان عليهم أن يُشعلوا بعض الأشياء .

أرجوحتها وحذاؤها وثوبها . كانت آمنة في العالم الصغير الذي بنته وبدا الرجلان الآخران كوكبين بعيدين ، كلٌّ منهما يعيش في دائرة ذاكرته وعزلته الخاصّة . في تلك الأيام ، كان « كارافاجيو » الصديق الاجتماعي لوالدها في كندا ، قادراً على الصمود وخلق الفوضى في قافلة النساء التي بدا أنه يسلّم نفسه لها . يستلقي الآن في ظلمته . كان لصاً رفضَ أن يعمل مع الرجال لأنه لم يثق بهم . تحدث معهم إلا أنه فضّل أن يحادث النساء وحين كان يبدأ بالتحدث مع النساء كان يُقبض عليه حالاً بشبكات العلاقة . حين تتسلّل إلى المنزل في الساعات الباكرة للصباح ستجده نائماً على كرسي والدها ذي الذراعين مصاباً بالاعياء من السرقات الإحترافية أو الشخصية .

فكّرت « بكارافاجيو » ، هناك بعض الناس عليك أن تعانقهم فقط بطريقةٍ أو بأخرى ، أن تعضهم في عضلاتهم ، أن تبقى عاقلاً في حضرتهم . تحتاج أن تمسك شعرهم وتتعلق به كغريق وهكذا سيسحبونك إلى وسطهم ، وإلا سيقفزون من فوق حائطٍ ويذهبون لشهورٍ وهم يمشون بالمصادفة نحوك في الشارع وتقريباً على وشك أن يلوحوا بأيديهم . كعمٍ ، كانَ شخصاً يختفي .

سيزعجك « كارافاجيو » بأن يلفك ببساطة بين ذراعيه ، جناحيه . معه تعانقك الشخصية . إلا أنه يستلقي الآن في الظلمة مثلها في موقع ما من المنزل الضخم . وهكذا كان « كارافاجيو » هناك وكان يوجد الرجل الإنكليزي الصحراوي .

احتفظت طوال الحرب ببرودةٍ مخبأةٍ في دورها كممرضة أبقتها على قيد الحياة معَ جميع مرضاها الأسوأ حالةً . سوف أنجو من هذا . لن أتداعى . كانت هذه جملاً مدفونة طوال حربها ، عبر البلدان التي زحفوا نحوها ، عبر آربينو وأنغياري ومونتيرشي إلى أن دخلوا فلورنسا ومن ثم ذهبوا إلى أبعد وأخيراً وصلوا إلى البحر الآخر قرب بيزا .

شاهدت المريض الإنكليزي لأول مرةٍ في مستشفى بيزا . رجلٌ بلا وجه . برْكةٌ أبنوسيّة . كل ما يدل عليه احترق في النار . رُشَّتْ أجزاء من جسمه المحروق ووجهه بحمض التنيك الذي تصلّب متحولاً إلى صدفةٍ حامية فوق جلده الخام . وكانت المنطقة حول عينيه مغطاة بطبقةٍ كثيفة من الجنطيانا البنفسجية . لم يكن يوجد فيه شيء يُعرف .

تجمع أحيانا عدةَ شراشف وتستلقي تحتها ، مستمتعةً بوزنها أكثر من استمتاعها بالدفء الذي تسبّبه . وحين ينزلق ضوء القمر على السقف ، يوقظها فتستلقي في الأرجوحة وذهنها يتنقّل . تجد أن الراحة الناجمة عن عدم النوم الحالة الأكثر امتاعاً . لو كانت كاتبة ، ستجمع أقلامها ودفاترها وقطتها المفضّلة وتكتب في الفراش . لن يعبر الغرباء أو العشّاق البابَ المقفل .

إن الراحة هي استقبال جميع مظاهر العالم دون حُكمٍ . حمام بحري . ممارسة الجنس مع جندي لايعرف اسمك أبداً . رقة إزاء المجهول واللامسمى . كانت رقّة مع الذات .

تتحرك ساقاها تحت عبء البطانيات العسكرية . تسبحُ في صوفها كما كان المريض الإنكليزي يتحرك في غشاء مشيمته .

ما تفتقده هنا هو البرق البطيء ، صوت الأشجار المألوفة . تعلّمت طوال شبابها في تورنتو أن تقرأ ليلَ الصيف . يحدثُ هذا حين تكون وحدها مستلقية في السرير ، تندفع عبر مخرج للنجاة من النار ، نصف نائمة حاملة قطة بين ذراعيها .

كان « كارافاجيو » هو غرفَة صفّها أثناء طفولتها . لقد علّمها الشَقْلَبَة . أما الآن فهو يومئ فقط بكتفيه بما أنه يضع يديه دائماً في جيبيه . من كان يعرف في أية بلادٍ جعلته الحرب يعيش . هي نفسها تدرَّبتْ في مستشفى كلية نسائية ثم أرْسلت إلى ما وراء البحار أثناء الغزو الصقلي حدث هذا في ١٩٤٣ . فرقة المشاة الكندية الأولى التي شقت طريقها إلى إيطاليا ، وغذّيتْ المستشفيات الميدانية بالأجساد المحطّمة كالوحل الذي يمرّره حافرو الأنفاق في الظلام . بعد معركة آريزو ، حين تراجع السيل الأول للجنود ، أحيطت ليلاً نهاراً بجراحهم بعد ثلاثة أيام كاملةٍ دون راحة ، استلقتْ أخيراً على الأرض قُرب مخدة حيث كان يستلقي أحدهم ميتاً ونامت إثنتي عشرة ساعة ، مغلقة عينيها إزاء العالم الذي حولها .

حين استيقظت ، التقطت مقصاً من الوعاء البورسلاني ، انحنتْ وبدأت تقص شعرها غير مهتمة بالشكل أو بالطول ، تقصه فقط ـ كان الغيظ من حضوره أثناء الأيام الماضية مايزال في ذهنها ـ حين انحنت إلى الأمام ولمس شعرها الدمَ في جرح . لاتملك شيئاً ليصلها بالموت . أمسكتْ بما تبقّى لتتأكد أنه لم تعد توجد خصل أخرى واستدارت ثانية لتواجه الغرف المليئة بالجرحى .

لم تنظر إلى نفسها في المرايا مرة ثانية أبداً . وحين أصبحت الحرب أكثر سواداً تلقّت تقارير عن كيفية موتِ بشرٍ معيّنين كانت تعرفهم . خافتْ من اليوم الذي ستزيل فيه الدم عن وجهِ مُصابٍ وتكتشف والدها أو شخصاً كان يقدّم لها الطعام عبر طاولة المحاسبة في شارع « دانفورث » . أصبحت قاسية مع نفسها ومع المرضى . إن العقل هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم

ولم يكن يوجد عقل . وارتفع مقياس سفح الدماء في البلد . أين كانت وماذا كانت تورنتو في ذهنها بأية حال ؟ كانت هذه أوبرا خائنة . أصبح البشر خشنين مع الذين حولهم ـ جنود ، أطباء ، ممرضات ، مدنيون . انحنت « هنا » مقتربةً أكثر من الجراح التي كانت تعتني بها ، وفمها يهمس للجنود .

كانت تدعو كلّ شخصٍ بصديقي وتضحك من الأغنية التي تحتوي هذه السطور :

كلما صادفَ ورأيتُ فرانكلن

يقول دائماً لي : مرحباً ، صديقي .

نظّفت أذرعاً استمر نزيفها . أزاحت قطعاً كثيرة من الشظايا وشعرت بأنها أخرجت طناً من المعدن من الجسم البشري الذي كانت تعتني به بينما كان الجيش يتحرك شمالاً . حين مات مريض في إحدى الليالي تجاهلتْ جميع القوانين وأخذت حذاء التنس الذي كان يضعه في حزمته وارتدته . كان كبيراً على قدميها قليلاً إلا أنها كانت مرتاحة .

أصبحَ وجهها أكثر فظاظة ونحولاً ، ذلك الوجه الذي سيقابله « كارافاجيو » فيما بعد . كانت نحيلة من التعب . كانت جائعة دائماً وتجد أن إطعامَ مريضٍ لايستطيع أن يأكل أولا يريد شيئاً مرهقاً جداً وهي تراقب الخبز يتفتت والحساء يبرد راغبة أن تبلعه بسرعة . لم ترغب في أي شيء غريب الطراز ، فقط تريد الخبز واللحم . كان في أحد البلدان قسم لصناعة الخبز ملحق بالمستشفى وكانت في وقت فراغها تتحرك بين الخبازين مستنشقة الغبارَ ووعدَ الطعام . فيما بعد ، حين أصبحوا في شرق روما ، قدّم لها أحدهم هديةً من خرشف القدس .

كان من الغريب النوم في الباسيليقات أو الأبرشيات أو في أي مكان كان يتم إيواء الجرحى فيه ، ودائماً كانوا يتحركون شمالاً . كانت تزيل العلم الكرتوني الصغير عن قدم السرير حين يموت أحدهم بحيث سيعرف المساعدون ذلك بنظرة سريعة ، ثم ستغادر البناء السميك الأحجار وتخرج

إلى الربيع أو الشتاء أو الصيف ، الفصول التي بدت عتيقة الطراز ، التي كانت تجلس كعجائز طوال الحرب . ستخرج كيفما كان الطقس . كانت تريد هواءً لا تفوح منه رائحة بشرية ، كانت تريد ضوءَ القمر حتى لو جاءَ مع عاصفةٍ مطريّة .

مرحباً صديقي ، وداعاً يا صديقي . كان الاهتمام قصيراً . كان يوجد عَقْدٌ إلى لحظة الموت فقط . لم يعلمها شيء في روحها أو ماضيها أن تصبح ممرضة . إلا أن قصَّ شعرها كان عَقْداً استمر إلى أن عسكروا في فيلا سان جيرولامو الى الشمال من فلورنسا . كان هناك أربع ممرضات وطبيبان ومائة مصاب . وكانت الحرب في إيطاليا تتحرك بعيداً إلى الشمال وكانوا ما تُركَ في الخلف .

ثم أثناء احتفالات أقيمت بمناسبة نَصْر محلي والتي كانتْ كئيبة نوعاً ما في هذه البلدة التلّية ، قالت إنها لن تعود إلى فلورنسا أو روما أو أي مستشفى آخر وإنَّ حَرْبَها انتهتْ . ستبقى مع الرجل المحروق الذي يدعونه « المريض الإنكليزي » ، الذي يجب ألا يُنقل أبداً كما توضّح لها ، بسبب هشاشة أعضائه . ستضع حشيشة ست الحسن على عينيه ، تغسل الجلد ذا الندوب والحروق الخطيرة بالملح المعدني . قيلَ لها إن المستشفى غير آمن ـ الدير الذي كان لعدة شهور نقطة دفاع ألمانية ، أمطره الحلفاء بالقذائف والانفجارات . لن يُترك لها شيء ، ولن يكون هناك أمان من قطّاع الطرق . إلا أنها أصرّت على رفض المغادرة . خلعت لباس التمريض وأخرجت الثوب المطبوع الذي حملته شهوراً وارتدته مع حذاء التنس . ابتعدت عن الحرب . لقد تحركت جيئة وذهاباً وفق رغبتهم . ستبقى في الفيلا مع الإنكليزي إلى أن تستردها الراهبات . كان يوجد شيء حياله تريد أن تتعلّمه ، أن تترعرع فيه ، أن تختبئ فيه لتستطيع أن تخرج من كونها راشدة . كان يوجد بعض الفالس في الطريقة التي تحدث بها معها وفي الطريقة التي فكّر بها . أرادتْ أن تنقذه ، هذا الذي لا اسم له ، الذي بلا وجه ، والذي كان واحداً من المئتين الذين

وُضعوا تحت عنايتها أثناء الغزو شمالاً .

ابتعدت عن الاحتفال مرتدية ثوبها المخطّط . دخلتْ إلى الغرفة التي تقاسمتها مع الممرضات الأخريات وجلست . لمعَ شيء في عينيها حين جلستْ والتقطتْ عين مرآةٍ صغيرةٍ مستديرة . نَهضتْ ببطء وسارتْ نحوها . كانتْ صغيرة جداً ولكن رغم ذلك بدتْ شيئاً مترفاً . رفضتْ أن تنظر إلى نفسها لأكثر من عام ، فقط إلى ظلها بين فينة وأخرى على الحائط . كشفت المرآة خدها فقط ، كان عليها أن ترجعها طولَ ذراع ويدها ترتجف . راقبت صورتها الصغيرة وكأنها داخل بروش مشبوك . إنها هيَ . كان يدخل من النافذة صوت المصابين الذين يتم إخراجهم إلى ضوء الشمس على كراسيهم المدولبة ، يضحكون ويبتهجون مع الموظفين . كان في الداخل أولئك المصابون بشكل خطير فقط . ابتسمت . قالت : مرحباً صديقتي . حدّقت بنظرتها ، محاولة أن تتعرّف على نفسها .

تخيّم الظلمة بينَ « هَنَا » و« كارافاجيو » حين يمشيان في الحديقة ويبدأ في التحدّث إليها بطريقته التشدّقية البطيئة المألوفة .

« كانت حفلة عيد ميلاد أحدهم في وقت متأخر من الليل في شارع دانفورث . مطعم النايت كرولر . هل تذكرين يا هنا ؟ كان يجب على كل شخص أن يقف ويغنّي أغنية . والدك ، أنا ، جيانيتا ، الأصدقاء ، وقلت إنك تريدين ذلك أيضاً ـ لأول مرةٍ . كنت ما تزالين في المدرسة آنذاك ، ولقد تعلّمت الأغنية في صفّ اللغة الفرنسية .

« قمت بها بشكل رسمي ، وقفت على المقعد ثم خطوت خطوة أخرى إلى الطاولة الخشبية بين الصحون والشموع التي تشتعل .

"Alonson Fon"

« غنيّتِ واضعةً يدك اليُسرى على قلبك . Alonson Fon لم يعرف نصف الموجودين ماذا تغنين وربما لم تعرفي معنى الكلمات بدقة ولكنك كُنت تعرفين موضوع الأغنية .

حرّك النسيم الذي هبّ من النافذة تنورتك فكانت على وشك أن تلمس شمعةً وبدا كعباك أبيضين من النار في البار . كانت عينا والدك تنظران إلى الأعلى نحوك وأنت إعجازية بهذه اللغة الجديدة ، والسبب يتدفق متميزاً ، صحيحاً ، دون ترددات والشموع تنحرف وبالكاد تلمس فستانك . وقفنا في النهاية ومشيت على الطاولة إلى ذراعيه .

- « سأنزع الضمادات عن يديك ، أنت تعرف أنني ممرّضة .
- إنها مريحة كالقفازات .
- « كيفَ حدث هذا » .
- « قُبضَ عليَ وأنا أقفز من نافذة امرأة . المرأة التي أخبرتك عنها ، التي التقطتْ الصورة . لم يكن هذا خطؤها .

تمسكُ ذراعه وتدلك العضلات : « دعني أفعل هذا » .

تخرج اليدين المضمدتين من جيبي معطفه . شاهدتهما رماديتين في ضوء النهار ، إلا أنهما مضيئتان تقريباً في هذا الضوء .

يخطو إلى الوراء وهي تحلّ الضمادات ، يخرج البياض من ذراعيه وكأنه ساحرٌ ، إلى أن يتحرّر منه . تمشي نحو عمّ الطفولة ، ترى عينيه تأملان أن تلتقطا عينيها من أجل تأجيل ذلك ، وهكذا لا تنظر إلى أي شيء سوى عينيه .

يداه مطويتان سويةً كوعاء تصلُ إليهما بينما يرتفع وجهها إلى خدّه ثم يعشعش في عنقه . ماتمسكه يبدو ثابتاً ومُعافياً .

- « قلتُ لكِ إنه كان عليَ أن أفاوض من أجل ماتركوه لي » .
- « كيف فعلت ذلك » ؟
- « جميع تلك المهارات التي كنتُ أمتلكها » .
- « آه! أذكر . لا ، لا تتحرك . لا تنحرف بعيداً عني » .
- « إنه وقت غريب . نهاية حربٍ » .
- « نعم ، فترة تكيّف » .

ـ « نعم » .
رفع يديه إلى الأعلى وكأنه يريد أن يغطّي الهلال .
ـ « لقد قطعوا كلا الإبهامين يا « هنا » . انظري » .
يرفع يديه أمامها ويريها بشكل مباشر ما لمحته . يقلبُ يداً وكأنه يريدُ أن يكشف أن هذا ليس خدعة . أن ما يبدو كاللّغد هو حيث قُطع الإبهام . يحرك اليدَ نحو بلوزتها .
تشعرُ أن القماش رفع في منطقةٍ تحت كتفها حين تمسكه بإصبعين وتشده بنعومة نحوه .
ـ « ألمس القطن هكذا » .
ـ « حين كنتُ طفلةً اعتقدت دائماً بأنك البطل « بيمبرنل » ، وخطوت معكَ في أحلامي على السقوف الليلية . كنت تجيء إلى المنزل حاملا لي وجباتٍ باردة وعلبَ أقلام رصاص وموسيقا بيانو صحائفية* من فورست هيل » .
تتحدّث مع ظلمة وجهه ، ظل من الأوراق يغطّي فمه كشريطة امرأة غنيّة .
ـ « أنت تحب النساء ، أليس كذلك ؟ لقد أحببتهن » ؟
ـ أحبهن . لماذا تستخدمين صيغة الزمن الماضي ؟
ـ « يبدو أن الأمر غير مهم الآن ، بسبب الحرب وأشياء كهذه » .
يهز رأسه وينأى عنه ظلّ الأوراق .
« اعتدت أن تكون مثل أولئك الرسامين الذين يرسمون في الليل فقط ، ويوجد مصباح واحد مضاء في شارعهم مثل جامعي الديدان بعلب قهوتهم القديمة المربوطة إلى كواحلهم وخوذة الضوء تُطلقُ على العشب . في جميع حدائق المدينة . أخذتني إلى ذلك المكان ، إلى ذلك المقهى حيث يبيعونها . كان مثل البورصة ، كما قلت ، حيث سعر الديدان ينخفض ويرتفع ، خمسة

* موسيقا مطبوعة على صحائف عريضة غير مجلدة .

ستتات ، عشرة ستتات . والبشر يبدّدون أو يجمعون الثروات . أتذكر ؟

- « نعم » .

- « عد معي . إن الجو يبرد » .

- « يولد النشّالون العظام واصبعهم الثاني والثالث تقريباً بالطول نفسه . لايحتاجان أن يدخلا عميقاً في جيبٍ . المسافة الكبيرة لنصف إنش .

يتحركان نحو المنزل ، تحت الأشجار .

- « من فعل هذا بك » ؟

- « عثروا على امرأةٍ للقيام بذلك . ظنوا أن هذا أكثر فعاليةً . أحضروا إحدى ممرضاتهم . كان رسغاي مقيدين إلى ساقي الطاولة بالأصفاد . حين قطعوا إبهاميَّ انزلقت يداي منها بدون أية قوة . كأمنية في حلم . إلا أن الرجل الذي طلبَ منها الدخول ، كان هو المسؤول فعلاً « رانسيو توماسوني » . كانت بريئةً لا تعرف شيئاً عني أو اسمي أو جنسيتي أو ما الذي فعلته » .

حينَ دخلا إلى المنزل كان المريض الإنكليزي يصيح . تركتْ « هنا » « كارافاجيو » الذي راقبها وهي تركض صاعدةً الدرج . حين مشى نحو الغرفة أصبحت الصرخات أكثر تهيّجاً . حين دخلت إلى غرفة النوم كان الإنكليزي يحدّق في كلب كان رأسه مرتداً إلى الخلف وكأنه منذهلٌ من الصراخ . نظرت « هنا » إلى « كارافاجيو » وابتسمت .

- « لم أر كلباً طوال أعوامٍ . طوال الحرب ، لم أر كلباً » .

انحنت وضمّت الحيوان شامّةً شعره ورائحة أعشاب الهضبة فيه . وجّهت الكلب نحو « كارافاجيو » الذي كان يقدّم له قطعة خبز . عندئذ شاهدَ الإنكليزي « كارافاجيو » فارتخى فكّه . بدا له أن الكلب الذي تحجبه « هنا » الآن ، قد تحوّل إلى إنسانٍ . حمل « كارافاجيو » الكلبَ بين ذراعيه وغادرَ الغرفة .

كنتُ أفكّر ، قال المريض الإنكليزي ، إن هذه يجب أن تكون غرفة

« بوليزيانو » . يجب أن تكون هذه الفيلا التي نحن فيها له . إنه الماء الذي يخرج من ذلك الحائط . من ذلك النبع القديم . إنها غرفة مشهورة . التقى جميعهم هنا .

قالت بهدوء إن هذا مستشفى . قبل ذلك بوقتٍ طويل ، كان ديراً للراهبات . ثم احتلته الجيوش .

أعتقد أن هذه كانت فيلا « برسكولي » . « بوليزيانو » ـ الربيب الكبير « للورنزو » . أنا أتحدث عن عام ١٤٨٣ . تستطيعين أن تشاهدي في فلورنسا ، في كنيسة « سانتا ترينيتا » لوحة آل مديتشي مع بوليزيانو في القادمة يرتدي عباءة حمراء . رجل كريه ، متألق . عبقريّ شقّ طريقه إلى الأعلى في المجتمع .

كان الوقت بعد منتصف الليل وكانَ مستيقظاً مرّة ثانيةً بشكلٍ كامل . وفكَرتْ ، حسناً ، أخبرني ، خذني إلى مكانٍ ما . كان ذهنها مايزال مشغولاً بيدي « كارافاجيو » . « كارافاجيو » الذي كان الآن على الأرجح يطعم الكلب الضال شيئاً من مطبخ فيلاً « برسكولي » ، إذا كان هذا هو اسمها .

كانتْ حياة دموية . الخناجر والسياسة والقُبّعات الثلاثية الطبقات والجوارب الكولونيالية المبطّنة والشعر المستعار . لمّات مستعارة حريرية . جاء « ساڤونارولا » فيما بعد طَبْعاً ، لم يتأخر كثيراً ، وكان يوجد عمله « نار التفاهات » . بوليزيانو ترجمَ هوميروس . كتب قصيدة عظيمة عن « سيمونيتا فيسبوتشي » ، أتعرفينها ؟

لا ، قالت « هنا » وهي تضحك .

اللوحات التي رسمتها منتشرة في جميع أنحاء فلورنسا . ماتتْ من السلّ في سن الثالثة والعشرين . جعلها مشهورة في لاستانز بير لا غيوسترا ثم رسمَ بوتيشلي مشاهدَ منها . ليوناردو رسم مشاهدَ منها . وسيحاضر « بوليزيانو » كل يوم لمدة ساعتين باللاتينية صباحاً ولمدة ساعتين باليونانية بعد الظهر . صادف شخصاً يدعى « بيكو ديلا ميراندولا » . كان عضواً بارزاً

في المجتمع متوحشاً ارتدّ فجأة وانضم إلى « سافورنارولا » .
هذه كانت كنيتي حين كنت طفلاً . بيكو .

نعم ، أعتقد أن الكثيرَ حدثَ هنا . هذا النبع الذي في الحائط . بيكو ولورنزو وبوليزيانو ومايكل آنجلو . حملوا في كلّ يدٍ العالم الجديد والعالم القديم . اصطادت المكتبة الكتب الأربعة الأخيرة لـ« شيشرون » . استوردوا زرافةً ووحيدَ قرن وطائر الدودو . رسمَ « توسكانيللي » خرائط للعالم معتمداً على المراسلة مع التجار . جلسوا في هذه الغرفة مع تمثال نصفي لأفلاطون وتجادلوا طوال الليل .

ثم جاءت صرخة « سافونارولا » من الشوارع : التوبة! الطوفان قادم! وكُنِسَ كلُّ شيء ـ الإرادة الحرة ، الرغبة في الأناقة ، الشهرة ، حق عبادة أفلاطون بالإضافة إلى المسيح . وجاءت النيران ـ إحراق اللّمات المستعارة والكتب وجلود الحيوانات والخرائط . بعد أكثر من أربعمائة عامٍ فيما بعد فتحوا القبور . كانتْ عظام « بيكو » محفوظة بينما تفتّتتْ عظام بوليزيانو .

أصغت « هنا » بينما كان الإنكليزي يقلبُ صفحات كتابٍ مألوف ويقرأ المعلومات المقصوصة من كتب أخرى والملصقة عن الخرائط العظيمة التي ضاعت في النيران وعن حرق تمثال أفلاطون الذي تقشّر رخامه من الحرارة ، عن الشقوق في الحكمة مثل تقارير دقيقة عبر الوادي حين وقف بوليزيانو على التلال المعشوشبة ليشمّ المستقبل . بيكو أيضاً هناك في مكانٍ ما ، في حجرته الرمادية ، يراقب كلّ شيء بالعين الثالثة للخلاص .

سكبَ بعض الماء في وعاء للكلب . كلب عجوز مهجّن ، أعمر من الحرب . جلسَ مع إبريق الخمر الزجاجي الذي أعطاه رهبان الأبرشية « لهنا » . كان هذا منزل « هنا » وكان يتحرك بحرص دون أن يعيد ترتيب أي شيء .

لاحظ تحضّرها في الأزهار البرية الصغيرة ، الهدايا الصغيرة التي تقدمها لنفسها . حتى في الحديقة المغطاة بالعشب سيعثر على قدمٍ مربّع من العشب مقصوصٍ بمقص تمريضها . لو كان رجلاً أكثر شباباً لأحبَّ هذا .

لم يعد شاباً . كيف رأته ؟ بجراحه ، بفقدانه لتوازنه ، بالخصلات الشائبة في قفا عنقه . لم يتخيّل نفسه أبداً رجلاً يتمتّع بحسّ السنّ والحكمة . كبرَ الجميع ، إلا أنه مايزال يشعر أنه لا يمتلك الحكمة ليواكب اكتهاله .

انحنى ليراقب الكلب وهو يشرب وأعاد موازنة نفسه متأخراً جداً ممسكاً الطاولة ، هازاً إبريق الخمرة .

اسمك « ديفيد كارافاجيو » ، أهذا صحيح ؟

قيّدوه بالأصفاد إلى الأرجل السميكة لطاولةٍ من خشب البلّوط .

مرة نهضَ وهيَ بين ذراعيه ، الدم يتدفّق من يده اليُسرى ، وحاول أن يركض بها عبر باب رقيقٍ وسَقَطَ . توقّفت المرأة ، مسقطة السكين ، رافضة أن تفعل المزيد . انزلق درج الطاولة إلى الخارج وسقط على صدره بجميع محتوياته وظنَّ أنه ربما يوجد مسدّس يستطيع أن يستخدمه عندئذٍ التقط « رانسيو توماسوني » الموسى وجاءَ إليه . « كارافاجيو » أهذا صحيح ؟ كان مايزال غير متأكد .

حين استلقى تحت الطاولة سقط على وجهه الدمُ الذي نزفَ من يديه وفجأة فكّر بوضوح وانزلق من الصفد المثبّت إلى رجل الطاولة قاذفاً الكرسي بعيداً لينسى الألم ثم استلقى إلى اليسار ليخرج من الصفد الآخر . الدمُ في كل مكان الآن . لا فائدة من يديه . فيما بعد وطوال أشهر وجد نفسه ينظر إلى إبهام البشر وكأن الحادثة قد غيّرته لتجعله حسوداً فقط . إلاّ أن الحدث أنتج كهولةً ، مثلما حدثَ في تلك الليلة حين قيّدوه إلى الطاولة وسكبوا فيه محلولاً آذاه .

وقف دائخاً فوق الكلب ، فوق الطاولة المبلّلة بالخمرة الحمراء . حارسان ، المرأة ، « توماسوني » ، التلفونات ترنّ وتقاطع « توماسوني » الذي

سيضع الموسى ويهمس بسخرية : المعذرة ، ويلتقط السماعة بيده الملطخة بالدم ويصغي . وفكر أنه لم يقل لهم شيئاً له قيمة ، إلا أنهم تركوه يذهب وهكذا ربما كان مخطئاً .

ثم سارَ على طول « فيا دي سانتو سبيريتو » إلى الموضع الجغرافي الذي خبَّأه في دماغه . سارَ عابراً كنيسة « برونيليستشي » نحو مكتبة المعهد الألماني حيث كان يعرف شخصاً معيّناً سيعتني به . إن تَرْكَهُ يمشي بحرية سيخدعه ويجعله يكشف هذا الاتصال . فجأة أدرك أن هذا هو سبب اطلاق سراحه . انعطف إلى شارع جانبي دون أن ينظر خلفه أبداً . أراد أن يعثر على نارٍ بحيث يقدر أن يوقف نزيف جراحه ، يضعها فوق دخان مرجلِ زفْتٍ بحيث يغطّي الدخان الأسود يديه . كان على جسر « سانتا ترينيتا » . لم يكن يوجد شيء حوله ، لا مواصلات ، وهذا أدهشه . جلس على الدرابزون الناعم للجسر واستند إلى الخلف . لا أصوات . باكراً ، حين سارَ واضعاً يديه في جيبيه الرطبين ، كانت ثمت الحركة المهووسة للدبابات وسيارات الجيب .

حين استند هناك انفجر الجسرُ الملغوم وقُذفَ إلى الأعلى ثم إلى الأسفل كجزءٍ من نهاية العالم . فتح عينيه فرأى رأساً عملاقةً إلى جانبه . تنفّس وامتلأ صدره بالماء . كان تحت الماء . كان رأس ملتحٍ قربه في مياه « آرنو » الضحلة . وصل إليه إلا أنه لم يستطع حتى أن يلكزه . كان الضوء ينسكب في النهر . سبحَ إلى السطح الذي كانت أقسام منه تشتعل .

حين روى « لهنا » القصة فيما بعد في ذلك المساء . قالت : « توقفوا عن تعذيبك لأن الحلفاء كانوا قادمين . كان الألمان يخرجون من المدينة وينسفون الجسور لدى مغادرتهم » .

ـ « لا أعرف . ربما قلتُ لهم كل شيء . رأسُ من كان ذاك ؟ كانت هناك اتصالات تلفونية متواصلة مع تلك الغرفة . سيسود صمت وسينسحب الرجل عنّي وسيراقبه الجميع وهو على التلفون يصغي لصمت الصوت الآخر الذي لم

نستطع أن نسمعه . صوتٌ من ؟ رأس من ؟ »

« كانوا يغادرون ،ياديفد » .

تفتح كتاب الموهيكاني الأخير إلى الصفحة البيضاء في الخلف وتبدأ بالكتابة عليها .

يوجدُ رجلٌ يُدعى « كارافاجيو » صديق لوالدي . أحببتهُ دائماً . هو أكبر منّي ، حوالي الخامسة والأربعين على ما أعتقد . إنه في زمن ظلام ولايمتلك ثقة بنفسه . لسبب ما يحرصُ عليَّ صديق أبي هذا .

تغلقُ الكتاب ثم تسيرُ هابطةً إلى المكتبة وتخبئه على أحد الرفوف العالية .

كان الإنكليزي نائماً ، يتنفس من فمه كما يفعل دائماً في اليقظة أو في النوم . نهضت عن كرسيها وانتزعتْ بلطف الشمعة التي كان يحملها بيديه . ذهبت إلى النافذة ونفختها لتخرج الدخان من الغرفة . كرهتْ استلقاءه هناك حاملاً شمعة بيديه مقلداً وضعية الموت والشمع يتساقط ، دون أن يلاحظه ، على رسغه ، وكأنه كان يجهِّز نفسه ، وكأنه أراد أن ينزلق في موته الخاص مقلداً مناخه وضوءه .

وقفت قرب النافذة وأمسكتْ أصابعها شعر رأسها مسكةً قويةً وشدته . في الظلام ، في أي ضوء بعد الغسق ، تستطيع أن تشق شرياناً وسيكون الدمُ أسودَ .

احتاجت أن تنتقل من الغرفة . فجأة شعرتْ برهاب الاحتجاز وبأنها غير متعبة . خطت عبر الصالة ونزلت الدرج وخرجت إلى مصطبة الفيلا ، ثم نظرتْ إلى الأعلى وكأنها تحاول أن تميّز شكل الفتاة التي ابتعدت عنها . عادت إلى البناء . دفعت الباب الصلب المنتفخ ودخلتْ المكتبة مُدْخِلة الهواء الليلي . لم تعرف أين كان « كارافاجيو » . كان يخرج معظم الأمسيات ويعود عادة قبل ساعات قليلة من الفجر . على أية حال لا إشارة تدل عليه .

أمسكت الشرشف الرمادي الذي يغطّي البيانو ومشتْ إلى زاوية الغرفة ساحبةً إياه خلفها قماشاً متموجاً ، شبكة من الأسماك .

لاضوء . سمعتْ قصف رعد بعيد .

كانت تقف أمام البيانو . دون أن تنظر إلى الأسفل أخفضت يديها وبدأت تعزف ، مناغمةً الصوت فقط ، محيلةً اللحن إلى هيكل عظميّ . كانت تتوقف بعد كل مجموعة من الألحان وكأنها تخرج يديها من الماء لترى ما الذي أمسكته ، ثم تتابع واضعةً العظام الرئيسية للّحن . أبطأتْ حركات أصابعها أكثر . كانت تنظر إلى الأسفل حين انزلق رجلان عبر الأبواب الفرنسية ووضعا بندقيتيهما على نهاية البيانو ووقفا أمامها . كان مايزال صخب النغمات في هواء الغرفة المتبدّل .

ذراعاها على جانبيها ، قدم عارية على دواسة الصوت تتابع مع الأغنية التي علمتها إياها أمها ، التي كانت تتمرّن عليها على أي سطح ، على طاولة مطبخٍ أو حائط حين تصعد إلى الطابق الثاني ، على فراشها قَبْل أن تنام . لم يكن لديهم بيانو . اعتادتْ أن تذهب إلى مركز الجماعة في صباحات السبت وتلعب هناك ولكنها كانت تتمرّن طوال الأسبوع أينما كانت متعلمةً الألحان المرسومة بالحوّار التي رسمتها أمها على طاولة المطبخ ثم مسحتها فيما بعد . كانتْ هذه هي المرة الأولى التي عزفت فيها على بيانو الفيلاّ ، رغم أنها أمضتْ هنا ثلاثة أشهر ، التقطت عينها شكله في يومها الأول هناك ، عبر الأبواب الفرنسية . كانت البيانوهات في كندا تحتاج للماء . تفتح القفا وتترك كأساً مليئة بالماء وبعد شهر ستفرغ الكأس . كان والدها قد أخبرها عن الأقزام الذين يشربون في البيانوهات ولايشربون أبداً في البارات . لم تصدق هذا أبداً وظنّتْ في البداية أنها الفئران على الأرجح .

وميض برقٍ عبر الوادي ، العاصفة تهبُّ طوال الليل ، وشاهدت أن أحدَ الرجلين سيخيٌّ . توقّفت وابتسمتْ نوعاً ما مندهشةً ، مرتاحةً على أية حال ، كان عرض الضوء خلفهما قصيراً بحيث لمحت لوهلة قصيرة جداً عمامته والبنادق المبلّلة المشعّة . كان الغطاء المرتفع للبيانو قد أزيح واستخدم كطاولة مستشفى منذ عدة شهور بحيث أسندا بندقيتيهما على الطرف البعيد لحفرة المفاتيح . كان بوسع المريض الإنكليزي أن يحدّد نوع الأسلحة . إنه الجحيم . إنها محاطة برجال أجانب . لايوجد حتى إيطالي واحد نقي . فيلا قصّة رومانسية . ماذا كان بوليزيانو سيفكّر حيال هذا المشهد لعام ١٩٤٥ ، رجلان وامرأة إزاء بيانو والحرب منتهية تقريباً والبندقيتان في تألقهما المبلّل كلّما انزلق البرق إلى الغرفة ـ كلّ شيء باللون والظلّ كما كان يفعل الآن وكل نصف دقيقة يفرقع الرعدُ في كل الوادي والموسيقا التجاوبية ، ضغط الأنغام المتآلفة حين آخذ سكَري إلى الشاي...

هل تعرفان الكلمات ؟

لم تبدر منهما حركة . تحرّرت من النغمات المتآلفة وأطلقت أصابعها في التعقيد عائدة إلى ما انسحبت منه ، إلى تفصيل الجاز الذي يُولِّد الألحان والرؤيا من كستناء اللحن .

حين آخذ سكري إلى الشاي
يغار جميع الفتيان منّي
وهكذا لا آخذه حيث تذهب العصابة
حين آخذ سكري إلى الشاي .

كانت ثيابهما مبلّلة حين كانا يراقبانها كلما دخل البرق إلى الغرفة بينهم ، يداها تعزفان الآن إزاء وداخل البرق والرعد ، ضدّهما ، مالئةً الظلمة بين فترات الضوء . كان وجهها مركزاً بحيث عرفا أنهما غير مرئيين لها ، لدماغها الذي يصارع ليتذكّر يدَ أمها تقص الجريدة وتبللها تحت حنفية المطبخ وتستخدمها لتمسح العلامات الموسيقية المرسومة وحجلة المفاتيح عن الطاولة . بعد ذلك ذهبت إلى درسها الأسبوعي في صالة الجماعة حيث ستعزف ، وقدماها مايزالان غير قادرين على الوصول إلى الدواسات حين تجلس ، وهكذا كانت تُفضّل الوقوف وصندلها الصيفي على الدوّاسة اليسارية وبندول الإيقاع يتكتك .

لم ترغب أن تُنهي ذلك . أن تتخلّى عن كلمات الأغنية القديمة هذه . شاهدت أن الأماكن التي ذهبوا إليها ، حيث لم تذهب العصابة أبداً ، مزدحمة بنبات الأسبيدسترة* . نظرت إلى الأعلى وأومأت برأسها نحوهما ، إشارة على أنها ستتوقّف الآن .

لم يشاهد « كارافاجيو » كلّ هذا . حين عادَ وجد « هنا » والجنديين من وحدة اللغامين في المطبخ يعدون السندويش .

* نبات من الفصيلة الزنبقية ذو أوراق كبيرة دائمة الخضرة .

III

أحياناً نار

خيضت أخر حرب قروسطية في إيطاليا في ١٩٤٣ و١٩٤٤ . هاجمت جيوش ملوك جدد بلا مبالاة البلدان المحصّنة الواقعة على قممٍ مهيبةٍ دار القتال حولها منذ القرن الثامن . وإذا حفرتَ عميقاً حول النتوءات الصخرية حيث النقّالات والكرمة المقطوعة ، تحت آثار عجلات الدبابات ، ستعثر على الفأس الدموية وعلى الرمح . مونيرشي ، كورتونا ، آربينو ، آريزو ، سانسيبولكرو ، أنغياري . ومن ثم الساحل .

كانت القطط تنام في أبراج المدفعية وتنظر إلى الجنوب . تقدّم الإنكليز والأميركان والهنود والأستراليون والكنديون شمالاً وانفجرتْ القذائف المتبقية وتلاشت في الهواء . حين تجمّعت الجيوش في « سانسيبولكرو » وهي بلدة رمزها هو العرّادة ، حصل عليها بعض الجنود وأطلقوها بصمتٍ ليلاً فوق أسوار المدينة غير المحتلة . وفكّر الفريق أول كيسلرنغ من الجيش الألماني المنسحب بشكل جدي بصبّ الزيت الحار من الفُرَج .

أخرج الباحثون القروسطيون من كليات أوكسفورد وأرْسلوا جواً إلى « أمبريا » . كان معدّل سنهم هو الستين . تم إيواؤهم مع الجنود وفي الاجتماعات مع القيادة الاستراتيجية استمروا في نسيان اختراع الطائرة . تحدثوا عن البلدات من الناحية الفنية . كان يوجد في « مونتيرشي » مادونا ديل بارتو ، لبييرو ديلا فرانسيسكا ، المتوضعة في الكنيسة الصغيرة التي هيَ

قرب مقبرة البلدة . حين استرجعت أخيراً قلعة القرن الثالث عشر أثناء أمطار الربيع ، تم إيواء الجنود تحت القبة المرتفعة للكنيسة وناموا قرب المنبر الحجري حيث يذبح هرقل الهيدرا . كانت توجد مياهُ سيئة فقط . مات الكثيرون من التيفوئيد وأنواع أخرى من الحمّى . حين كان الجنود ينظرون بمنظار الخدمة في الكنيسة القوطية في « آريزو » إلى الأعلى كانوا يكتشفون وجوههم المعاصرة في لوحات بييرو ديلا فرانسيسكا الجدارية . ملكة سبأ تتحدّث مع الملك سليمان . قربها غصن من شجرة الخير والشر موضوع في فم آدم الميت . بعد سنوات ستدرك هذه الملكة أن الجسر فوق السيلوم* مصنوع من خشب هذه الشجرة المقدّسة .

كان الجو ممطراً وبارداً دائماً . ولم يكن يوجد نظام سوى لخرائط الفن العظيمة التي أظهرت العقاب والطاعة والتضحية . فوجئ الجيش الثامن بنهر بعد آخر من الجسور المدمّرة . وهبطت وحدات نزع الألغام على الضفاف على سلالم من الحبال داخل مرمى نار مدفعية العدو وسبحتْ أو خوّضتْ عابرةً . كان الطعام ينفد والخيام تختفي . كان الرجال الذين يربطون إلى العتاد يختفون . مرةً حاولوا عبر النهر أن يصعدوا من الماء . زرعوا أيديهم وأرساغهم في الحائط الطيني لوجه الجرف وتعلّقوا هناك . أرادوا أن يتصلّب الوحل ويحملهم .

وضع اللغام السيخيّ الشاب خدّه على الوحل وفكّر بوجه ملكة سبأ ، بنسيج جلدها . لم تكن توجد راحة في ذلك النهر سوى رغبته فيها التي أدفأته . سينزع الحجاب عن شعرها . سيضع يده اليمنى بين عنقها وبلوزتها الزيتونية . هو أيضاً كان متعباً وحزيناً مثل الملك الحكيم والملكة المذنبة اللذين شاهدهما في « آريزو » منذ أسبوعين .

تعلّق فوق الماء ويداه مقيدتان في وحل الضفّة . امّحتْ صفة الشخصية فيهم ، ذلك الفن الماكر ، أثناء تلك الأيام والليالي ، ووجدت فقط في كتاب أو

* في التوراة نبع وبركة خارج القدس .

على حائط يحتوي رسوماً ، من كان الأكثر حزناً في جدارية القبة ؟ استند إلى الأمام ليرتاح على جلد عنقها الضعيف . عشقَ عينها المُسْبَلة . هذه المرأة التي ستعرف يوماً ما قداسة الجسور .

ليلاً في سرير المعسكر يمد ذراعيه في المسافة كجيشين . لم يكن يوجد وعد أو حلّ أو نصر إلاّ للعقد المؤقت بينه وبين تلك الملكة المرسومة في الجدارية الجصية والتي ستنساه ولن تقر بوجوده أبداً أو تعي حضوره ، سيخيّ ، على منتصف سلّم لنزع الألغام تحت المطر ينصب جسراً للجيش الذي خلفه . إلا أنه تذكّر لوحة قصتهما . وبعد شهر ، وصلت الكتائب إلى البحر بعد أن نجوا من كل شيء ودخلوا بلدة « كاتوليكا » الساحلية ونظّف المهندسون شاطئ الألغام على مدى عشرين ياردة بحيث يستطيع الرجال أن يدخلوا عراةً في البحر ، اقترب من أحد المختصين بالقرون الوسطى الذي صادقه ـ الذي مرةً تحدّث ببساطة معه وتقاسم معه بعض اللحم المعلّب ووعد أن يريه شيئاً ما مقابل لطفه .

أخذ اللغّام دراجة بخارية صغيرة من نوع « ترايمف » وربط ضوء طوارئ قرمزياً إلى ذراعه ورجعا من الطريق الذي قدما منها عبرَ البلدات البريئة الآن مثل « آربينو » و« أنغياري » على طول القمة الدائرية لجرف الجبل الذي كان مثل عمود فقري عبر إيطاليا ، انكمش العجوز خلفه وضمّه وهما يهبطان المنحدر الغربي إلى آريزو . كانت الساحة خاليةً من الجنود ليلاً وصفَ اللَغام أمام الكنيسة . ساعدَ الأخصائي في القرون الوسطى على النزول . جمعَ عتاده ودخل الى الكنيسة . ظلمة شديدة البرودة . فراغ رَحْبٌ ، صوت بوطه يملأ المنطقة . شمّ مرة أخرى الحجر القديم والخشب . أشعل ثلاث خراطيش* . قذف بكرة وبكّارة عبر الأعمدة فوق صحن الكنيسة ثم أطلق برشاماً مربوطاً بحبل على لوح خشبي مرتفع . كان البروفسور يراقبه محتاراً ، وبين فينة وأخرى يحدق عالياً إلى الظلمة المرتفعة . دار اللَغام الشاب حوله وربط حبلاً

* Flare تترجم خرطوشة في المعجم العسكري .

حول خصره وكتفيه وثبّت خرطوشة مشتعلة على صدر العجوز .

رفعه إلى هناك عن طريق درابزين العشاء الرباني وتسلّق السلالم بصخبٍ إلى المستوى الأعلى ، حيث كانت النهاية الأخرى للحبل . ممسكاً به ، انتقل من الشرفة إلى الظلام وفي الوقت نفسه قُذف العجوز ورُفِعَ بسرعة إلى الأعلى إلى أن ارتفع إلى منتصف الجوّ على بعد ثلاثة أقدام من الجدران الجصية والخرطوشة تصنع هالة حوله ، حين لامست قدما اللّغام الأرض . سار اللغام إلى الأمام وهو مايزال حاملاً الحبل إلى أن قُذف الرجل إلى اليمين ليرفرف أمام « طيران الإمبراطور ماكسينتيوس » .

أنزل الرجل بعد خمس دقائق . أشعل خرطوشة لنفسه ورفع جسده إلى القبة داخل الزرقة العميقة للسماء الاصطناعية . تذكّر نجومها الذهبية من الوقت الذي نظر فيه إليها بالمنظار . حين نظر إلى الأسفل شاهد عالم القرون الوسطى يجلس على مقعدٍ مُنْهكاً . أصبحَ الآن مدركاً عمق هذه الكنيسة ، لا ارتفاعها . الحسّ السائلي بها . تجوّف وظلمة بئر . انتشر الضوء من يده كصولجان . رفع نفسه إلى وجهها ، الى وجه ملكته ، ملكة الحزن ، ووصلت يده السمراء الصغيرة إلى العنق العملاقة .

ينصب السيخيُ خيمةً في نهاية الحديقة ، حيث اعتقدت « هنا » أن الخزامى نمتْ مرةً . عثرت على أوراق جافة في تلك المنطقة لفّتها على أصابعها وحدّدت هويتها . بين فينة وأخرى ، بعد المطر ، كانت تتعرّف على عطرها .

في البداية لن يدخل إلى المنزل إطلاقاً . يعبره وهو ذاهب لتأدية واجب يتعلق بنزع الألغام . إنه لطيف دائماً . إيماءة خفيفة من رأسه . تراه « هنا » يغْتَسل فوق حوضٍ من ماء المطر المتجمّع ، متوضّعاً بشكل رسمي فوق ساعة شمسية . جفّت حنفية الحديقة التي استخدمت في أوقات سابقة من أجل

أحواض البذار . ترى جسمه الأسمر بلا قميص حين يرش الماء على نفسه كطائر يستخدم جناحه . تلاحظ أثناء النهار تقريباً ذراعيه في القميص العسكري القصير الأكمام والبندقية التي يحملها دائماً ، رغم أن المعارك تبدو الآن منتهية بالنسبة لهم .

يأخذ وضعيات متعددة مع البندقية ـ يصبح هلاليّ الشكل ، منحنياً حين تكون فوق كتفيه . سيستدير فجأة ، مدركاً أنها تراقبه . بقي على قيد الحياة بسبب مخاوفه ، سيستدير نحو أي شيء يثير ريبته ، متعرفاً على نظرتها في هذه البانوراما وكأنه يدعي أنه يستطيع أن يتعامل معها كلها .

يريحها اكتفاؤه الذاتيّ ، يريحهم جميعاً في المنزل ، رغم أن « كارافاجيو » يتذمّر من طنين اللّغام المتواصل بالأغنيات الغربية التي علّمها لنفسه في الأعوام الثلاثة الأخيرة للحرب . تمّ إيواء اللّغام الآخر الذي وصل معه أثناء العاصفة والذي يُدعى هاردي في مكان آخر ، قرب البلدة ، رغم أنها شاهدتهما يعملان معاً ، يدخلان حديقة بأدواتهما الخاصة بإزالة الألغام .

يتعلق الكلب « بكارافاجيو » . يرفض الجندي الشاب الذي يركض ويقفز مع الكلب على طول الممر أن يقدّم له أي نوع من الطعام ، شاعراً أنه يجب أن يعيش معتمداً على نفسه . يذهب لطفه بعيداً فقط .

ينام في بعض الليالي على المتراس الذي يطلُّ على الوادي ويزحف إلى غرفته إذا أمطرت .

هو ، من ناحيته ، يراقب تجوّل « كارافاجيو » ، في الليل . يتعقب اللّغام « كارافاجيو » في مناسبتين عن بعد . ولكن بعد يومين يوقفه « كارافاجيو » ويقول : « لا تتبعني ثانية » . يبدأ بإنكار ذلك ، إلا أن الرجل الأكبر يضع يده على وجهه الكاذب ويهدئه . وهكذا يعرف الجندي أن « كارافاجيو » كان واعياً بوجوده منذ ليلتين . على أية حال ، كان التعقّب ببساطة بقيّة عادةٍ تعلّمها أثناء الحرب . تماما كما يرغب أحيانا أن يسدِّد بندقيته ويطلق النار ويصيب هدفاً ما بدقة . مرةً بعد أخرى يُسدِّد على أنف تمثال أو على أحد

الصقور الرمادية التي تميل عبر سماء الوادي .

مايزال شاباً جداً . يأكل الطعام كذئب ويقفز لينظف صحنه ، سامحاً لنفسه بنصف ساعة للغذاء .

راقَبتهُ أثناء العمل ، حريصاً ، لايحدّه عُمْرٌ ، كالقطّة ، في البستان وداخل الحديقة المغطاة بالعشب التي تنهض خلف المنزل . تلاحظ الجلد الأسمر الأكثر قتامة لرسغه الذي ينحدر بحرية داخل السوار الذي يصلصل أحيانا حين يشرب كوب شاي أمامها .

لايتحدث أبداً عن الخطر المرتبط بنوع بحثه . بين فينة وأخرى ، يحضرها انفجارٌ هي وكارافاجيو إلى خارج المنزل بسرعة وقلبها متوتر من الانفجار الخامد . تركض إلى الخارج أو إلى نافذة مشاهدةً « كارافاجيو » أيضاً في زاوية رؤيتها ، وسيشاهدان اللغام يلوّح بكسلٍ نحو المنزل دون أن يستدير على المصطبة العشبيّة .

مرةً دخل « كارافاجيو » إلى المكتبة وشاهدَ الّلغام عالياً قرب السقف ، إزاء الإضاءة الوهمية ـ فقط « كارافاجيو » سيدخل إلى غرفة وينظر إلى الزوايا المرتفعة ليرى إن كان وحيداً ـ والجندي الشاب ، عيناه لا تغادران تركيزهما ، يرفع راحة كفه يشير بأصابعه موقفاً دخول « كارافاجيو » محذّراً إياه أن يغادر الغرفة من أجل الأمان وهو يفك ويقطع سلك صمامة ، تعقبه إلى تلك الزاوية ، كان مخبأ فوق الستارة القصيرة التي في أعلى النافذة .

دائماً يطن ويصفر . « من الذي يصفر » ؟ يسأل المريض الإنكليزي في إحدى الليالي ولم يكن قد قابل أو حتى شاهدَ الوافد الجديد . دائماً يغني لنفسه حين يستلقي على المتراس ناظراً إلى الأعلى ، إلى تنقّل الغيوم .

حين يدخل إلى الفيلا التي تبدو فارغة يصدرُ ضجةً . إنه الشخص الوحيد بينهم الذي بقي في لباسه العسكري . نظيفاً ، ببكلٍ لامعةٍ ، يظهر الّلغام من خيمته ، عمامته ملفوفة بشكل متناسق ، بوطه نظيف ، ويخبط على أرضيات المنزل الخشبية أو الحجريّة . يترك لسبب تافه مشكلة يعمل على حلها

وينفجر ضاحكاً . يبدو أنه يحب بشكل لا واعٍ جسمه وقوته الجسدية وهو ينحني ليلتقط قطعة من الخبز ، يمشّط العشب بمفاصل قدميه ، ويحرك البندقية دون وعي كأنها عصا ضخمة وهو يسير في الممر بين أشجار السرو ليقابل اللغامين الآخرين في القرية .

يبدو وبالمصادفة أنه راضٍ عن هذه المجموعة الصغيرة في الفيلا ، كان مثل نجم منفلت من مداره على حافة نظامهم . كان هذا كالعطلة بالنسبة له بعد حرب الوحل والأنهار والجسور . يدخل إلى المنزل حين يُدعى فقط . إنه زائر مؤقت ، كما فعل في تلك الليلة الأولى حين تبع الصوت المترنح لبيانو « هنا » وصعد الممر المحاط بأشجار السرو ودخل إلى المكتبة .

اقترب من الفيلا في تلك الليلة العاصفة ليس بسبب فضوله حيال الموسيقا بل بسبب الخطر الذي يمكن أن يتعرّض له العازف . غالباً ما كان الجيش المتراجع يترك ألغاماً من أقلام الرصاص داخل الأدوات الموسيقية . يفتح المالكون العائدون البيانوهات ويفقدون أيديهم . قد يُشغّل الناس الرقّاص في ساعة جداريّة تنتمي إلى الجدّ ، لتنفجر قنبلة زجاجية مدمّرة نصف حائط وكلّ ماهو قربها .

تبع ضجة البيانو مندفعاً فوق التل مع « هاردي » ، متسلقاً الحائط الحجري وداخلاً إلى الفيلا . طالما أنه لا توجد وقفة هذا يعني أن العازف لن ينحني إلى الأمام ويسحب الرباط المعدني الرقيق ليشغّل بندول الإيقاع . تُخبّأ معظم الألغام القلمية في هذا المكان الأسهل لربط الطبقة الرقيقة للسلك باتجاه الأعلى . تربط القنابل بالحنفيات ، بظهور الكتب ، توضع داخل فاكهة الأشجار بحيث إذا سقطت تفاحة على غصنٍ منخفض تُفجّر الشجرة ، تماما كما تفعل يدٌ تمسك ذلك الغصن . لم يكن قادراً على النظر إلى غرفةٍ أو حقلٍ دون رؤية احتمال وجود الأسلحة هناك .

توقف عند الأبواب الفرنسية ، أسند رأسه على الإطار ثم انزلق إلى الغرفة ولولا لحظات من البرق لبقيَ في الظلمة . كانت فتاة واقفة ، وكأنها تنتظره ،

تنظر إلى الأسفل نحو المفاتيح التي تعزف عليها . تفحّصت عيناه الغرفة قبل أن تتفحصاها ، مسحتها كرادار . كان بندول الإيقاع يتكُّ ، متأرجحاً ببراءة جيئة وذهاباً . لم يكن يوجد خطر أو سلك صغير . توقّف هناك في بزته المبلّلة ، والمرأة الشابة غير مدركةٍ في البداية دخوله .

قربَ خيمته كان هوائي المستقبلة البلورية معلقاً بالأشجار . تستطيع أن تشاهد الأخضر الفوسفوري إذا نظرت إلى هناك ليلاً بمنظار « كارافاجيو » الميداني ، وجسد اللغام المتنقل يغطيه فجأة إذا تحرك عبر ممر الرؤية . يرتدي الأداة الغريبة الشكل أثناء النهار ، فقط سماعة واحدة مثبّتة إلى رأسه ، الأخرى متدلية تحت ذقنه ، بحيث يستطيع أن يسمع أصواتاً من بقية العالم يمكن أن تهمه . سيدخل إلى المنزل لينقل أية معلوماتٍ التقطها ، يظن أنها ستكون مهمة لهم . في بعد ظهر أحد الأيام يعلن أن زعيم العصابة « غِلن ميللر » مات بعد أن تحطّمت طائرته في مكان ما بين بريطانيا وفرنسا .

هكذا يتنقل بينهم . تشاهده في بقعة ميتة من الحديقة مع أداة الاستكشاف . أو إذا كان قد عثر على شيء ، يفك كتلة الأسلاك والصمامات التي تركها له أحدٌ ما كرسالةٍ مريعة .

دائماً يغسل يديه . يعتقد « كارافاجيو » في البداية أنه منمّقٌ جداً . يضحك « كارافاجيو » : « كيف تدبّرت أمورك طوال الحرب » ؟

« لقد تربيّت في الهند ، ياعم . هناك تغسل يديك طوال الوقت . قبل كل الوجبات . إنها عادة . لقد ولدتُ في البنجاب .

تقول : « أنا من أميركا العليا » .

ينام نصف الوقت في الخيمة ونصفاً خارجها . ترى يديه تزيلان السماعة وتضعانها في حجره .

ثم تضع « هنا » المنظار جانباً وتستدير بعيداً .

كانا تحت القنطرة الضخمة . أشعل الرقيب خرطوشة واستلقى اللغام على الأرض ونظر إلى الأعلى من خلال منظار البندقية إلى الوجوه التي بلون المغرة وكأنه كان يبحث عن شقيق في الحشد . اهتزت كتل الشعر المتعامدة على الأشكال التوراتية ، الثياب الملونة واللحم الذي سوّدته مئات السنين من الزيت ودخان الشموع . والآن دخان البنزين الأصفر هذا ، الذي عرفوا أنه كان فظيعاً في هذا الملتجأ ، وهكذا سَيُرمى الجنود إلى الخارج ، وسيُذْكرون لأنهم أساؤوا استخدام الإذن الذي تلقوه لرؤية الصالة العظيمة التي جاؤوا إليها مخوّضين على رؤوس الجسور الساحلية وعبر المناوشات الألف لحروب صغيرة وقصف « مونتي كازينو » ثم السير في لباقة صامتة عبر « الرافايل ستانز » إلى أن أصبحوا هنا ، أخيراً ، سبعة عشر رجلاً هبطوا في صقلية وقاتلوا فاتحين طريقهم عبر كامل البلاد ليكونوا هنا ـ حيثُ قُدّمت لهم صالة مظلمة تقريباً فقط ، وكأن الوجود في حضرة المكان كان كافياً .

وقال أحدهم : « اللعنة ، المزيد من الضوء أيها الرقيب شاند ؟ وترك الرقيب قبضَة الخرطوشة ورفعها إلى الأعلى بذراعه الممدودة ، وتدفّق شلال الضوء من فوق يده ووقف طيلة فترة احتراقها بهذه الوضعية . وقف بقيتهم ينظرون نحو الأعلى إلى الأشكال والوجوه المحتشدة في السقف الذي بزغ في الضوء . إلا أن اللّغام الشاب كان على ظهره ، البندقية مسدّدة وعينه تمشط تقريباً لحيتي نوح وابراهيم وعدداً من العفاريت إلى أن وصل إلى الوجه العظيم الذي هدّأه ، الوجه الذي يبدو كرمح ، حكيماً ولا يغفر .

كان الحراس يصرخون عند المدخل واستطاع أن يسمع الخطوات الراكضة ، فقط ثلاثون ثانية أخرى بقيت للخرطوشة . تدحرج وسلّم البندقية للقسيس . « هذا الشخص من هو ؟ في الساعة الثالثة إلى الشمال الغربي ، من هو ؟ بسرعة ، الخرطوشة على وشك الانطفاء » .

سحب القسيس البندقية إلى الزاوية وانطفأت الخرطوشة . أعادَ البندقية إلى السيخيّ الشاب .

«أنت تعرف أننا سنواجه جميعا مشكلةً حقيقيةً بسبب إستخدام الأسلحة في كنيسة «سيستن» . كان يجب ألا أجيء إلى هنا . ولكن يجب أن أشكر أيضاً الرقيب «شاند» كان من البطولة أن يفعل ذلك . أعتقد أنه لم يحدث أي ضرر حقيقيّ .

- «هل رأيته ؟ الوجه . لمن هو ؟»
- «آه نعم ، إنه وجه عظيم» .
- «شاهدته ؟»
- «نعم . إنه (لإشعيا)» .

حينَ وصل الجيش البريطاني إلى كابيتشي على الشاطئ الشرقي ، كان اللّغام رئيساً لدورية ليلية . تلقى في الليلة التالية على الجهاز اللاقط إشارة تفيد أنه توجد تحركات عدوة في الماء . أطلقت الدورية قذيفة تحذيرية قوية انفجرت على إثرها المياه . لم تحقق أية إصابة ولكن في الانتشار الأبيض للانفجار ، التقط خطأً قاتماً للحركة . رفع البندقية وجعل الظل المتنقّل في منظاره دقيقة كاملة ، مقرراً أن يطلق النار ليرى إن كانت ستصدر حركة أخرى قريبة . كان العدو مايزال مخيماً في الشمال في «ريميني» ، على حافّة المدينة . كان الظل في مدى منظاره حين أشرقت الهالة فجأة حول رأس مريم العذراء وهي تخرج من البحر .

كانت تقفُ في زورق وكان رجلان يجدّفان وإثنان آخران يرفعانها إلى الأعلى وحالما وصلوا إلى الشاطئ بدأ سكان المدينة يصفقون من النوافذ المظلمة المفتوحة .

استطاع اللغام أن يشاهد الوجه القشديّ* اللون والهالة الصادرة عن

* لون أصفر شاحب .

أضواء صغيرة تعمل على البطاريات . كان يستلقي على المعقل الإسمنتي بين البلدة والبحر ويراقبها بينما نزل الرجال الأربعة من القارب ورفعوا بأذرعهم التمثال الجصي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام . ساروا على الشاطئ دون توقف أو خوف من الألغام . ربما راقبوها وهي تُنْزَع ورسموا خرائطها مع الألمان الذين كانوا هناك . غاصتْ أقدامهم في الرمل . كانت هذه « كابيتشي مير » في ٢٩ أيار ١٩٤٤ . الاحتفال البحري بمريم العذراء .

كان البالغون والأولاد في الشوارع . وظهر رجال بثياب الفرقة الموسيقية أيضاً . لن تعزف الفرقة وتكسر قوانين حظر التجوّل . إلا أن الآلات الموسيقية كانت ماتزال جزءاً من الحفل ويبدو عليها رونق النظافة .

انسحب من الظلمة ، أنبوب الهاون مثبّت إلى ظهره ويحمل البندقية بيديه . صدمهم بأسلحته وعمامته . لم يتوقعوا ظهوره على أرض الشاطئ المهجورة .

رفع بندقيته والتقط وجهها بمنظار البندقية . كان بلا عمر ، بلا إيحاء جنسي ، تصل مقدمات أيدي الشباب السمراء إلى ضوئها ، التمايل الفاتن لعشرين لمبة صغيرة . كان الشكل يرتدي مئزراً أزرق باهتاً وكانت ركبتها اليُسرى مرفوعة قليلاً لتوحي باللباس الجوخي .

لم يكونوا بشراً رومانسيين . نجوا من الفاشيين والإنكليز والفرنسيين والقوطيين* والألمان . تم امتلاكهم غالباً ولم يَعْنِ هذا شيئاً ، إلا أن هذا الشكل الجصي القشدي اللون والأزرق خرج من البحر ووضع في شاحنة عنبٍ مليئة بالأزهار بينما تقدّمت الفرقة أمامه صامتة . كان بلا معنى أي نوع من الحماية التي كان من المفترض أن يقدّمها لهذه البلدة . لم يستطع أن يمشي بين أولادهم الذين يرتدون ملابس بيضاء بأسلحته .

ابتعد عنهم شارعاً واحداً إلى الجنوب وسار بسرعة حركة التمثال بحيث وصلوا إلى الشوارع المتصلة في الوقت نفسه . رفع بندقيته ليلتقط وجهها مرة

* شعب جرماني اجتاح الامبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد .

أخرى بمنظاره . انتهى كل شيء على قُنَّةٍ تطلُّ على البحر حيث تركوها وعادوا إلى منازلهم . لم يكن أي منهم مدركاً لحضوره المستمر في المحيط .

كان وجهها مايزال مضاءً . جلسَ الرجال الذين أحضروها بالقارب في مربّع حولها كالحراس . بدأت البطارية المثبتة إلى ظهرها تنفد وانطفأت الأضواء حوالي الرابعة والنصف صباحاً . عندئذٍ نظر إلى ساعته . التقط الرجال بمنظار البندقية . كان إثنان منهما نائمين . رفع المنظار إلى وجهها ودرسه ثانيةً . مظهر مختلف في الضوء الذي يذوي حولها . وَجْه بدا في الظلام يشبه كثيراً وجهاً كان يعرفه . أخت . يوما ما ابنة . لو استطاع اللّغام أن يشارك بذلك لترك شيئاً هناك مثل إيماءته ، إلا أنه كان يمتلك دينه الخاص في النهاية .

يدخل « كارافاجيو » إلى المكتبة يمضي معظم أوقات بعد الظهر هناك . وكما كان الأمر دائماً ، الكتب هي مخلوقات صوفية بالنسبة له . يلتقط واحداً ويفتحه على صفحة العنوان . كان في الغرفة قبل خمس دقائق على سماعه أنّة خفيفة .

يستدير فيرى « هنا » نائمةً على الصوفا . يُغلق الكتاب ويستند إلى الطنف العالي تحت الرفوف . كانت نائمة على بطنها وخدّها الأيسر على البروكار المغبّر وذراعها اليمنى مرفوعة نحوَ وجهها وقبضتها على فكها . حاجبان يتحركان والوجه مستغرق في النوم .

حين شاهدها لأول مرة بعد كل ذلك الوقت بدت متوترة ، مختصرةً إلى جسم كافٍ فقط لجعلها تستمر عبر كل هذا بشكل فعّال . كان جسدها في حالة حرب ، وكما في الحب ، استخدم كل عضوٍ فيه .

عطسَ بصوت مرتفع . وحين نظر إلى الأعلى وهو يقذف برأسه إلى الأسفل كانت مستيقظة والعينان مفتوحتان تحدقان إلى الأمام نحوه .

ـ « خمّني كم الساعة » .

ـ « حوالي الرابعة ـ آه ـ الخامسة . لا ، الرابعة ـ آه ـ السابعة ، قالت .

كانت لعبةً قديمة بين رجل وطفل . خرج من الغرفة لينظر إلى الساعة ومن حركته وثقته بنفسه استطاعت أن تخمِّن أنه تناول المورفين مؤخراً ، كان نشيطاً ودقيقاً يمتلك ثقته المألوفة بنفسه . جلست وابتسمت حين عاد وهو يهزّ رأسه متعجّباً من دقتها .

ـ « ولدتُ مع ساعة شمسية في رأسي ، أليس هذا صحيحاً ؟

ـ « وليلاً ؟

ـ « هل يمتلكون ساعات قمرية ؟ هل ابتكر أحدهم واحدةً ؟ ربما كل مهندس يحضّر لفيلا يخبئ ساعة قمرية للصوص ، كضريبة عشر ضرورية » .

ـ « شيء مقلق للأغنياء بشكل جيد » .

ـ « قابلني عند الساعة القمرية يا ديفد . مكان حيث الضعيف يستطيع أن

يدخل القوي » .

ـ « مثل المريض الإنكليزي ومثلك ؟ »

ـ « كنت على وشك أن أحظى بطفلٍ منذ عام . »

الآن بعد أن أصبح ذهنه خفيفاً ودقيقاً بفعل المخدر ، تستطيع أن تلف وتدور وسيكون معها ويفكر إلى جانبها . وكونها منفتحة ، لا تدرك تماماً أنها مستيقظة وتتبادل الحديث وكأنها ماتزال تتحدث في الحلم وكأن عطسته كانت عطسة في حلم .

« كارافاجيو » يألف هذه الحالة . غالباً ما قابل بشراً عند الساعة القمرية كان يزعجهم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكأن خزانة غرفة نوم سقطت وتحطمت عن طريق الخطأ . واكتشفَ أن صدمات كهذه جعلتهم بعيدين عن الخوف والعنف . وحين ينزعج من مالكي المنازل التي يسرقها فسوف يشبك يديه ويتحدث باهتياج قاذفاً ساعةً مرتفعة الثمن في الجو ثم يمسكها بيديه ويسألهم بسرعةٍ أسئلة عن مكان الأشياء .

ـ « لقد فقدتُ الطفل . أعني كان عليّ أن أفقده . كان والده قد مات والحرب مستمرة » .

ـ « أكنتِ في إيطاليا ؟

ـ « كنت في « صقلية » حين حدثَ هذا . طوال سفرنا عبر البحر الادرياتيكي خلف القوات كنت أفكر بالأمر . تحدثت بشكل مستمر مع الطفل . اشتغلت بجدّ في المستشفيات وانسحبت من جميع الذين حولي ، ماعدا الطفل الذي تقاسمت كل شيء معه . حتى في ذهني . كنت أتحدث معه وأنا أحمّم المصابين وأعتني بهم . كنت مجنونة قليلاً . »

ـ « ثم ماتَ والدك » .

ـ نعم . ثم ماتَ « باتريك » . كنتُ في « بيزا » حين سمعت » .

كانت استيقظت ووقفتْ .

ـ « أكنت تعرف إذاً ؟ »

- « تلقيتُ رسالةً من الوطن » .
- « ألهذا جئْتَ إلى هنا ، لأنك تعرف ؟ »
- « لا » .
- « حسناً . لا أعتقد أنه آمن بالعطل السنوية أو ماشابه ذلك . اعتاد باتريك أن يقول إنه يريد لحناً ثنائياً تعزفه امرأتان على أداتين موسيقيتين حين مات . أوكورديون وكمان . هذا كل شيء . كان وجدانياً بشكل ملعون » .
- « نعم بوسعك أن تجعليه يفعل أي شيء فعلاً . اعثري له على امرأة تمرُّ في محنة وسيضيع » .

هبَّت الريح من الوادي إلى هضبتهم وهكذا تصارعت أشجار السرو المزروعة على خط الدرجات الست والثلاثين خارجَ الكنيسة الصغيرة معها . لكزتهما قطرات مطرٍ مبكر بصوتٍ متكتك وهما جالسان على الدرابزون قرب الدرجات . كان الوقت تجاوز منتصف الليل . كانت تستلقي على الطنف الاسمنتي . أما هو فخطا أو انحنى إلى الأمام ناظراً إلى الوادي سامعاً صوت المطر المرتحل فقط .
- « متى توقفت عن التحدث مع الطفل » ؟
- انشغلنا كثيراً فجأة . كانت القوات تخوض المعارك في « مورو بريدج » ثم في « آربينو » . ربما توقفتُ في « آربينو » . تشعرُ أنه من الممكن أن تُقتل في أي وقت هناك ، ليس إذا كنت جندياً فقط ، بل قساً أو ممرضة . كانت مَطْردة فئران ، تلك الشوارع الضيّقة المائلة . يَعودُ الجنود بقطع قليلة من أجسامهم ، يقعون في غرامي لمدة ساعة ثم يموتون . كان مهماً تذكَر أسمائهم . ولكنني كنت أرى الطفل كلما ماتوا . كونه ذهب بعيداً . سيجلس البعض وينزعون جميع ضماداتهم ليقدروا على التنفس بشكل أفضل . البعض سيقلقون من خدوش صغيرة ، في أذرعهم حين يموتون . ثم تسمع الفرقعة في

الفم . تلك الطلقة الخفيفة . انحنيت إلى الأمام لأغلق عيني جندي ميت ففتحهما ونخَر : «تريدينني أن أموت بسرعة ؟ أيتها العاهرة ! جلس ورمى كلّ محتويات صينيتي على الأرض . كان غاضباً . من يريد أن يموت هكذا ؟ أن تموت بهذا النوع من الغضب . أيتها العاهرة! بعد ذلك ، كنت أنتظر دائماً فرقعة أفواههم . أعرفُ الموتَ الآن ياديفد . أعرف جميع الروائح ، أعرف كيف أبعدهم عن الألم . حينَ تعطي جرعة مورفين قوية في الشريان . محلول مالح . أن تجعلهم يفرغون أحشاءهم قبل أن يموتوا . يجب على كل جنرال ملعون أن يقوم بعملي . كل جنرالٍ ملعون . يجب أن يكون هذا متطلباً أساسياً لأيّ عبور نهر . من كنا نحن بحق الجحيم لنكلّف بهذه المسؤولية ، ليتوقّعوا أننا حكماء كالقساوسة العجائز ، أن نعرف كيف نقود البشر نحو شيءٍ لم يُرِده أحد ولنجعلهم نوعاً ما يشعرون بالراحة . لم أستطع أن أؤمن أبداً بجميع تلك الخدمات التي قدموها للموتى . خطاباتهم السوقية . كيف يتجرؤون ؟ كيف يتجاسرون ويتحدثون هكذا عن كائنٍ بشريٍ يموت » ؟

لم يكن يوجد ضوء ، جميع المصابيح مطفأة ، والسماء محجوبة بالغيوم . كان من الآمن الآن شدّ الانتباه إلى حضارة المنازل الموجودة . اعتاد السير على أرضيات المنزل في الظلام .

ـ «هل تعرفين لماذا لم يُرِدك الجيش أن تمكثي هنا مع المريض الإنكليزي ؟ أتعرفين ؟

ـ «زواج مزعج ؟ عقدة والدي» ؟

كانت تبتسم له .

ـ « كيف حال العجوز ؟

ـ «لم يهدأ بعد حيال الكلب» .

ـ «أخبريه أنه جاء معي» .

ـ «ليس متأكداً في الحقيقة أنك ستمكث هنا أيضاً . يعتقد أنك يمكن أن تذهب مع الصيني» .

ـ « أتعتقدين أنه سيحب بعض الخمرة ؟ لقد سرقت زجاجةً اليوم » .
ـ « من أين ؟
ـ « هل تريدينها أم لا ؟
ـ « لنتناولها الآن . دعنا منه » .
ـ « آه ، التقدّم المفاجئ » .
ـ « ليس تقدماً مفاجئاً . أحتاج جداً إلى مشروب حقيقي » .
ـ « عشرون عاماً! في الوقت الذي كنتُ فيه في العشرين . .
ـ « نعم . نعم ، لماذا لاتسرق فونوغرافاً يوما ما . بالمناسبة أعتقد أن هذا يدعى نهباً .
ـ « علمتني بلادي كلّ هذا . هذا ما فعلته لهم أثناء الحرب » .
دخل إلى المنزل عبر الكنيسة الصغيرة المقصوفة .
نهضتْ « هنا » ، دائخة قليلاً ، فاقدة للتوازن . « وانظري ماذا فعلوا بكِ» ، قالت لنفسها .
نادراً ماتحدثت أثناء الحرب حتى مع اولئك الذين عملت معهم بشكل قريب . كانت بحاجة إلى عم ، إلى عضو من الأسرة . احتاجت إلى والد الطفل ، بينما كانت تنتظر في هذه البلدة التلّية لتسكر للمرة الأولى طوال أعوام ، بينما رجلٌ محروق في الطابق العلوي يغرق في ساعات نومه الأربع وصديقٌ قديمٌ لوالدها ينقّب الآن في صندوق دوائها كاسراً مقبضاً زجاجياً ، شاداً رباط البوط حول ذراعه وحاقناً نفسه بالمورفين بسرعة ، في الوقت الذي يستغرقه ليستدير .

ليلاً ، في الجبال حولهما ، حتى في الساعة العاشرة تُظلمُ الأرض . سماءٌ رمادية صافية وتلالٌ خضراء .
ـ « أمرضني الجوع وكوني مادةً للشبق . وهكذا ابتعدت عن المواعيد ونزهات سيارات الجيب والمغازلة والرقصات الأخيرة قبل أن يموتوا ـ

عتبروني متكبرة . اشتغلت بجد أكثر من الآخرين . مناوبة مضاعفة ، تحت النار . أفعل أي شيء لهم ، أفرغ كل نونية . أصبحت متكبرة لأنني لا أريد أن أخرج وأصرف نقودهم . أردت أن أذهب إلى الوطن ولم يكن يوجد أحدٌ في الوطن . مرضت من أوروبا ، مرضتُ من كوني أعامل كالذهب لأنني كنتُ أنثى . غازلت رجلاً واحداً فمات . بعد ذلك تراجعت كثيراً ولم يستطع أحد أن يقترب مني ، لا عن طريق حديث المتكبّرين أوموت أي شخصٍ ، عندئذ قابلته ، الرجل المحروق ، المسودّ... الذي تبيّن أنه ، قريب ، رجل انكليزي .

مرَّ وَقْتٌ طويلٌ ياديفد قبل أن أفكر بأي شيء يتعلق بالرجل » .

بعد أسبوع من حضور اللغّام السيخيّ حول الفيلا تكيّفوا مع عادات أكله . أينما كان على التلّ أو في القرية ـ سيعود حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف وينضم إلى « هنا » و« كارافاجيو » . يُخرج الصرّة التي هي منديل أزرق من حقيبته الكتفية ويفرشها على الطاولة إلى جانب وجبتهما . بصله وأعشابه ـ التي يشك « كارافاجيو » أنه يأخذها من حديقة الفرانسيسكانيين أثناء الوقت الذي يمضيه هناك ممشطاً المكان بحثاً عن الألغام . يقشّر البصل بالمدية نفسها التي يستخدمها ليزيل المطاط عن سلك صمّامة . يتبع هذا بالفاكهة . ظنّ « كارافاجيو » أنه أمضى الحرب كلها دون أن يأكل من القصعات .

وفي الحقيقة كان دائماً يقف في الصف مطيعاً عند انبلاج الفجر حاملاً كوبه من أجل الشاي الإنجليزي الذي أحبه مضيفاً إليه تموينه الخاص من الحليب المكثّف . يشرب ببطء واقفاً في ضوء الشمس ليراقب الحركة البطيئة للقوات التي لو كانت ثابتة في ذلك اليوم لكان الجنود يلعبون الورق من التاسعة صباحاً .

الآن ، فجراً ، تحت الأشجار ذات الندوب في الحدائق نصف المقصوفة لفيلا « سان جيرولامو » ، يصبُّ كرعةَ ماء من مزادته . يصبّ بودرة الأسنان على فرشاته ويبدأ عملية تنظيف واهنة لمدة عشر دقائق وهو يتجوّل ناظراً إلى الوادي الذي مايزال مدفوناً في الضباب ، ذهنه فضولي بدلاً من أن يكون مرعوباً من الفسحة التي حدث أنه يعيش الآن فوقها . كان تنظيف الأسنان بالنسبة له منذ طفولته نشاطاً يجب أن يتم في الخارج .

المنظر حوله هو شيء مؤقتٌ ، لا يتمتع باستمرارية . يُقرّ ببساطة بامكانية المطر ، برائحة معيّنة من شجيرة ، وكأن ذهنه ، حتى حين لا يُستخدم ، هو رادار ، وعيناه تحدّدان الأشياء غير العاقلة حوله على مدى ربع ميل ، المدى القاتل للأسلحة الصغيرة . يدرس البصلتين اللتين اقتلعهما من الأرض بانتباه مدركاً أن الجيوش المتراجعة لغمتْ الحدائق أيضاً .

أثناء الغداء ، هناك نظرة « كارافاجيو » العمَية إلى الأشياء الموضوعة

على المنديل الأزرق . يظن « كارافاجيو » أنه يوجد على الأرجح حيوان نادر يأكل الطعام نفسه الذي يأكله هذا الجندي الشاب بيده اليمنى وتحمله أصابعه إلى فمه . يستخدم المديّة لتقشير البصل ولقطع الفاكهة فقط .

ينزل الرجلان إلى الوادي في عربة لإحضار كيس طحين . كان على الجنود أيضاً أن يرسلوا خرائط الأماكن المنظّفة إلى مقر القيادة في « سان دومينيكو » . وحين وجدا صعوبة في توجيه الأسئلة إلى بعضهما ، تحدثا عن « هنا » . كان يوجد الكثير من الأسئلة قبل أن يقرّ العجوز أنه كان يعرفها قبل الحرب .

« في كندا ؟

« نعم ، عرفتها هناك » .

يعبران عدة نيران على جانبي الطريق ويحوّل « كارافاجيو » انتباه الجندي الشاب إليها . لقب اللّغام هو « كيب » . « انهض كيب » . « جاء كيب » . ربط الإسم نفسه به بشكل يثير الفضول . في تقريره الأول عن تعطيل القنابل في انكلترة علّمت بعض الزبدة على ورقته وقال الضابط : « ما هذا ؟ » « دهن سلمون » ؟ وأحاطه الضحك . لم يمتلك أية فكرة ماهو السلمون إلا أن السيخي الشاب ، بهذه الوسيلة ، تُرْجمَ إلى سمكة انكليزية مالحة . ونسي خلال أسبوع اسمه الحقيقي الذي هو « كيربال سنج » . لم يزعجه ذلك . اعتاد اللورد « سفولك » وفريقه التدميري أن ينادوه بلقبه ، الأمر الذي فضّله على العادة الإنكليزية في مناداة الناس بكنيتهم .

وضع المريض الإنكليزي المساعد السمعيَ فأصبح مطلعاً على كل شيء في المنزل . الصدفة الكهرمانية المعلقة داخل أذنه وترجماتها للضجة العرضية ـ الكرسي في الصالة وهو يصرّ على الأرض ، طقطقة مخالب الكلب خارج

غرفته بحيث سيفتح المجلد ويسمع تنفّسه اللعين أو صيحة الّلغام على الدكة . أصبح المريض الإنكليزي خلال بضعة أيام من وصول الجندي الشاب مدركاً حضوره حول المنزل ، رغم أن « هنا » فصلتْ بينهما ، ظانّة أنهما على الأرجح لن يحبا بعضهما .

إلا أنها دخلت في أحد الأيام إلى غرفة المريض الإنكليزي لتجد الّلغام هناك . كان يقف عند قدم السرير ويداه معلقتان ببندقيته الموضوعة على كتفيه . كرهت هذه الطريقة في حمل البندقية ودورانه الكسول نحوها وكأن جسمه مِحْوَر عجلة ، وكأن قطعة السلاح خيطت على كتفيه وذراعيه وعلى رسغيه الأسمرين الصغيرين . التفتَ إليها الإنكليزي وقال : « إن علاقتنا تتطوّر بشكل ممتاز » .

لقد أزيحت بحيث أن الّلغام دخل بالمصادفة إلى هذا المُلك وبدا قادراً على أن يحيط بها ويكون في كلّ مكان . بعد أن سمع « كيب » من « كارافاجيو » بأن المريض يعرف عن البنادق ، بدأ يناقش البحث عن القنابل مع الإنكليزي . جاء إلى الغرفة ووجد أنه خزّان معلومات عن أسلحة الحلفاء والأعداء . لم يعرف الإنكليزي عن الصمامات الإيطالية السخيفة فحسب ، بل عرف أيضاً الطبوغرافيا التفصيلية لهذا الإقليم ، توسكاني . وحالاً شرعا برسم مخططات القنابل وبالحديث عن نظرية كل بقعة محدّدة .

ـ « يبدو أن الصمامات الإيطالية توضع عمودياً ، وليس دائماً من الذيل » .

« حسناً . كما يقتضي الأمر . توضع بهذه الطريقة تلك التي صُنعَت في نابولي ، إلا أن المصانع في روما تتبع النظام الألماني . طبعاً ، نابولي ، تعود الى القرن الخامس عشر...

كان هذا يعني أن عليه الاصغاء للمريض وهو يتحدث بطريقته غير المباشرة ، ولم يكن الجندي الشاب معتاداً على البقاء هادئاً وصامتاً . سيصبح قلقاً ويتابع مقاطعة الوقفات والصمت الذي يمنحه الإنكليزي لنفسه دائماً محاولاً أن يشحن قطار فكره بالطاقة . رفع الجندي رأسه إلى الأعلى ونظر إلى السقف . وقال وهويستدير نحو « هنا » حين دخلت : « مايجب أن نصنعه هو

شبكة من الحبال ونحمله حول المنزل » . نظرتْ إلى كليهما ، هزت كتفيها بلا مبالاة وخرجت من الغرفة .

حين عبرها « كارافاجيو » في الصالة كانت تبتسم . وقفا في الصالة وأصغيا إلى المحادثة التي تدور داخل الغرفة .

هل أخبرتك بمفهومي عن الإنسان الفرجيلي يا كيب ؟ دعني...

هل وضعت مساعدك السمعي ؟

ماذا ؟

ـ شغّله ـ

قالت لـ« كارافاجيو » : « أظن أنه عثر على صديق » .

تسير خارجة إلى ضوء الشمس وإلى الساحة . ظهراً تصبّ الحنفيات الماءَ في حوض الفيلا وتتدفق لمدة عشرين دقيقة . تنزع حذاءها ، تتسلق إلى الحوض الجاف وتنتظر .

في هذه الساعة تفوح رائحة العشب المجفّف في كل مكان ويطير الذباب مصطدماً بالبشر كأنه يخبط حائطاً ثم ينسحب بلا اهتمام . تلاحظ أن العناكب المائية عَشَّشتْ تحت التجويف العلوي للحوض الذي كان وجهها في ظل جزئه المتدلي . تحبُّ أن تجلس في هذا المهد الحجري حيث تبزغ رائحة الهواء البارد المختبئ في الظلمة من الأنابيب التي ماتزال فارغة قربها كهواء يهبّ من قَبْو يُفتح لأول مرة في أواخر الربيع بحيث تبقى حرارة الخارج مغايرة . تنفض الغبار عن ذراعيها وأصابع قدميها وتحررهما من تجعّد الحذاء وتتمدّد .

يوجد كثيرٌ من الرجال في المنزل . يتكئ فمها على الذراع العاري لكتفها . تشمّ جلدها وأُلْفَته . الذوق الخاص للإنسان ونكهته . تتذكر حين أصبحت لأول مرة واعية به ، في مكانٍ ما أثناء مراهقتها ـ بدا مكاناً أكثر مما هو زمن ـ حين قبّلتْ ساعدها لتتدرب على التقبيل وشمّت رسغها أو انحنت إلى فخذها . وكانت تنفخ في يديها ليرتدّ النفس إلى أنفها . تحك قدميها

البيضاوين العاريتين باللون الرمادي للحوض . أخبرها اللغام عن التماثيل التي عثر عليها أثناء القتال وكيف نام إلى جانب واحدٍ كان ملاكاً حزيناً ، نصف ذكر ونصف أنثى ، ووجده جميلاً . يستند إلى الخلف ناظراً إلى الجسد ، وللمرة الأولى أثناء الحرب يشعر بالأمان .

تتنشّق الحجر ، رائحة العثّة الباردة التي تفوح منه .

هل صارع والدها في موته أم مات بهدوء ؟ هل استلقى في الوضعية التي يستلقي بها المريض الإنكليزي بجلالٍ في سريره ؟ هل اعتنت به غريبة ؟ إن إنساناً ليس من دمك يمكن أن يتعاطف معك أكثر من شخص من دمك . وكأنك تسقط بين ذراعي غريب وتكتشف مرآة اختيارك . على عكس اللّغام ، لم يكن والدها مرتاحاً أبداً في العالم . فقدت محادثاته بعض مقاطعها بسبب الخجل . شكتْ والدتها أنه في أي من جمل « باتريك » تفقد كلمتين أو ثلاث كلمات حاسمة . إلا أن « هنا » أحبَت هذا فيه ، بدا أنه لا روح إقطاعية فيه . كان يمتلك غموضاً وعدم يقين منحه بهجة مؤقتة . كان مختلفاً عن معظم الرجال . حتى المريض الإنكليزي يمتلك الهدف المألوف للإقطاعي . إلا أن والدها كان شبحاً جائعاً يحب أن يكون الذين حوله واثقين بأنفسهم وحتى خشنين .

هل اندفع إلى موته بالحسّ العرضي نفسه لكونه موجوداً هناك في حادث ؟ أو غاضباً ؟ كان الرجل الأقل غضباً بين الرجال الذين عرفتهم ويكره الجدل ويخرج من الغرفة فقط إذا تكلم أحدهم بشكل سيء عن « روزفلت » أو « تيم بك » أو مدحَ رؤساء بلديات معيّنين في « تورنتو » . لم يحاول أبداً أن يجعل أي شخص يرتدّ طوال حياته ، كان فقط يغطي أو يحتفل بالأحداث التي تخطر حوله . كان هذا كل شيء . الرواية هي مرآة تسيرُ على الطريق . قرأت هذا في أحد الكتب التي زكّاها لها المريض الإنكليزي ، وكانت هذه هي الطريقة التي تذكرت بها والدها ـ كلما جمعت لحظاته ـ موقفاً سيارته تحت جِسْرٍ معيَن في « تورنتو » إلى الشمال من « بوتيري رود » في منتصف الليل

ويقول لها إنه هنا تقتسم الزرازير والحمامات غير مرتاحة ، وغير سعيدة ، العوارض الخشبية أثناء الليل . وهكذا توقّفا هناك في ليلةٍ صيفيةٍ ومدا رأسيهما إلى حلبة الضجة والسقسقة النائمة . قال « كارافاجيو » : « قيل لي إن « باتريك » ماتَ في برج حمام » .

أحب والدها مدينة من ابتكاره الخاص ، رسم شوارعها وأسوارها وحدودها هو وأصدقاؤه . وفي الحقيقة لم يخطُ أبداً خارج ذلك العالم . تدرك أن كل شيء كانت تعرفه عن العالم الحقيقي تعلمته بطريقتها الخاصة أو من « كارافاجيو » أو من زوجة والدها « كلارا » أثناء الوقت الذي عاشوا فيه سويةً . « كلارا » التي كانت مرةً « ممثلة » ، التي غضبتْ حين غادروا جميعاً إلى الحرب . حملت طوال العام الأخير في إيطاليا رسائل « كلارا » . رسائل عرفتْ أنها كُتبتْ على صخرة مسنّنة في جزيرة في خليج « جورجيان » ، كتبتْ والريحُ تهبَ على الماء وتلوي ورقة دفترها قبل أن تمزق الصفحات أخيراً وتضعها في ظرفٍ لترسلها إلى « هنا » . كانت تحملها في حقيبتها وكلٌّ منها تحتوي على قشرة من الصخرة المسننة ومن تلك الريح . إلا أنها لم تجاوبها أبداً . افتقدت « كلارا » بألم إلا أنها غير قادرة أن تكتب لها الآن بعد كل ما حدث لها . لا تستطيع أن تتحمل أن تتحدث أو حتى أن تقرّ بموت « باتريك » .

والآن ، في هذه القارة ، بعد أن ارتحلت الحرب إلى مكان آخر ، أصبحت الأديرة والكنائس التي حُوّلت لفترةٍ قصيرة إلى مستشفيات معزولة ومفصولة في تلال « توسكانيا » و « كامبريا » ، تحمل بقايا مجتمعات الحرب ، ركاماً صغيراً تركه نهر « جليدي » شاسع . وكل مايوجد حولها الآن هو الغابة المقدّسة .

تثني قدميها تحت عباءتها الرقيقة وتريح ذراعيها على فخذيها . كلٌّ شيء هادئ . تسمع الاهتياج المجوف المألوف ، قلقاً في الانبوب المدفون في العمود المركزي للحوض . ثم يخيم الصمتْ . وفجأة ينبعث صوت تحطّم حين يصل الماء متفجراً حولها .

القصص التي قرأتها «هنا» للمريض الإنكليزي مسافرة مع العجوز الجوال في «كيم» ومع «فابريس» في «دير بارم» أسكرتهما في دوامةٍ من الجيوش والأحصنة ـ تلك التي تركض بعيداً عن الحرب أو إليها . كانت توجد كتبٌ أخرى مكومة في إحدى زوايا غرفة نومه قرأتها له وسار سابقاً عبر أراضيها .

تُفتتح كتب كثيرة بتأكيد مؤلفها على الترتيب . انزلق أحدها إلى مياهها بمجذاف صامت .

أبدأ عملي من الوقت الذي كان فيه سيرفيوس كالبا قنصلاً ... زُوِّرتْ تواريخ «تيبريوس» ، «كاليغولا» ، كلوديوس ونيرون ، بينما كانوا قوة بواسطة الإرهاب وبعد أن ماتوا كُتِبَتْ بحقد طازج .

هكذا بدأ «تاسيتوس» حولياته .

إلا أن الروايات بدأت بالتردّد أو بالفوضى . ولم يكن القراء أبداً متوازنين بشكلٍ كامل . ينفتح بابٌ قفلٌ سياجٌ ويندفعون حاملين سمكة بيدٍ وفي الأخرى قبعة .

حين تبدأ كتاباً تدخل عبر مداخل قائمة على ركائز إلى ساحاتٍ كبيرة . بارم وباريس والهند تفرش سجادها .

جلس من غير اعتبارٍ للأوامر المحلية ، منفرج الساقين ، استلقى المدفع الزمزام على المنصّة الآجريّة مقابل بيت العجائب كما يسمّي المحليون متحف لاهور . من يمسك بالزمزام ذلك التنين الذي ينفث النار ، يمسك بالبنجاب ، لأن القطعة البرونزية الخضراء الكبيرة هي دائماً أول غنائم الفاتح .

«اقرئيه ببطءٍ يافتاتي العزيزة ، يجب أن تقرأي «كبلنغ» ببطء . راقبي بانتباه أين تقع الفواصل وهكذا يمكنك اكتشاف الوقفات الطبيعية . إنه كاتب استخدم القلم والحبر . كان يرفع بصره عن الصفحة كثيراً ، على ما أظن ،

ويحدق عبر نافذته ويصغي للطيور ، كما يفعل معظم الكتاب الوحيدين . لايعرف البعض أسماء الطيور ، إلا أنه كان يعرفها . عيناك سريعتان جداً وأميركيتان شماليتان . فكّري بسرعة قلمه . كم هي بالأحرى فقرة أولى قديمة دبقة ومروّعة » .

كان هذا درس المريض الإنكليزي الأول عن القراءة : لم يقاطع مرةً ثانية . إذا حدثَ ونام ستتابع ولن ترفع بصرها إلى الأعلى أبداً إلى أن تشعر هي نفسها بالإعياء . لو كان افتقد نصف الساعة الأخيرة في الحبكة ، سيكون هناك مكان واحد غامض في القصة فقط ومن المرجح أنه يعرفه مسبقاً . يعرف خريطة القصة . تقع « بيناريس » إلى الشرق من « تشيليانا والاه » في شمال « البنجاب » . (حدث كل هذا قبل أن يدخل الّلغام إلى حياتهما وكأنه خرج من هذه الروايات ، وكأن صفحات « كبلنغ » حُكَّتْ في الليل كمصباح سحري . أفيون العجائب .

استدارت عن نهاية رواية « كيم » بجملها الرشيقة المقدّسة ـ وبيانها الناصع ـ والتقطت دفتر المريض ، الكتاب الذي حمله معه خارج النار . انفتح الكتاب الذي ازدادت سماكته .

ورقة رقيقة من الكتاب المقدس ، منتزعة وملصقة على النص .

كان الملك داود عجوزاً طاعناً في السن وغطوه بالملابس إلا أنه لم يتلق أية حرارة .

عندئذٍ قال خدمه ، أحضروا للملك عذراء شابة : اجعلوها تدلّله وتستلقي على صدره ، بحيث يمكن أنْ يحصل ملكنا على الدفء .

وهكذا بحثوا عن فتاة جميلة عبر كل السواحل وعثروا على أبيشج الشُونميّة . ودللت الفتاة الملك وأسعفته . إلا أن الملك لم يعرفها .

قبيلة ـــ التي أنقذت الطيار المحترق أحضرته إلى القاعدة البريطانية في « سيوة » عام ١٩٤٤ . نقل في قطار إسعاف في منتصف الليل من الصحراء

الغربية إلى تونس ، ثم إلى إيطاليا . في ذلك الوقت من الحرب كان المئات من الجنود الذين ضيّعوا أنفسهم والذين هم أكثر براءة من كونهم مخادعين . أولئك الذين ادعوا أنهم غير متيقنين من جنسياتهم أُسكنوا في مجمعات في « تيرينيا » ، حيث المستشفى البحري . كان الطيار المحترق لغزاً إضافياً ، دون هويةٍ ولايمكن التعرّف عليه . وفي المجمع الإجرامي في الجوار احتجزوا الشاعر الأميركي « عزرا باوند » في قفص ، حيث خبأ في جسده وجيوبه محرّك الأوكالبتوس الذي أحناه واقتلعه من حديقة الذي خانه حينَ اعتقل كان يديره يومياً من أجل صورته عن الأمان . « الأوكالبتوس ذلك الذي من أجل الذاكرة » .

قال الطيّار المحروق للذين يحققون معه : « لابدّ أنكم تحاولون خداعي وتجعلونني أتحدث الألمانية التي أستطيع أن أتحدثها ، بالمناسبة اسألوني عن « دون برادمان » . اسألوني عن « مارميت » ، « جرترد هيكل العظيم » . كان يعرف أين يوجد كل « جيوتو » في أوروبا ومعظم الأمكنة حيث يستطيع المرء أن يجد الوهم مقنعاً .

صُنعَ المستشفى البحري من كابينات سباحة على طول الشاطئ استأجرها السواح عند منعطف القرن . حين كانت تشتد الحرارة كانت مظلات « الكامباري » القديمة تُنْصب فوق الطاولات ، وكان المضمدون والجرحى وفاقدو الوعي يجلسون تحتها في الهواء البحري ويتحدثون ببطء أو يحدقون أو يتحدثون طوال الوقت . لاحظ الرجل المحروق وجود الممرضة الشابة وانفصالها عن الآخرين . كان يعرف نظرات ميتة كهذه ، يعرف أنها مريضة أكثر مما هي ممرضة . كان يتحدث معها فقط حين يحتاج لشيء .

استجوب مرةً ثانية . كان كل شيء حوله انكليزياً جداً ماعدا حقيقة أن جلده كان مقيراً بالأسود ، كان بعبعاً من التاريخ بين الضباط المستجوبين .

سألوه أين توقف الحلفاء في إيطاليا وقال إنه يظن أنهم احتلوا « فلورنسا » ولايستطيعون أن يعبروا قواعد مثل « براتو » و « فيسول » مثلاً

لأن الألمان تحصنوا في الفيلات والأديرة بشكل متألق . إنها قصة قديمة ـ ارتكب الصليبيون الخطأ نفسه ضد العرب المسلمين . ومثلهم تحتاجون إلى بلدات محصّنة . لم تُهجر أبداً إلا أثناء تفشّي الكوليرا .

تحدث بشكل مفكك جعلهم يفقدون صوابهم دون أن يعرفوا إن كان خائناً أم حليفاً ، وتركهم غير متأكدين تماماً من هويته .

الآن ، بعد أشهرٍ ، في فيلا «سان جيرولامو» ، في البلدة التلّية إلى الشمال من فلورنسا ، يأخذ وضعية تمثال الفارس الميت في «راڤينا» . يتحدث بشكل مبعثر عن الواحات ، عن آل مديتشي الأخيرين ، عن الأسلوب النثري «لكبلنغ» عن المرأة التي عضّت لحمه . وفي كتابه المألوف ، طبعة ١٨٩٠ ، من كتاب «التاريخ» لهيرودت ، قصاصات أخرى ـ خرائط ، مداخل مذكرات ، كتابات بلغاتٍ كثيرة ، فقرات مقتطعة من كتب أخرى . كان كل ماهو مفقود هو اسمه . مايزال لايوجد مفتاح لمعرفة من هو فعلاً ، بقيَ دون اسم ، دون رتبة أو كتيبةٍ أو سرب طائرات . جميع المراجع في كتابه تعود إلى فترة ما قبل الحرب ، صحاري مصر وليبيا في الثلاثينات ، موشاة بإشارات حول فن الكهوف أو فن الصالات أو ملاحظات صحفية بخط يده . يقول المريض الإنكليزي لـ «هنا» وهي تنحني فوقه : «لا نساء سمراوات بين المادونات الفلورنسيات» .

الكتابُ بين يديه . تحمله بعيداً عن جسمه النائم وتضعه على الطاولة الجانبية . تتركه مفتوحاً وتقف هناك ناظرة إلى الأسفل وتقرأ . تعد نفسها أنها لن تقلب الصفحة ،

أيار ١٩٤٦

سأقرأ لك قصيدةً ، قالت زوجة كليفتون بصوتها الرسمي ، الذي تستخدمه دائماً إلا إذا كنت قريباً منها جداً . كنا جميعاً في مركز المخيم الجنوبي جالسين حولَ النار .

مشيتُ في صحراء
وصحت :
آه! يا إلهي خذني من هذا المكان!
فأجاب صوتٌ : إنها ليست صحراء .
صحتُ : « حسناً ، لكن ـــ
الرمل ، الحرارة ، الأفق الفارغ »
أجاب صوتٌ : « إنها ليست صحراء » .

لم يتفوه أحدٌ بأي شيء :
قالت هذه « لستيفن كرين » ، لم يأت أبداً إلى الصحراء .
قال مادوكس : لقد جاء إلى الصحراء

تموز ١٩٣٦
تحدث خيانات في الحرب تُعتبر طفولية إذا ما قورنت بخياناتنا البشرية أثناء السلم . العاشق الجديد يدخل عادات الآخر . الأشياء تُحطَّم ، تُكشف بضوءٍ جديد . أنجز هذا بجمل عصبيّة أو رقيقة ، رغم أن القلب عضو من النار .
إن قصة الحب ليست عن أولئك الذين يفقدون قلوبهم بل عن أولئك الذين يجدون ذلك المقيم الكئيب ، الذي ، حين يُعثر عليه ، يعني أن الجسد لا يستطيع أن يخدع أحداً ، لايستطيع أن يخدع شيئاً ـ لاحكمة النوم أو عادة الكياسات الاجتماعية . هذا استهلاك للذات وللماضي .

الغرفة الخضراء مظلمة تقريباً . تستدير « هنا » وتدرك أن عنقها متصلبة من الوقوف . لقد ركزتْ وانغمست في الكتابة الملتوية في كتابه البحري

السميك المليء بالخرائط والنصوص . حتى ورقة سرخس ملصقة فيه . التاريخ . لاتغلق الكتاب ، لم تلمسه منذ أن وضعته على الطاولة الجانبية . تسير بعيداً عنه .

كان كيب في حقلٍ شمال الفيلا حين عثر على اللغم . أوشكتْ قدمه أن تدوس على السلك الأخضر حين عبر البستان ـ وحين انحرفَ فقد توازنه وسقط على ركبتيه . رفع السلك إلى أن أصبح مشدوداً ثم تبعه في خط متعرّج بين الأشجار .

جلس عند المصدر والحقيبة القماشية في حجره . صدَمه اللغم . لقد غطوه بالإسمنت . وضعوا المادة المتفجرة هناك وغطوها باسمنت مجبولٍ لتمويه آليتها ومقدار قوتها . كانت شجرة جرداء على بعد أربع ياردات . ونما فوق الكرة الإسمنتية عشب عمره شهران .

فتح حقيبته وقطع الأعشاب بالمقص . ربط شبكة صغيرة من الحبال حولها وبعد أن ثبّت حبلاً وبكرة إلى غصن الشجرة رفع الإسمنت ببطء في الجو . كان سلكان من الإسمنت يؤديان إلى الأرض . جلس واستند إلى الشجرة ونظر إليه . لاتهم السرعة الآن . أخرج المستقبلة البلورية من الحقيبة ووضع السماعات على أذنيه . حالاً بدأ الراديو يغمره بالموسيقا الأميركية من محطة AIF . معدل دقيقتين ونصف لكل أغنية ورقصة . يستطيع أن يشق طريقه إلى الخلف على طول « خيط اللآلئ » وأغاني البلوز المرتجلة ، وألحان أخرى ليكتشف كم أمضى من الوقت هناك ، يتلقى الموسيقا الخلفية بشكل لاواعٍ .

لم تهمه الضجة . لن يوجد تكتكات ضعيفة أو طقطقات لتشير إلى الخطر في هذا النوع من القنابل . ساعده إلهاء الموسيقا له على توضيح فكره حول

الأشكال المحتملة للتركيب في هذا اللغم ، حول الشخصية التي وضعتْ مدينة الخيوط ثم صبَّت إسمنتاً مجبولاً فوقها .

كان انشداد الكرة الإسمنتية المربوطة بحبلٍ ثان في الجوّ ، يعني أن السلكين لن ينسحبا مهما هاجمها بقوة . وقف وبدأ يحفر حول اللغم بلطفٍ نافخاً الحبيبات الترابية المنفلتة بفمه ، مستخدماً العصا الريشية ، كانساً المزيدَ من الإسمنت . أوقف تركيزه فقط حين انزاحت الموسيقا عن الطول الموجي وكان عليه أن يجدَ المحطة ليوضح الألحان . حرّر ببطء شديدٍ سلسلة الأسلاك . ستة أسلاك مختلطة بغير نظام مربوطة مع بعضها ومدهونة كلها باللون الأسود . نفض الغبار عن لوحة الخريطة التي تتوضّع عليها الأسلاك . ستة أسلاك سوداء . حين كان طفلاً ضم والده أصابعه وموّهها كلها ماعدا رؤوسها وجعله يخمّن أية إصبع هي الأطول . إصبعه الصغيرة ستلمس اختياره وستنفتح يد والده لتكشف خطأ الصبي . يستطيع المرء بالطبع أن يجعل سلكاً أحمرَ سلبياً . إلا أن هذا الخصم لم يغط الشيء بالإسمنت فحسب ، بل دهن جميع الصفات بالأسود . دخل كيب في دوامة نفسية . بدأ يزيل الطلاء بالمدية كاشفاً لوناً أحمر وأزرق وأخضر . أسيكون خصمه قد بدلها أيضاً ؟ عليه أن يرتّب عَطْفة بسلك أسود من عنده كمنعطف نَهْرٍ على شكل سناد النير ، ثم يختبر الدورة من أجل الطاقة السلبية أو الإيجابية . ثم سيفحصها من أجل الطاقة المتلاشية ويعرف أين يكمن الخطر .

كانت « هنا » تحمل مرآة طويلة أمامها عبر الصالة . ستتوقّف بسبب وزنها ثم تتحرك إلى الأمام ، المرآة تعكس اللون القرمزي العاتم للممرّ .

أراد المريض الإنكليزي أن يشاهد نفسه . قبل أن تخطو إلى الغرفة أدارت بحرصٍ الإنعكاس على نفسها ، غير راغبة أن يقفز الضوء بشكل غير مباشرٍ من النافذة إلى وجهه .

يستلقي هناك في جلده الأسود ، الشحوب الوحيد هو في المساعد

السمعي الذي في أذنه وتوهج الضوء الظاهر على مخدته . أزاح الشراشف بيديه . هنا . افعلي هذا ودفعَ قدر استطاعته و دفعت « هنا » الشرشف إلى قاعدة السرير .

وقفت على كرسي على قدم السرير وببطء أدارتْ المرآة إلى الأسفل نحوه . كانت في هذه الوضعية ، يداها متوترتان أمامها حين سمعت الصيحات الضعيفة .

تجاهلتها في البداية . كان المنزل غالباً ما يلتقط ضجة من الوادي . كان استخدام الأبواق من قبل العسكر الذين يخلون يثير أعصابها حين كانتْ تعيش وحيدة مع المريض الإنكليزي .

قال : « ثبّتي المرآة ياعزيزتي » .

ـ « أظن أنه يوجد شخص يصيح . هل سمعت ؟

شغَلتْ يده اليسرى المساعد السمعي .

ـ « إنه الصبي . من الأفضل أن تذهبي وتستكشفي » .

أسندت المرآة على الحائط واندفعت عبر الرواق . توقَّفَتْ في الخارج منتظرة الصرخة التالية . حين جاءت سارتْ عبر الحديقة ثم إلى الحقول فوق المنزل .

كان واقفاً ، يداه مرفوعتان فوقه كأنه يحمل بيت عنكبوت عملاق ويهزّ رأسه ليتخلص من السماعات . حين ركضتْ نحوه صرخ بها أن تدور إلى اليسار ، هناك حيث أسلاك اللّغم في كل أنحاء المكان . توقفتْ . كانت قد تنزهتْ هنا مرات عديدة دون حسّ بالخطر . رفعتْ تنورتها وتحركت إلى الأمام مراقبةً قدميها حين دخلتا العشب الطويل .

كانت يداه ماتزالان مرفوعتين حين وصلت إلى جانبه . لقد خُدِعَ وانتهى حاملاً سلكين حيّين لا يستطيع أن يضعهما دون أمان اللحن المساير . كان بحاجة إلى يد ثالثة ليبطل أحدهما وإلى أن يعود مرة أخرى إلى رأس الصمامة . أعطاها السلكين بحذر وأنزل ذراعيه معيداً الدمَ إليهما .

ـ « سآخذهما بعد دقيقة ؟
ـ « حسناً .
ـ « ابقي هادئة جداً .
فتح حقيبته ليخرج عدّاد « جايجر » ومغنطيساً . لا مفتاح . لاشيء . خطا إلى الخلف متسائلاً أين تكمن الخدعة .
ـ « دعيني أربط هذين إلى الشجرة وغادري » .
ـ « لا ، سأمسكهما . لن يصلا إلى الشجرة » .
ـ « لا » .
ـ « كيب! أستطيع أن أمسكهما » .
ـ « يواجهنا مأزق ، مزحة . لا أعرف من أين أبدأ هنا . لا أعرف كم هي الخدعة تامّة » .

تركها وعادَ إلى المكان الذي رأى فيه السلك لأول مرة . رفعه وتبعه طوال الطريق هذه المرة وعدّاد « جايجر » إلى جانبه . ثم انحنى على بعد عشر ياردات منها مفكّراً ، وبين فينةٍ أخرى ينظر إلى الأعلى وإلى اليمين عبرها مراقباً السلكين الرافدين الذين تحملهما فقط . قال بصوت مرتفع وببطءٍ : لا أعرف . لا أعرف . أعتقد أنه يجب أن أقطع السلك الذي في يدك اليسرى ، يجب أن تغادري . كان يدفع سماعتي الراديو فوق رأسه بحيث جاء الصوت إليه كاملاً وملأه بالوضوح . درس الممرات المختلفة للسلك وانحرف إلى التفافات العقد ، الزوايا المفاجئة ، المحولات المدفونة التي ترجمتها من الموجب إلى السالب . علبة القدح . تذكّر الكلب ذا العين الكبيرة كالصفيحة . ركض مع الموسيقا على طول السلكين وطوال الوقت كان ينظر إلى يدي الفتاة اللتين كانتا ماتزالان تمسكانهما .
ـ « من الأفضل أن تذهبي » .
ـ « تحتاج يداً أخرى لتقطعه ، أليس كذلك ؟ » .
ـ « أستطيع أن أربطه إلى الشجرة » .

ـ « سأمسكه » .

التقط السلك كأفعى نحيلة من يدها اليسرى ثم أخذَ الآخر . لم تبتعد . لم يقل شيئاً إضافياً ، كان عليه أن يفكر الآن بوضوح قدر استطاعته وكأنه وحيد . جاءت إليه وأخذت أحد الأسلاك . لم يكن واعيا لهذا على الإطلاق ، لقد امحى حضورها . سافر عبر ممرّ صمامة القنبلة ثانية ، مع العقل الذي خطّط لهذا ، لامساً جميع النقاط المهمة ، مشاهداً أشعتها الإكسية ، والموسيقا تملأ كلّ شيء آخر .

متجهاً نحوها ، قطع السلك تحت قبضتها اليسرى قبل أن تتلاشى النظرية ، الصوت مثل شيء تمَّ عضّه بسنٍ . رأى الرسوم القاتمة لفستانها فوق كتفها ، إزاء عنقها . عُطّلت القنبلة . رمى المِقْطَعة ووضع يده على كتفها محتاجاً أن يلمس شيئاً بشرياً . كانت تقول شيئاً ما لم يستطع أن يسمعه ، وتقدمت ونزعت السماعات وهكذا غزا الصمت . النسيم والحفيف . لاحظ أن طقطقة السلك الذي قُطِعَ لم تُسمع إطلاقاً ، فقط شعر بها ، طقطقة انكسار عظم أرنب صغير . دون أن يدعها تذهب يمد يده ويسحب السلك الذي يبلغ طوله سبعة إنشات من قبضتها التي كانت ماتزال مشدودة .

كانت تنظر إليه بسخرية منتظرة جوابه على ما قالته ولم يسمعه . هزت رأسها وجلستْ . بدأ يجمع أشياء متنوعة حوله ويضعها في حقيبته . رفعت بصرها إلى الشجرة ثم فقط بالصدفة نظرت إلى الأسفل ورأت يديه ترتجفان متوترتين وصلبتين كيدي شخص مصاب بالصرع ، تنفسه العميق والسريع ينتهي في لحظة . كان منحنياً إلى الأسفل .

« هل سمعتَ ما قلته » ؟

« لا . ماذا قلت » ؟

ـ « ظننت أنني سأموت . أردت أن أموت . واعتقدت أنني إذا كنتُ سأموت ، فسأموت معك . مع شخص مثلك ، شاب مثلي ، رأيت كثيرين يموتون قربي العامَ الماضي . لم أشعر بالخوف . بالتأكيد لم أكن شجاعة

الآن . فكرتُ في نفسي أننا نمتلك هذه الفيلا هذا العشب ، يجب أن نستلقي معاً ، وأنت بين ذراعي ، قبل أن نموت . أردت أن ألمس العظم عند عنقك ، الترقوة ، إنها مثل جناح صلب صغير تحت جلدك . أردت أن أضع أصابعي عليها . أحببتُ دائماً اللحم الذي له لون الأنهار والصخور أو مثل العين البنيّة للسوسن ، هل تعرف ماهي هذه الزهرة ؟ هل رأيتها ؟ أنا متعبة يا « كيب » أريد أن أنام . أريد أن أنام تحت هذه الشجرة وأضع عيني إزاء ترقوتك ، أردت لتوي أن أغمض عينيَ دون أن أفكر بالآخرين ، رغبت أن أعثر على قفلِ شجرة لأتسلق إليه وأنام . يا له من ذهنٍ حريص! أن تعرف أي سلك تقطع . كيف عرفت ؟ كنت تردّد : لا أعرف ، لا أعرف ، إلا أنك عرفت . هل هذا صحيح ؟ لا ترتجف ، يجب أن تكون سريراً هادئاً لي ، دعني ألتفَ وكأنك جدّ طيب أستطيع أن أضمه ، أحب كلمة «التفَ» كلمة بطيئة كهذه ، لاتستطيع أن تقولها بسرعة» .

كان فمها على قميصه . استلقى معها على الأرض هادئاً كما كان عليه أن يكون ، عيناه صافيتان ، ناظراً إلى غصن . استطاع أن يسمع نَفَسَها العميق . حين وضع ذراعه حول كتفها كانت قد نامت إلا أنها شدته نحوها . محدقاً إلى الأسفل وجد أنها ماتزال تمسك السلك ، لابد أنها التقطته مرة ثانية .

كان نفسها هو الأكثر حياة . بدا وزنها خفيفاً بحيث يجب أن تكون قد وازنت معظمه . كي لايرتمي عليه . إلى متى يستطيع أن يستلقي هكذا غير قادر على أن يتحرك أو يستدير إلى العمل . كان من الضروري أن يبقى هادئاً بالطريقة التي أعاد بها الاستناد على التماثيل أثناء تلك الشهور حين تحركوا على الساحل ليقاتلوا في البلدة المحصنة وخلفها إلى أن لم يبق اختلاف فيها ، الشوارع الضيقة نفسها في كل مكان والتي أصبحت مجارير من الدم حيث سيحلم أنه إذا فقد توازنه سيهبط تلك المنحدرات على السائل الأحمر وينقذف من الجرف إلى الوادي . كان يسير كل ليلة في برودة « كنيسة » مأسورة

ويعثر على تمثال ليكون حارسه في الليل ، كان يثق بسلالة الأحجار هذه فقط ، مقترباً منها قدر الإمكان في الظلام ، ملاك حزين كان فخذه فَخْذ امرأةٍ تاماً ، كان خطّه وظله ناعمين . سيضع رأسه في حضن مخلوقات كهذه ويحرر نفسه بالنوم .

وضعت فجأة مزيداً من الوزن عليه وأصبح تنفسها أعمق كصوت الفيولونسيل . راقبَ وجهها النائم . كان مايزال متضايقاً لأن الفتاة مكثتْ معه حين عطّل القنبلة وكأنها جعلته بذلك مديناً لها بشيء ما . جعلته يشعر بأنه مسؤول عنها ، رغم أنه لم يكن يوجد تفكير بهذا في ذلك الوقت . وكأن هذا يمكن أن يؤثر بشكل نافعٍ في ما اختار أن يفعله مع اللغم .

إلا أنه شعر أنه الآن داخل شيء ما ، ربما لوحة رآها في مكانٍ ما في العام المنصرم . شخصان آمنان في حقل . كم رأى كثيرين ينامون بكسلٍ دون أن يفكروا بالعمل أو بأخطار العالم . إلى جانبه كانت الحركات التي تشبه حركات الفأرة داخل نَفَسِ « هنا » ، حاجباها يرتفعان وينخفضان مع المحاججة ، غضب قليلٌ في حلمها . أدار عينيه بعيداً ، عالياً نحو الأشجار والسماء البيضاء الغيوم . أمسكته يدها كما تعلّق الوحل على طول ضفة نهر « مورو » ، قبضته تغوص في التراب المبلل ليمنع نفسه من السقوط في التيار الذي عُبر .

لو كان بطلاً في لوحة ، لكان بوسعه أن ينام قرير العين . ولكن كما قالت أحياناً ، كان سمرةَ صخرةٍ ، سُمْرةَ نَهْرٍ موحلٍ تغذّيه العاصفة . شيء ما فيه جعله يتراجع حتى من البراءة الساذجة لملاحظةٍ كهذه . التعطيل الناجح لقنبلة ينهي الروايات . رجال بيضٌ حكماء أبويون يصافحون بعضهم ، شُهِروا ثم تقاعدوا ، بعد أن تمت ملاطفتهم ليخرجوا من عزلتهم من أجل هذه المناسبة الخاصة . إلا أنه كان محترفاً . وبقيَ الأجنبيَّ ، السيخيَّ . كان اتصاله البشري والشخصي الوحيد هو مع هذا العدو الذي صنعَ القنبلة وغادر مزيلاً آثاره بغصنٍ .

لماذا لم يستطع أن ينام ؟ لماذا لم يستطع أن يستدير نحو الفتاة ويوقف التفكير بأن كل شيء نار معلقة ، نصف مشتعلة ؟ في لوحةٍ من خياله سيكون

الحقل الذي يحيط بهذا العناق مشتعلاً بألسنة اللهب . مرة تبع دخول لغام الى منزلٍ ملغوم بالمنظار . رآه يكنس علبة ثقاب عن حافة طاولة و يُغلف بالضوء لمدة نصف ثانية قبل أن يصل إليه الصوت التفتيتي للقنبلة . كيف كان البرق في ١٩٤٤ . كيف يستطيع أن يثق بتلك الدائرة من المطاط على لحم ثوب المرأة والتي أمسكت ذراعها ؟ أو بخشخشة نَفَسها القريب العميق كأحجارٍ في قاع النهر .

استيقظت حين تحرك اليُسْروع من قبّة فستانها إلى عنقها وفتحتْ عينيها لتشاهده محنياً فوقها . رفعَه عن وجهها دون أن يلمس جلدها ووضعه على العشب . لاحظتْ أنه حَزَمَ معدّاتهِ . تراجع إلى الخلف واستند إلى الشجرة وراقبها وهي تتمدد ببطءٍ على ظهرها مبقيةً تلك اللحظة قدر استطاعتها . يجب أن يكون الوقت بعد الظهر ، الشمس في الأعلى هناك . أسندت رأسها إلى الخلف ونظرت إليه .

- « كان من المفترض أن تعانقني .
- « لقد فعلت ، إلى أن انفصلتِ » .
- « كم من الوقتَ حضنتني ؟
- « إلى أن تحرّكتِ . إلى أن احتجتِ إلى التحرك » .
- « لم أكن أستفيد من ذلك ، أليس كذلك ؟ وأضافت : « فقط كنت أمزح » ، حين رأته يحمرّ .
- « هل تريد الذهاب إلى المنزل ؟
- « نعم ، أنا جائع » .

نهضتْ بصعوبة منبهرة من الشمس وبسبب ساقيها المتعبتين ، كانت ماتزال لاتعرف كم من الوقت بقيا هناك . لم تستطع أن تنسى عمق نومها ، خفة ثقل الفادن .

بدأت حفلةٌ في غرفة المريض الإنكليزي حين أظهر « كارافاجيو » الفونوغراف الذي عثر عليه في مكانٍ ما .

ـ « سأستخدمه لأعلمك الرقص يا « هنا » ، لا مايعرفه صديقك الشاب . لقد شاهدت وأدرت ظهري لرقصات معيّنة . ولكن هذا اللحن : كم استمر هذا في الحدوث » ، واحدة من أعظم الأغاني لأن لحن المقدمة أنقى من الأغنية التي يقدمها . اعترف بذلك رجال الجاز العظام فقط . الآن نستطيع أن نقيم هذه الحفلة على الدكة الأمر الذي سيسمح لنا بدعوة الكلب أو بوسعنا أن نغزو الرجل الإنكليزي ونقيمها في غرفة نومه في الطابق العلوي . وجدَ صديقك الذي لا يشرب زجاجات خمر البارحة في « سان دومينيكو » لانملك موسيقا فقط . أعطيني ذراعك . لا . يجب أن نعلّم الأرض بالحوّار أولاً ونتمرّن ثلاث خطوات رئيسية ـ واحد ـ إثنان ـ ثلاثة ـ الآن أعطيني ذراعك ، ما الذي حدث لك اليوم ؟

ـ « لقد عطّل قنبلة ضخمة ، واحدة صعبة . دعه يخبرك عنها » .

هزَّ اللغام كتفيه بلا مبالاة ، ليس من باب التواضع بل وكأنها مسألة معقدة لايمكن شرحها . خيّم الليل بسرعة وملأ الوادي ثم الجبال وتركوا مرة أخرى مع القناديل .

كانوا يجرون أقدامهم سويةً في الممرات نحو غرفة نوم المريض الإنكليزي وكارافاجيو ، يحمل الفونوغراف بيد واحدة من ذراعه وإبرته .

قال للشكل الثابت في الفراش : « الآن ، قبل أن تبدأ بتواريخك ، سأقدم لك قصتي الرومانسية » .

غمغم الإنكليزي : « أعتقد أن السيد لورنز هارت كتبها في ١٩٣٥ » .

كان كيب يجلس على النافذة وقالت إنها تريد أن ترقص مع اللّغام .

ـ « ليس قبل أن أعلمك يادودتي العزيزة » .

نظرت إلى « كارافاجيو » باستغراب ، كان هذا هو المصطلح التودّدي

الذي يستخدمه والدها معها . شدها في عناقه الأشيب الكثيف وقال : دودتي العزيزة ، ثانية وبدأ درس الرقص .

كانت ترتدي فستاناً نظيفاً لكنه غير مكويّ . وكلما كانا يدوران كانت تشاهد اللّغام يغني لنفسه أغنيات . لو كان يوجد كهرباء لكان بوسعهم استخدام الراديو وسماع الأنباء عن الحرب في مكانٍ ما . كل ما كانوا يملكونه هو المستقبلة البلورية العائدة «لكيب» إلا أنه تركها في خيمته . كان المريض الإنكليزي يناقش الحياة المنحوسة «للورنز هارت» وقال إن بعض أفضل أغانيه عن «مانهاتن» غُيِّرَتْ وأنشد هذه الأشعار .

سنسبح في برايتون
ونخيف الأسماك
ونحن نفعل ذلك .
مايوهك الشفّاف
سيجعل المحار يبتسم
زعنفة لزعنفة .

«أبيات رائعة وجنسية إلا أن المرء يظن أن ريتشارد رودجرز كان يريد المزيد من الوقار» .

- «يجب أن تخمني حركاتي» .

- «لماذا لا تخمن حركاتي أنا» .

- «سأفعل ذلك حين تعرفين ما يجب أن تفعليه . حالياً أنا الوحيد الذي يفعل» .

- «أراهن أن «كيب» يعرف» .

- «ربما يعرف ولكنه لايريد أن يفعل ذلك» .

قال المريض الإنكليزي بأنه سيشرب بعض الخمرة فالتقط اللغام كأسَ ماءٍ وقذف محتوياته من النافذة وصبَّ الخمرة للإنكليزي .

- «هذه كأسي الأولى خلال عام» .

سُمِعتْ ضجّة مكتومة فاستدار اللّغام بسرعة ونظر من النافذة في الظلام . تجمّد الآخرون . محتمل أن يكون هذا لغماً . استدارَ إلى الحفلة وقال : « كل شيء على مايرام ، ليس لغماً . يبدو أن هذا جاء من منطقة منظفة » .

ـ « أدر الفونوغراف يا « كيب » سوف أقدم لكم الآن : « كم كان هذا يستمر ، التي كتبها ـــ » ترك افتتاحيةً للمريض الإنكليزي الذي بدا في وضعٍ حرج وهز رأسه مبتسماً والخمرة في فمه .

ـ « سيقتلني هذا الكحول على الأرجح » .

ـ « لا شيء سيقتلك يا صديقي فأنت كربون محض » .

ـ « كارافاجيو »

ـ جورج و إيرا كيرشوين . أصغوا .

انزلق هو و « هنا » مع حزن الساكسفون ، إنه مصيب .

التقسيم بطيء وطويل . أحسَّت أن الموسيقيّ لم يرغب في مغادرة الردهة الصغيرة للمقدمة ويدخل في الأغنية ، وأصر على البقاء هناك حيث لم تبدأ القصة بعد وكأنه متيَّمٌ بعذراء في المقدمة . غمغم الإنكليزي قائلاً إن مقدمات أغانٍ كهذه كانت تدعى « الأعباء » .

ارتاح خدّها على عضلات كتف كارافاجيو . شعرتْ بتلك البراثن المرعبة على الثوب النظيف عند ظهرها وتحركا في المكان المحصور بين السرير والحائط ، بين السرير والباب ، بين السرير وتجويف النافذة الذي جلس « كيب » فيه . كلما استدارا سترى وجهه . ركبتاه إلى الأعلى وذراعاه يستريحان عليهما أو ينظرُ عبر النافذة في الظلام .

ـ « أيعرف أي منكم رقصة تُدعى ضمة البوسفور ؟* سألَ الإنكليزي .

ـ « لاشيء كهذا » .

راقب « كيب » الظل الضخم ينزلق فوق السقف وفوق الحائط المليء بالرسوم . نهض وسار إلى المريض الإنكليزي ليملأ كأسه الفارغة ولمس حافة

* وتعني المضيق . مضيق البوسفور .

كأسه بالزجاجة ليشرب نخبه . هبَّت الريح الغربيّة على الغرفة واستدار فجأة غاضباً . رائحة خفيفة من الكورديت وصلتْ إليه . نسبة مئوية منها في الجو ، ثم انزلق خارجاً من الغرفة وعلى ملامحه قلقٌ ، تاركا « هنا » بين ذراعي « كارافاجيو » .

لم يكن معه ضوء حين ركض عبر الصالة المظلمة . أفرغ الحقيبة ، هرع من المنزل واندفع هابطاً درجات الكنيسة الـ ٣٦ ، الى الطريق راكضاً ، مزيلاً فكرة الإنهاك من جسده .

أكان لغَاماً أم مدنياً ؟ كانت رائحة الأزهار والأعشاب تفوح على طول حائط الطريق ، بداية ألم في جنبه . حادث أم اختيار خاطئ . غالباً ما يعزل الّلغامون أنفسهم . كانوا مجموعة غريبة إذا صح الوصف ، ونوعاً ما كبشرٍ يعملون في صناعة الجواهر والأحجار ، امتلكوا قسوةً ووضوحاً في داخلهم ، وتخيف قراراتهم حتى زملاءهم في الحرفة نفسها . تعرف « كيب » على هذه الصفة من قاطعي الأحجار الكريمة إلا أنه لم يتعرَف عليها أبداً في نفسه ، رغم أنه عرف أن الآخرين شاهدوها هناك . لم يألف الّلغامون بعضهم أبداً . حين يتحدثون يمرّرون المعلومات ، الأدوات الجديدة ، عادات العدو . سيدخل إلى صالة البلدة حيث تم إيواؤهم وسترى عينه الوجوه الثلاثة وتدرك غياب الوجه الرابع . أو سيكون الأربعة موجودين وفي حقل في مكان ما ستكون جثة عجوز أو فتاة .

تعلّم الرسوم التخطيطية للنظام حين تطوّع في الجيش ، المخططات التي أصبحت أكثر تعقيداً كالعقد الكبيرة أو العلامات الموسيقية . اكتشف أنه يمتلك مهارة النظرة الثلاثية الأبعاد ، النظرة المحدقة الشاذة التي تستطيع أن تنظر إلى شيء أو صفحة معلوماتٍ وتعيد ترتيبها ، وترى جميعَ الألحان

المسايرة . كان محافظاً بالفطرة إلا أنه قادر أيضاً على تخيّل الأشياء الأكثر سوءاً ، امكانية حصول حادث في الغرفة ـ خوخة على طاولة ، طفل يقترب ويأكل النواة المسمومة ، رجل يدخل غرفةً مظلمة وقبل أن ينضم إلى زوجته في الفراش يفصل مصباحَ بارافين عن حاملته . كانت جميع الغرف مليئة بهذه الأشياء . تستطيع النظرة المحدقة الشاذة أن ترى الخط المدفون تحت السطح ، كيف يمكن أن تُلفَّ العقدة حين تكون غير مرئية . ترك كتبَ الألغاز ساخطاً ، قادراً على تحديد الأوغاد بسهولة كبيرة . كان أكثر ارتياحاً مع الرجال الذين امتلكوا الجنون التراجيدي للمتعلّمين ذاتياً مثل معلّمه الخاصّ اللورد « سفولك » ومثل المريض الإنكليزي .

لم يمتلك إيماناً بالكتب بعد . راقَبتْهُ « هنا » في الأيام الأخيرة وهو يجلس قرب المريض الإنكليزي وبدا لها هذا انعكاساً « لكيم » . كان الطالب الشاب هندياً الآن والمدرس العجوز الحكيم انكليزياً . إلا أن « هنا » هي التي مكثتْ ليلاً مع العجوز وقادته عبر الجبال إلى النبع المقدّس . حتى أنهما اطلعا معاًعلى ذلك الكتاب وكان صوت « هنا » يبطئ حين تُضعف الريح ضوء الشمعة قربها وتظلم الصفحة للحظةٍ .

أقعى في زاوية في حجرة الانتظار التي تصدر رنيناً سابحاً بعيداً عن جميع الأفكار الأخرى ، يداه مطويتان في حجره وبؤبؤاه متقلصان كرأس الدبوس . في لحظة ــ في نصف ثانية أخرى« ـ شعر بأنه سيصل إلى حل ذلك اللغز الكبير...

وبطريقة ما في ليالي القراءة والإصغاء الطويلة تلك افترضتْ أنهما حضرا أنفسهما للجندي الشاب ، الصبي الذي كبر والذي سينضم إليهما . إلا أن « هنا » هي التي كانت الصبيّ في القصة . وإذا كان « كيب » أي شخص ، فهو الضابط « غريتون » .

كتاب ، خريطة من العقد ، لوح الصمامة ، غرفة لأربعة أشخاص في فيلا مهجورة مضاءة فقط بالشموع وبين فينة واخرى تضيئها العاصفة وأحياناً ضوء

محتمل من انفجار . أظلمت الجبال والتلال وفلورنسا بدون كهرباء . يصلُ ضوء الشمعة إلى أقل من خمسين ياردة . ويبدو من مسافة بعيدة أن لاشيء هنا ينتمي إلى العالم الخارجي . احتفلوا في رقصة المساء القصيرة في غرفة المريض الإنكليزي بمغامراتهم الخاصة الصغيرة ـ « هنا » بنومها ، « كارافاجيو » بعثوره على الفونوغراف و كيب بالتعطيل المعقّد للّغم ، رغم أنه نسيَ لحظة كهذه .

لم يكن لهم تمثيلٌ في العالم على بعد خمسين ياردة فقط ، لا يسمع لهم صوت أو تراهم عين الوادي حين ينزلق ظلاً « هنا » و« كارافاجيو » على الجدران ويجلس « كيب » بارتياح مغلّفاً في التجويف والمريض الإنكليزي يرتشف خمرته ويشعر بروحها تنفذ في جسمه المعطّل الذي يسكر بسرعة فيطلق فمه صفير ثعلب صحراوي مستحضراً رفرفة طائر الدج الغابي الإنكليزي الذي قال إنه يوجد في إسيكس فقط لأنه يزدهر إلى جوار الخزامى وديدان الخشب . كانت رغبة المريض الإنكليزي كلها في الدماغ كما فكّر اللّغام وهو جالسٌ في التجويف الحجريَ . فجأة أدار رأسه عارفاً كل شيء عندما سمع الصوت ، متأكداً منه . نظر إليهم وكذبَ لأول مرةٍ في حياته ـ « كل شيء على مايرام ، ليس لغماً . بدا أن هذا جاء من منطقة منظّفة » ـ واستعدَّ لينتظر حتى تصل إليه رائحة الكورديت .

الآن ، بعد ساعات ، يجلس كيب ثانية في تجويف النافذة . إذا كان بوسعه أن يقطع الياردات السبعَ عبر غرفة الإنكليزي ويلمسها سيكون عاقلاً . كان ضوء ضعيف في الغرفة ، فقط الشمعة الموضوعة على الطاولة حيث تجلس دون أن تقرأ الليلة ، ربما لأنها سكرى قليلاً كما اعتقد .

عادَ من مصدر انفجار اللغم ليجد « كارافاجيو » نائماً على صوفا المكتبة والكلب بين ذراعيه . راقبه الكلب حين توقف عند الباب المفتوح محركاً قليلاً من جسمه كما كان عليه أن يفعل ليشير أنه مستيقظ ويحرس المكان . كان

هريره يعلو فوق شخير « كارافاجيو » .

نزع بوطه ، ربط الرباطين معاً وعلّقه فوق كتفه حين صعد إلى الدور العلوي . كان المطر يتساقط واحتاج إلى قماش مشمّع لخيمته . ومن الصالة شاهد أن الضوء مايزال في غرفة المريض الإنكليزي .

كانت تجلس على الكرسي مستندة بمعصمها إلى الطاولة حيث نشرت الشمعة ضوءها ورأسها إلى الوراء . أخفض بوطه إلى الأرض ودخل إلى الغرفة بصمت حيث كانت الحفلة قائمة منذ ثلاث ساعات . استطاع أن يشمّ الكحول في الجو . وضعت أصابعها على شفتيها حين دخل ثم أشارتْ إلى المريض . لن يسمع خطوات « كيب » الصامتة . جلس اللغام في تجويف النافذة ثانية . لو يقدر أن يسير عبر الغرفة و يلمسها سيكون عاقلاً . ولكن تقع بينهما الرحلة الخائنة والمعقدة . كان عالماً واسعاً جداً . وكان الإنكليزي يستيقظ على أي صوت لأن المساعد السمعي يدار إلى مستواه الأخير حين ينام ، إذ يكون آمناً في وعيه الخاص . دارت عينا الفتاة حولها ثم هدأتا حين واجهت « كيب » في مستطيل النافذة .

كان عثر على موقع الموت ومابقيَ هناك ودفنوا زميله الأدنى رتبة منه الذي يدعى هاردي . وبعد ذلك بدأ يفكر بالفتاة بعد الظهر ، مرعوباً فجأةً عليها ، غاضباً منها لأنها ورطت نفسها . حاولت أن تؤذي حياتها عرضياً . حدّقتْ . اتصالها الأخير كان وضع إصبعها على شفتيها . انحنى ومسح جانب خده على الحبل الموضوع على كتفه .كان سارَ عائداً عبر القرية والمطر يتساقط على أشجار حَيّ البلدة المقطوعة الرؤوس التي لم تقلَّم منذ بداية الحرب عابراً التمثال الغريب لرجلين يتصافحان على ظهر الحصان . والآن هو هنا ، ضوء الشمعة يتأرجح مبدلاً نظرتها وهكذا لم يستطع أن يحزر بماذا فكرت . الحكمة أم الحزن أم الفضول .

لوكانت تقرأ أو تنحني فوق الإنكليزي لكان أحنى رأسه لها وعلى الأرجح غادرَ ، إلا أنه الآن يراقب « هنا » كامرأة شابة ووحيدة الليلة . حين كان يحدق

إلى مشهد اللّغم المنفجر بدأ يخاف حضورها أثناء عملية التعطيل بعد الظهر . كان عليه أن يزيله أو ستكون معه في كل وقت يقترب فيه من صمّامة . سيكون حاملاً بها . حين كان يعمل امتلأ بالوضوح والموسيقا وانطفأ العالم البشري . الآن هي في داخله أو على كتفه ، بالطريقة التي رأى فيها مرةً ضابطاً يحمل عنزةً ويخرجها من نفقٍ كانوا يحاولون طوفنته .

لا .

لم يكن ذلك صحيحاً . أراد كَتِفَ « هنا » ، أنْ يضعَ كفه فوقه كما فعل في ضوء الشمس حين نامت واستلقى هناك وكأنه في شاشة منظار بندقية أحدهم ، محرجاً معها . داخل منظر الرسام المتخيّل . لم يردْ راحةً بل أراد أن يحيط الفتاة بها ، أن يقودها من هذه الغرفة . رفض أن يؤمن بنقاط ضعفه ومعها لم يجد ضعفاً ليلائم نفسه ضده . لم يكن أي منهما راغباً في كشف امكانية كهذه للآخر . جلست « هنا » هادئةً . نظرت إليه وتأرجح ضوء الشمعة وبدّل نظرتها . لم يكن مدركاً أنه بالنسبة لها كان صورة ظليّة فقط وأن جلده جزء من الظلمة .

باكراً ، حين شاهدت أنه غادر تجويف النافذة ، غضبتْ ، عارفة أنه يحميهم كالأولاد من لغم . تعلّقت بشكل أقرب « بكارافاجيو » . كانتْ إهانة . والليلة لم يسمح لها الابتهاج المتنامي للأمسية أن تقرأ بعد أن ذهب « كارافاجيو » إلى الفراش متوقفاً عن التنقيب في صندوق دوائها أولاً ، وبعد أن اقتلع المريض الإنكليزي الهواء بإصبعه العظمية ، حين انحنتْ وقبّلت خدّه .

أطفأت الشمعات الأخرى ، أشعلت فقط الجزء الباقي من الشمعة الليلية على طاولة الفراش وجلستْ هناك ، جسد المريض الإنكليزي يواجهها في صَمْتٍ بعد وحشية أحاديثه السكرانة . « يوماً ما سأصبح حصاناً ، يوما ما كلباً ، خنزيراً ، دباً بلا رأس ، يوما ما سأصبح ناراً » . استطاعت أن تسمع سقوط الشمع الذائب على الصينية المعدنية قربها . كان اللّغام ذهب عبر البلدة إلى مكان ما في التلّ حيث حدث الانفجار وكان صمته غير الضروري

مايزال يغضبها .

لم تستطع أن تقرأ . جلستْ في الغرفة مع رجلها الذي يموت بشكل أبدي ، كان مستدق* ظهرها ما يزال يشعر بكدمةٍ نتيجة اصطدامٍ عرضي بالحائط حين رقصت مع « كارافاجيو » .

إذا تحرك نحوها الآن سوف تحدّق به إلى أن ينزعج وتعامله بصمتٍ مشابه . ليخمِّن ، ليقم بمبادرة . لقد اقترب منها الجنود من قبل .

ولكن ما يفعله هو هذا . إنه في منتصف الغرفة ، يده غائصة في الحقيبة التي ماتزال تتدلى من كتفه . مشيته صامتة . يستدير ويتوقّف قرب السرير ، وبينما يكمل المريض الإنكليزي إحدى زفراته يقص سلك مساعده السمعي بالمِقطَعة ويضعها في حقيبته . يستدير ويبتسم لها .

« سوف أوصل السلك صباحاً » .

يضع يده اليسرى على كتفها .

- « ديفد كارافاجيو - إنه اسمٌ سخيف لك ، بالطبع » .

- « على الأقل أملك اسماً » .

- « نعم » .

يجلس « كارافاجيو » على كرسي « هنا » ، تملأ شمس بعد الظهر الغرفة كاشفة الذرات السابحة . يمتلك وجه المريض الإنكليزي الأسود النحيل بأنفه النحيل مظهرَ صَقْرٍ هادئٍ مقمَّطٍ بالأغطية . يفكّر « كارافاجيو » إنه كفن صقر . يستدير الإنكليزي نحوه .

- « توجد لوحة رسمها « كارافاجيو » في أواخر حياته . « داود مع رأس جوليات . فيها يحمل المحارب الشاب في نهاية ذراعه الممدودة رأس

* الجزء الأصغر والأرفع .

جوليات ، مُثْلفاً وطاعناً في السن . إلا أن هذا ليس الحزن الحقيقي في اللوحة . يُعتقد أن وجه داود هو صورة لكارافاجيو الشاب ورأس جوليات هو صورته كرجل عجوز ، كما بدا حين رسم اللوحة . الشباب يحاكم العمر في نهاية ذراعه الممدودة . الحكم على الفناء الشخصي . أعتقد أنني حين أراه عند قدم سريري أظن أن كيب هذا هو داودي » .

يجلس « كارافاجيو » هناك صامتاً ، الأفكار ضائعة بين الذرات العائمة . أفقدته الحرب توازنه ولا يستطيع أن يعود إلى أي عالم كما هو مرتدياً هذه الأعضاء المزيّفة التي يعد بها المورفين . إنه رجل متوسط العمر لم يعتد أبداً على العائلات . تجنّب طوال حياته المودّة الدائمة . كان عاشقاً أفضل من كونه زوجاً إلى أن نشبت الحرب . كان رجلاً يهرب بعيداً بالطريقة التي يترك بها العشاق الفوضى ، بالطريقة التي يترك بها اللصوص البيوت المنهوبة .

يراقب الرجل الذي في السرير يريد أن يعرف من هو هذا الإنكليزي الذي جاء من الصحراء وأن يكشفه من أجل « هنا » . أو ربما يبتكر له جلداً ، بالطريقة التي يموّه بها حمض التنيك انسلاخ جلد رجل محروق .

حين اشتغل في القاهرة أثناء الأيام الأولى للحرب ، دُرِّب على اختراع عملاء مزدوجين أو أشباح تكتسي باللحم .

كان مسؤولاً عن عميل أسطوري يدعى « الجبنة » ، وأمضى أسابيع يكسوه بالحقائق ويمنحه صفات الشخصية ـ كالجشع والضعف أمام المشروب حين يبث شائعات مغلوطة للأعداء . عمل كالبعض تماماً في القاهرة لفصيلة كاملة مبتكرة في الصحراء . عاش في زمن الحرب عندما كان كلّ شيء يُقدّم للآخرين حوله كذبة . شعر كأنه مثل رجلٍ في ظلمة غرفةٍ يقلّد صيحات الطيور .

ولكن هنا كانوا يسلخون الجلود . لم يستطيعوا أن يقلّدوا شيئاً سوى ماهم عليه . لم يكن يوجد دفاع سوى البحث عن الحقيقة في الآخرين .

تسحب نسخةَ رواية «كيم» عن رف المكتبة وتبدأ ، واقفة قرب البيانو ، بالكتابة على الورقة الغفل في صفحاتها الأخيرة .

يقول المدفع ــ مدفع الزامزامة ـ مايزال هناك خارج المتحف في لاهور . كان يوجد مدفعان صُنِعا من الآنية والأكواب المعدنية التي أخذتْ من كل بيتٍ هندوسي في المدينة كجزيةٍ صُهِرَتْ هذه الآنية وحُوِلتْ إلى مدافع استخدمت في معارك عديدة في القرنين الثامن والتاسع عشر ضد السيخ . فُقِدَ المدفع الآخر أثناء معركة عبور في نهر شيناب

تغلق الكتاب ، تقف على كرسي وتضعه على الرف المرتفع اللامرئي .

تدخل إلى غرفة النوم المزدانة بالرسوم حاملة كتاباً جديداً وتقرأ العنوان .

ـ «أجَلي الكتب الآن يا «هنا» .

تنظر إليه . تظن أنه يمتلك ، حتى الآن ، عينين جميلتين . كل شيء يخطر هناك في تلك التحديقة الرمادية عبر ظلمته . يوجد حسٌ بتحديقات عديدة تشع عليها للحظة وتتبدّل كفنار .

ـ «لا أريد المزيد من الكتب . أعطني كتاب هيرودت فقط» .

تضع الكتاب السميك المتسخ بين يديه .

ـ«لقد شاهدت طبعاتٍ من كتاب التاريخ تحتوي صُورة منحوتةٍ على أغلفتها . صورة تمثال عثر عليه في متحف فرنسي . إلا أنني لا أتخيَّل أبداً هيرودت بهذه الطريقة . أراه أكثر كواحد من رجال الصحراء النادرين الذين يتنقلون من واحةٍ إلى واحة متاجرين بالأساطير وكأنهم يتبادلون البذار ، يستهلكون كل شيء دون ريبة ، جامعين قطع السراب .

يقول هيرودوت : «إن تاريخي هذا نشدَ منذ البدء إكمال كيف يخون البشر بعضهم من أجل الدول ، كيف يقع البشر في الغرام...

كم عمرك ؟

ـ « عشرون » .

ـ « كنت أكبر منك كثيراً حين أحببت » .

تتوقف « هنا » : « من هي ؟ » .

إلا أن عينيه تبتعدان عنها الآن .

قال « كارافاجيو » : « الطيور تفضّل الأشجار ذات الأغصان اليابسة إذ تمتلك فسحاتٍ كاملة تستطيع أن تحطَّ من خلالها . تستطيع أن تقلعَ في أية جهة » .

قالت « هنا » : إذا كنت تتحدث عني فأنا لست طائراً . إن الطائر الحقيقي هو الرجل الذي في الطابق العلوي » .

حاول « كيب » أن يتخيلها طائراً .

في اندفاعةٍ مورفينية عدائية أراد كارافاجيو أن يحاجج : « أخبريني هل من الممكن حب شخصٍ ليس ذكياً مثلك ؟ لقد عناني هذا الشيء طوال حياتي الجنسية التي بدأت متأخرة ، يجب أن أعلن لهذه الرفقة المختارة . بالطريقة نفسها عرفتُ المتعة الجنسية للحديث فقط بعد أن تزوجت . لم أفكر أبداً أن الكلمات إيروسية . أحياناً أحب أن أتحدث أكثر مما أحب أن أمارس الجنس . الجمل ، دلاء من هذا ، دلاء من ذاك ثم دلاء من هذا مرة ثانية . إن المشكلة مع الكلمات هي أنك تستطيع فعلاً أن تتحدّث مع نفسك في زاوية ، إلا أنك لا تستطيع مراودة نفسك في زاوية » .

غمغمت « هنا » : « هذا رجلٌ يتحدث » .

تابع « كارافاجيو » : « حسناً! لم أفعل ذلك ، ربما أنت فعلت يا كيب ، حين هبطت إلى « بومباي » من التلال ، حين جئت إلى انكلترة من أجل التدريب العسكري . هل قام أحد ما ، وراود نفسه في زاوية ؟ كم عمرك يا كيب ؟

ـ « ستة وعشرون » .

ـ « أكبر مني » .

ـ « أكبر من « هنا » . هل بوسعك أن تحبها إذا لم تكن أذكى منك ؟ أعني ، يمكن ألا تكون أذكى منك . لكن ، أليس مهماً بالنسبة لك أن تفكر أنها أذكى منك لكي تقع في غرامها ؟ فكّر الآن . يمكن أن تكون مهووسة بالإنكليزي لأنه يعرف أكثر . نحن في حقل ضخم حيث نستطيع أن نتحدث مع

ذلك الشخص . لا نعرف حتى إن كان انكليزياً . إنه على الأرجح ليس انكليزياً . أتفهمني ، أعتقد أنه من الأسهل أن تقع في غرامه من أن تقع في غرامك . لمَ هذا ؟ لأننا نريد أن نعرف الأشياء ، كيف تتلاءم القطع . المتحدثون يغوون ، الكلمات ترشدنا إلى الزوايا . نريد أكثر من أي شيء آخر أن ننمو ونتغيّر . عالمٌ جريء وطريف .

قالت « هنا » : لا أعتقد ذلك .

ـ « ولا أنا . دعيني أخبرك عن البشر الذين في عمري . إن الشيء الأسوأ هو أن يفترض الآخرون أنك طورت شخصيتك الآن . إن المشكلة مع العمر المتوسط هي أنهم يظنون أنك مصوغة بشكلٍ كامل . هنا .

هنا رفع « كارافاجيو » يديه بحيث واجهتا « هنا » و « كيب » . نهضتْ ووقفت خلفه ثم وضعتْ ذراعها حول عنقه .

ـ لاتفعل هذا يا ديفد ، اتفقنا ؟

وضعت يديها على يديه بنعومة .

ـ « يكفي أننا نملك متحدثاً مجنوناً في الدور العلوي » .

« انظري إلينا ـ نجلس كالأغنياء القذرين في فيلاتهم القذرة على التلال القذرة حين ترتفع حرارة المدينة . إنها التاسعة صباحاً ، العجوز في الدور الأعلى نائم . « هنا » مهووسة به . أنا مهووس بسلامة عقل « هنا » ، أنا مهووس بتوازني وعلى الأرجح سينفجر « كيب » في يوم من الأيام . لماذا ؟ من أجل من ؟ إنه في السادسة والعشرين . يعلّمه الجيش الإنكليزي المهارات ويعلمه الأميركيون مهارات إضافية وتُقدّم المحاضرات لفريق اللّغامين ، يزيّنون ويُرْسلون الى تلال الأغنياء . إنك تُستَغَلَ أيها الصبي ، كما يقول الويلزيون . لن أمكث هنا طويلاً . سآخذك إلى الوطن . اخرجي بحق الجحيم من مدينة الدودج » .

ـ « توقف يا ديفد . سينجو » .

ـ « ما اسم اللغّام الذي انفجر به اللغم في تلك الليلة ؟ » .

لايجاوب « كيب » .

ـ « ما اسمه ؟ »

ـ « سام هاردي » .

ذهب كيب إلى النافذة ونظر إلى الخارج تاركاً محادثتهما .

ـ « إن مشكلتنا جميعاً هي أننا في المكان الذي يجب ألا نكون فيه . ماذا نفعل في أفريقيا ، في إيطاليا ؟ لماذا يُنظّف « كيب » البساتين من الألغام ، بحق الله ؟ ماذا يفعل في خوضه معارك انكليزية ؟ إن مزارعاً على الجبهة الغربية لا يستطيع أن يقلّم شجرة دون أن يحطم منشاره . لماذا ؟ بسبب كمية الشظايا التي دخلت فيها أثناء الحرب الأخيرة . حتى الأشجار امتلأت بالأمراض التي أحضرناها . تلقنك الجيوش مبادئها وتتركك هنا ثم تذهب إلى مكان آخر لتسبب المشاكل إنكي دينكي* هل تتحدث ؟ . يجب أن نخرج جميعاً من هنا » .

ـ « لا تستطيع أن تترك الإنكليزي » .

ـ « لقد غادر الإنكليزي منذ شهور يا « هنا » ، إنه مع البدو أو في حديقةٍ انكليزية بقبسها** وخرائها . إنه على الأرجح لا يستطيع أن يذكر المرأة التي يدور حولها ، محاولاً أن يتحدث عنها . إنه لايعرف أين هو .

« تظنين أنني غاضب منك ، أليس كذلك ؟ لأنك وقعت في الغرام ، أليس كذلك ؟ عم غيور . أنا مرعوب عليك . أريد أن أقتل الإنكليزي لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي سينقذك ويخرجك من هنا . لقد بدأت أحبه . اهجري موقعك . كيف يستطيع « كيب » أن يحبك إذا لم تكوني ذكية بما يكفي لتجعليه يتوقف عن المجازفة بحياته ؟ » .

« لأنه ، لأنه يؤمن بعالم متحضر . إنه رجل متحضر .

الخطأ الأول . إن الحركة الصحيحة هي الصعود في قطار وتذهبان وتنجبان

* كلمات أغنية لا معنى لها .

** نبات .

أولاداً معاً . هل نذهب ونسأل الإنكليزي ، الطائر ، عن رأيه ؟

«لماذا لست أكثر ذكاءً ؟ إن الأغنياء هم فقط الذين لا يستطيعون أن يصبحوا أذكياء . لقد توصّلوا إلى تفاهمٍ . سُجنوا طوال أعوام في الامتياز . عليهم أن يحموا ممتلكاتهم .

لا أحدَ في العالم أحط من الأغنياء . ثقي بي . إلا أن عليهم أن يتبعوا قواعد عالمهم الخرائي المتحضّر . يعلنون الحرب ، يمتلكون الشرف ، ولايستطيعون أن يغادروا . ولكن أنتما الإثنان . نحن الثلاثة . نحن أحرار . كم عدد اللّغامين الذين ماتوا ؟ لماذا لم تمتْ بعد ؟ تخلّ عن مسؤوليتك ، إن الحظ ينفد .

كانت «هنا» تصبُّ الحليب في كوبها . حين انتهتْ حركت شفة الإبريق على يد كيب وتابعت سكب الحليب على يده السمراء وعلى ذراعه إلى معصمه ثم توقّفتْ . لم يبعد يده .

ثمت حديقة بمنبسطين طويلين ضيّقين إلى الغرب من المنزل ومصطبة ذات إسراف في الاعتناء بشكلها وفي الأعلى الحديقة المعتمة حيث تختفي تقريباً الدرجات الحجرية والتماثيل الإسمنتية تحت الفطر العفني الأخضر للأمطار . نصبَ اللّغام خيمته هنا . الأمطار تسقط والضباب يرتفع من الوادي والمطر الآخر يسقط من أغصان السرو والتنوب على هذا الجيب نصف المنظّف على جانب التلّ .

تستطيع النيران أن تجفف فقط الحديقة العليا المبلّلة والمظللة دائماً . أحضروا إلى هنا وأحرقوا أثناء دوران الأصيل نحو الغسق نفاية الألواح الخشبية والرافدات التي سقطت من القصف السابق والأعشاب التي اقتلعتها « هنا » في أوقات بعد الظهر والعشب المحصود والقُرّاص . تصدرُ النيران الرطبة بخاراً وتشتعل والدخان الذي يفوح برائحة النبات يصعد جانبياً إلى الأجمات وأعالي الأشجار ثم يذوي أمام المنزل فوق المصطبة . يصل إلى نافذة المريض الإنكليزي الذي يستطيع أن يسمع تنقّل الأصوات وبين فينة وأخرى ضحكةً من الحديقة المدخنة . يترجم الرائحة معيداً إياها إلى ماتم حرقه . يعتقد أنه حصى البان ، الصقلاّب ، الأفسنتين ، يوجد شيء آخر هناك أيضاً بلا عطر ، ربما هو البنفسج النابيَ أو عباد الشمس المزيّف الذي يحب تربة التل هذه القليلة الأحماض .

يشير المريض الإنكليزي على « هنا » ماذا تزرع . « اجعلي صديقك الإيطالي يعثر لك على بذار ، يبدو أنه قادر في هذا المجال . ماتحتاجينه هو أوراق الخوخ أيضاً القرنفل الناري والقرنفل الهندي ـ إذا أردت الإسم اللاتيني لصديقك اللاتيني فهو سيلين فيرجينيكا . الصعتر البرّي جيد . إذا كنت تريدين العصافير أحضري البندق وثمار التشوكشيري * .

تسجّل كل شيء ثم تضع قلم الحبر في درج الطاولة الصغيرة حيث تضع الكتاب الذي تقرأه له مع شمعتين وعلبة ثقاب من نوع « فيستا » . لا أدوية

* شجيرة أميركية شمالية تنتمي إلى فصيلة الورد ومثمرة .

في هذه الغرفة . إنها تخبئها في غرف أخرى . إذا كان « كارافاجيو » سيصطاد هذه المواد ، فهي لاتريده أن يزعج الإنكليزي . تضع قطعة الورق التي تحتوي أسماء النباتات في جيب ثوبها لتعطيها « لكارافاجيو » .

والآن بعد أن رفعتْ الجاذبية الجسدية رأسها ، بدأت تشعر بالحرج في رفقة الرجال الثلاثة .

إذا كان هذا جاذبية جسدية . إذا كان كل هذا متعلقاً بحب « كيب » . تحب أن تسند رأسها على أعلى ذراعه ، ذلك النهر المعتم الأسمر ، وأن تستيقظ منغمسة فيه ، إزاء نبض شريانٍ غير مرئي في لحمه إلى جانبها . الشريان الذي يجب عليها أن تحدد مكانه وتحقنه بمحلول السالين إذا كان يحتضر .

في الثانية أو الثالثة صباحاً ، بعد أن تترك الإنكليزي ، تسير عبر الحديقة نحو فانوس اللّغام الذي يتدلى على ذراع القديس كريستوفر . ظلمة مطلقة بينها وبين الضوء ، إلا أنها تعرف كل شجيرة وأجمة في طريقها وموقع النار التي تعبرها وهي منخفضة ووردية في نهايتها الوشيكة . أحيانا تطوّق القمع الزجاجي بيدها وتنفخ لتطفئ لسان اللهب وأحياناً تتركه يشتعل وتنحني تحته وتدخل عبر الستائر المفتوحة لتزحف على جسمه ، على الذراعين اللذين تريدهما ، بلسانها بدل الممسحة ، بسنّها بدل الإبرة ، بفمها بدل القناع مع قطرات المخدر لجعله ينام ، لتجعل دماغه المتكتك الخالد يدخل إلى النوم . تطوي ثوبها الصوفي وتضعه فوق حذاء التينس . تعرف أن العالم بالنسبة له يحترق حولهما فقط ببضع قواعد حاسمة . تستبدل الـ ت .ن .ت . بالبخار ، تجفّفه ، تعرف أن كل هذا في رأسه حين تنام قربه فاضلة كأخت .

تحيطُ بهما الخيمة والخشب الأسود .

تجاوزا خطوةً واحدةً فقط الراحة التي قدمتها للآخرين في المستشفيات المؤقتة في « أورتونا » أو « مونتيرشي » جسدها من أجل الدفء الأخير ،

همستها لتقديم الراحة ، إبرتها من أجل النوم . إلا أن جسد اللّغام لا يسمح لأي شيء يأتي من عالم آخر بالدخول إليه . ولدٌ عاشقٌ لن يأكل الطعام الذي تجمعه ، الذي لا يحتاج أو يريد المخدر في إبرةٍ تستطيع أن تدخله في ذراعه ، كما يفعل « كارافاجيو » ، أو تلك المراهم الصحراوية الصنع التي يتوق إليها الإنكليزي ، المراهم والبولين ليعيد تجميع نفسه كما فعل له ذلك البدو من قبل . من أجل راحة النوم فقط .

ثمت زخارف يضعها حول نفسه ، أوراق معيّنة قَدّمتها له ، عقب شمعةٍ ، وفي خيمته ، المستقبلة البلورية والحقيبة الكتفية مليئتان بأشياء الإنضباط . يتابع دقّته ملاحقاً الصقر في طيرانه فوق الوادي بمنظار بندقيته ، يفتح قنبلة ولا يشيح بعينيه أبداً عما يبحث عنه حين يسحب ترمساً نحوه ويفتح السدادة ويشرب ولاينظر أبداً إلى الكوب المعدني .

تظن أن « بقيّتنا » محيطٌ فقط بالنسبة له ، عيناه فقط على ماهو خطير وأذنه تصغي لما يحدث في هلسنكي أو برلين ويجيء عبر الموجة القصيرة حتى حين يكون عاشقاً رقيقاً ويدها اليسرى تمسكه فوق الكارا حيث عضلات ساعده متوترة ، تشعر بأنها غير مرئية لتلك النظرة الضائعة إلى أن يتأوه ويسقط رأسه على عنقها . كل شيء آخر ، ماعدا الخطر ، هو محيط . علمته أن يصدر ضجة ورغبت في ذلك منه ، وإذا كان قد استرخى منذ أن بدأ القتال ، حدث هذا فقط في هذه العملية وكأنه في النهاية يرغب في أن يعترف بمكان وجوده في الظلام ، ليشير إلى متعته بصوتٍ بشري .

لا نعرف كم تحبه وكم يحبها ، أو إذا كانت المسألة لعبة أسرار . كلما زادت مودتهما ازدادت المسافة بينهما أثناء النهار . تحبُّ المسافة التي يتركها لها ، الفضاء الذي يفترض أنه حقهما . يمنح هذا لكل منهما طاقةً خاصّة ، شيفرة هوائية بينهما حين يمرّ تحت نافذتها دون كلمة ، ويقطع نصف ميلٍ ليجتمع مع اللّغامين الآخرين في البلدة . يضع بين يديها صحناً أو بعض الطعام . تضع ورقةً على رسغه الأسمر ، أو يعملان و« كارافاجيو » بينهما في

تثبيت حائط مهدّم . يغني اللغام أغانيه الغربية التي يتمتع بها « كارافاجيو » إلا أنه لا يتظاهر بذلك .

يشهق الجندي الشاب : بنسلفانيا السادسة وخمس دقائق... آه! آه!

تتعلم جميع تنوعات ظلمته . لون ساعده إزاء لون عنقه . لون راحة كفيه ، خده ، الجلد تحت العمامة . ظلمة الأصابع التي تفصل السلك الأحمر عن الأسود ، أو على الخبز الذي يلتقطه من الصحن المصنوع من معدن المدفع الذي مايزال يستخدمه للطعام . بدتْ كفايته الذاتية وقحة لهم ، رغم أنه بدون شك يشعر بأنها احترام مفرط .

تحب معظم الألوان المبللة لعنقه حين يستحم ، وصدره المتعرّق الذي تمسكه أصابعها حين يكون فوقها والذراعين الأسمرين القويين في ظلمة خيمته أو مرة في غرفتها حين أشرق الضوء الذي جاء من مدينة الوادي التي تحررت أخيراً من حَظر التجول ومرّ بينهما كالبرق مضيئاً لون جسده .

ستدرك فيما بعد أنه لم يسمح لنفسه أبداً أن يكون مديناً بالفضل لها أو أن تكون هي مدينة له . ستحدق بالكلمة في رواية ، تأخذها من الكتاب وتحملها إلى القاموس . مديناً بالفضل . أن تكون ملزماً . وهي تعرف أنه لم يسمح بهذا أبداً . إذا عبرتْ المئتي ياردة عبر الحديقة المظلمة إليه سيكون هذا خيارها ويمكن أن تجده نائماً ، ليس من قلّة الحب ، بل للضرورة ليكون صاحيَ الذهن إزاء أشياء اليوم التالي الخائنة .

يعتقد أنها رائعة . يستيقظ ويراها في ضوء المصباح . أكثر مايحبه فيها هو نظرة وجهها الذكية . أو في المساءات يحب صوتها وهي تجادل « كارافاجيو » بسبب حماقةٍ . يحب الطريقة التي تزحف بها على جسده كقديسة .

يتحدثان ، النغم الرتيب الضئيل لصوته في الرائحة القماشية لخيمتها التي كانت ملكه طوال الحملة الإيطالية التي يلمسها بأصابعه النحيلة وكأنها ملك جسمه ، جناح خاكي يطويه فوق نفسه أثناء الليل . إنها عالمه . تشعر أنها مشرّدة من كندا أثناء تلك الليالي ، يسألها لماذا لا تستطيع أن تنام . تستلقي هناك منزعجة من اكتفائه الذاتي ، ومن قدرته على الابتعاد بسهولة عن العالم . تريد سقفاً صفيحياً يقي من المطر ، شجرتي حور ترتجفان خارج نافذتها ، ضجة تستطيع أن تنام إزاءها ، أشجاراً نائمة وسقوفاً غافيةً كبرتْ معها في الطرف الشرقي « لتورنتو » ثم لمدة عامين مع « باتريك » و « كلارا » على طول نهر « سكوتامانا » وفيما بعد خليج جيورجيان . لم تعثر على شجرةٍ نائمة ، حتى في كثافة هذه الحديقة .

ـ « قبّلني . أنا مغرمة أكثر بفمك وأسنانك » .

وفيما بعد ، حين سقط رأسه إلى أحد الجوانب ، نحو الهواء القادم من فتحة الخيمة همستْ بصوتٍ مرتفع مسموع لها فقط : « ربما يجب أن نسأل « كارافاجيو » . أخبرني أبي مرةً أن « كارافاجيو » رجلٌ محبٌّ دائماً . ليس محباً فحسب بل دائماً يغوص في الحب . دائماً مشوّش . دائماً سعيد .

كيب ؟ هل تسمعني ؟ أنا سعيدة جداً معك . أن أكون معك هكذا » .

كان أكثر ما تمنته هو نهرٌ يستطيعان أن يسبحا فيه . توجد رسميةٌ في السباحة افترضت أنها مثل الوجود في قاعة رقص . إلا أنه كان يمتلك حساً مختلفاً بالأنهار ، دخل نَهْر المورو بصَمْتٍ وسحبَ عدة الحبال المربوطة إلى جسر بيلي الذي يُطوى وقضبانه المعدنية الملولبة تنزلق خلفه في الماء كمخلوق وعندئذ أضيئت السماء بنيران القذائف وكان أحدٌ ما يغوص إلى جانبه في وسط النهر . مرةً بعد أخرى غاص اللغّامون بحثاً عن البكرات الضائعة ممسكين علاّقات في الماء بينهم . وحل وسطح ووجوه مضاءة بمشاعل فوسفورية في السماء حولهم .

طوال الليل وهم يبكون ويصيحون ، كان عليهم أن يوقفوا بعضهم عن الجنون ، ملابسهم مليئة بنهر الشتاء والجسر امتدَّ ببطء طريقاً فوق رؤوسهم . وبعد يومين نهرٌ آخر . كان كل نهر يجيئون إليه بلا جسر وكأن اسمه مُحيَ وكأن السماء كانت بلا نجوم والمنازل بلا أبواب . وانزلقت وحدات اللّغامين بالحبال ، حملوا الكابلات على أكتافهم وثبّتوا الرتاجات وزيّتوها ليصمتوا المعدن ثم تقدم الجيش . انطلق فوق الجسر الذي بُني ومايزال اللّغامون في الماء .

وغالباً ما كانوا يُحتبسون في منتصف التيار حين تجيء القذائف مشتعلة على وحل الضفاف محولة الفولاذ والحديد إلى أحجار . لاشيء سيحميهم عندئذٍ ، النهر الأسمر رقيق كالحرير إزاء المعادن التي كانت تشقه .

استيقظ من ذلك . كان يعرف خدعة النوم السريع ضد هذه التي كانت لها أنهارها وضاعت عنها .

نعم « كارافاجيو » سيشرح لها كيف تغوص في الحب ، حتى كيف تغوص في حبّ حذر . قالت : « أريد أن آخذك إلى نهر « سكوتاماتا » يا كيب . أريد أن أريك بحيرة الدخان . المرأة التي أحبّها والدي تعيش قرب البحيرات ،

تنزلق في القوارب بشكل أسهل من صعودها إلى السيارات . أفتقد الرَعْدَ الذي يجعل الكهرباء تطرفُ ، أريدك أن تقابل كلارا القوارب ، آخر شخص في عائلتي . لايوجد آخرون الآن . هجرها أبي من أجل الحرب» .

تمشي نحو خيمته الليلية دون خطوة مزيفة أو أي تردّد . تصنع الأشجار منخلاً قمرياً ، كأنها حبيسة داخل ضوء مصباح قاعة رقص . تدخل خيمته وتضع أذناً على صدره النائم وتصغي إلى نبضات قلبه بالطريقة التي يُصغي بها إلى ساعة لغمٍ . الثانية بعد منتصف الليل . الجميع نائمون إلاّ هيَ .

IV

جنوب القاهرة (١٩٣٠ ـ ١٩٣٨)



بعد هيرودت ، قلَّ اهتمام العالم الغربي بالصحراء طوال مئات الأعوام . غضٌّ للبصر من ٤٢٥ قبل الميلاد إلى بداية القرن العشرين . صمتٌ . كان القرن التاسع عشر عصر الباحثين عن الأنهار . ثم في العشرينات (١٩٢٠) عُثر على حاشية تاريخية عذبة حول هذا الجيب الأرضي أعدّتها بعثات تمويلها خاص تبعتها محاضرات متواضعة أُلقيتْ في الجمعية الجغرافية في لندن في « كينسينغتون كور » . ألقى هذه المحاضرات رجال منهكون أحرقتهم الشمس ، مثل بحارة كونراد لايريحهم اتيكيت التاكسيات والبديهة السريعة العديمة النكهة لجامعي التذاكر في الباصات .

حين يسافرون بالقطارات المحلية من الضواحي إلى جسر الفرسان في طريقهم إلى اجتماعات الجمعية غالباً ما يضيعون ويفقدون بطاقاتهم ويتمسّكون بخرائطهم القديمة ويحملون أوراق محاضراتهم فقط ـ التي تكتب ببطء وألم ـ في حقائب ظهورهم الحاضرة دائماً والتي ستكون دائماً جزءاً من أجسادهم . هؤلاء الرجال من جميع البلدان يسافرون في ساعة مبكرة من المساء ، في السادسة ، حين يشرقُ ضوء المنعزلين . إنه وقت غُفْلٌ يعودُ فيه معظم سكان المدينة إلى بيوتهم . يصل المستكشفون باكراً جداً إلى « كينسينغتون كور » يأكلون في «ليونز كورنر هاوز» ثم يدخلون إلى مبنى الجمعية الجغرافية حيث يجلسون في صالة الدور العلوي قرب قارب

« موري » الضخم ويراجعون بدقةٍ أوراقهم . يبدأ القاء المحاضرات في الثامنة .

تُقدَّم محاضرة كل أسبوع . شخص ما يقدّم المحاضرة وشخص آخر يقدم الشكر . أما المتحدث الأخير فيناقش أو يختبر المحاضرة من أجل العملة الصعبة قائلاً إنها مهمة إلا أنها غير وثيقة الصلة بموضوع البحث على الاطلاق . ويفترض الجميع أن المتحدثين الرئيسيين يبقون قريبين من الحقائق وحتى الافتراضات الهوسية تُقَدَّم بتواضع .

« إن رحلتي عبر الصحراء الليبية من « سوكم » في المتوسط إلى « العُبَيد » في السودان تمت في أحد المسارات القليلة لسطح الأرض والتي تقدّم عدداً متنوعاً من المشاكل الجغرافية الممتعة .

لا تُذْكر أبداً أعوام التحضير والبحث وتأمين التمويل في هذه الغرفة المكسوة بخشب البلوط . وسجّل محاضر الأسبوع الماضي فقدان ثلاثين شخصاً في الجليد في أنتاركتيكا »* وأعلن عن حالات ضياع مشابهة في الحرارة الشديدة أو العواصف الريحية في تأبين أدنى . إن السلوك البشري والمالي كله يكمن في الجانب البعيد من المسألة التي نوقشتْ ـ والتي هي سطح الأرض ومشاكله الجغرافية المهمة .

أيمكن أن تُعتَبر منخفضات أخرى في هذا الإقليم بالإضافة إلى وادي رايان الذي نوقش كثيراً ، نافعةً في ما يتعلق بري أو تصريف دلتا النيل ؟ هل يتناقص تدريجياً احتياطي الواحات من المياه الارتوازية ؟ أين يجب أن نبحث عن « زيرزورا » الغامضة ؟ أتوجد واحاتٌ أخرى مفقودة تحتاج إلى الاكتشاف ؟ أين مستنقعات سلاحف بطليموس ؟

سأل « جون بل » مدير المسح الصحراوي في مصر ، هذه الأسئلة في ١٩٢٧ . في الثلاثينات أصبحت الأوراق أكثر تواضعاً : « أحبُ أن أضيف بعض

* قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبي .

الملاحظات حول بعض النقاط التي أثيرت في النقاش الممتع حول الجغرافية الماقبل تاريخية لواحة الخارجة» . وفي منتصف الثلاثينات عثر على واحة «زيرزورا» المفقودة لاديزلوس دي ألمازي ورفاقه .

في عام ١٩٣٩ انتهى العقد العظيم لبعثات الصحراء الليبية وأصبح جيب الأرض الصامت والشاسع أحد مسارح الحرب .

في الغرفة المزدانة برسوم العرائش يطلُّ المريض المحروق على مسافات كبيرة ، مثل ما رفعَ ذلك الفارس الميت في « راڤينا » الذي يبدو جسمه الرخامي حياً ومائعاً تقريباً ، رأسه على مخدة حجرية بحيث استطاع أن يحدق وراء قدميه إلى الأفق . أبعدَ من مطر أفريقيا المُشْتهى ، نحو حياتهم جميعاً في القاهرة . أعمالهم وأيامهم .

كنا بدأنا في ١٩٣٠ رَسْمَ خريطة الجزء الأكبر لنجد « كيلف كيبر » باحثين عن الواحة الضائعة التي دعيت « زيرزورا » . مدينة الأقاقيا* .

كنا أوروبيين مولعين بالصحراء . شاهد « جون بل » واحة « كيلف كيبر » في ١٩١٧ . ثم كمال الدين . ثم « باغنولد » ، الذي عثر على طريقه جنوباً إلى بحر الرمل . مادوكس ، والبول من فريق المسح الصحراوي ، صاحب السموّ وصفي بيك ، المصوّر « كاسباريوس » عالم الجيولوجيا الدكتور « كادار » وبيرمان . و كيلف كيبر ـ النجد الكبير الذي يقع في الصحراء الليبية ، يبلغ حجمه مساحة سويسرا ، كما أحب مادوكس أن يقول ـ كانت قلبنا ، جروفها شديدة التحدّر إلى الشرق والغرب ، وينحدر النجد تدريجياً إلى الشمال . نهض من الصحراء على بعد أربعمائة ميل من نهر النيل .

للمصريين الأوائل لم يكن يوجد على مايبدو ماء إلى الغرب من بلدات الواحة . العالم ينتهي هناك . الداخل كان بلا ماء . ولكن دائماً يحيطك تاريخ ضائع في فراغ الصحارى . طافتْ قبائل التيبو والسنوسي هناك مالكةً الآبار التي كانتْ تُحْرس بسرية كبيرة . راجتْ شائعات عن أرضٍ خصبة تعشّعش داخل الصحراء . تحدّث الكتاب العرب في القرن الثالث عشر عن « زيرزورا » . « واحة العصافير الصغيرة » . « مدينة الأقاقيا » . صُوِّرت « زيرزورا » في كتاب الكنوز كمدينةٍ بيضاء ، « بيضاء كحمامة » .

انظر إلى خريطةٍ للصحراء الليبية وسترى أسماءً . قام بالبعثة الأولى

* السنط . نبات صحراوي .

الحديثة العظيمة في ١٩٢٥ كمال الدين الذي كان يرتحل وحده تقريباً . باغنولد ١٩٣٠-١٩٣٢ . ألمازي ـ مادوكس ١٩٣١-١٩٣٧ . تماماً إلى الشمال من مدار السرطان .

كنا دولة صغيرة بين الحروب ، نرسم الخرائط ونعيد الإستكشاف . اجتمعنا في « الداخلة » و « الكفرة » وكأنهما كانتا بارين أو مقهيين . كنا مجتمع واحة كما دعاه باغنولد . عرفنا دواخل كل منا ، مهارات كل منا ونقاط ضعفه . غفرنا « لباغنولد » كل شيء بسبب الطريقة التي كتب فيها عن الكثبان الرملية . « الرمل المثلّم والمتغضّن الذي يشبه سقف حلق كلب » . كان هذا « باغنولد » الحقيقيّ ، الرجل الذي سيضع يده المتفحّصة في فك كلب .

١٩٣٠ . انطلقت رحلتنا الأولى ، تحركنا جنوباً من « جغبوب » إلى الصحراء في الأرض الحرام لقبائل الزوايا والمجابرة . رحلة سبعة أيام إلى « التاج » . مادوكس وبيرمان وأربعة آخرون . بعض الجمال ، كلب وحصان . حين غادرنا رووا لنا النكتة القديمة : « إن بدءَ رحلة في عاصفة رملية يجلب الحظ الجيد » .

خيّمنا في الليلة الأولى على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب . استيقظنا في الصباح التالي وخرجنا من خيامنا في الخامسة . كان الجوّ بارداً جداً يمنع النوم . خطونا نحو النيران وجلسنا في ضوئها في الظلمة الأشمل . كانت فوقنا النجوم الأخيرة . لن تشرق الشمس إلا بعد ساعتين . مرّرنا لبعضنا كؤوس شاي ساخنة . عُلِفَتْ الجمال وكانت تمضغُ ، نصف نائمة ، التمر بنواته . تناولنا فطورنا وشربنا ثلاث كؤوس شاي إضافية .

بعد ساعات هبّت علينا عاصفة رملية من صفاء الصباح قادمةً من لا مكان . النسيم الذي كان عذباً قويَ تدريجياً . نظرنا إلى الأسفل أخيراً فرأينا أن سطح الصحراء تبدّل . أعطني الكتاب... هنا . هذه قصة « حسنين بيك » الرائعة عن عواصف كهذه .

«وكأن السطح مبطن بأنابيب بخارية فيها آلاف الثقوب تخرج منها دفقات من البخار . يقفز الرمل في انبجاسات قليلة ويلتف . إنشاً بعد إنش يرتفع الإزعاج والريح تزيد قوّته . يبدو وكأن سطح الصحراء كلّه ينهض مطيعاً قوةً تندفع من الأسفل . حصوات أكبر تضرب قصبات الأرجل والركب والأفخاذ . تتسلّق حبيبات الرمل الجسد حتى تضرب الوجه وتصعد إلى الرأس . تنسحب السماء . يغيب كل شيء عن البصر ماعدا الأشياء الأكثر قرباً ، يمتلئ العالم» .

توجّب علينا أن نتابع الحركة . إذا توقّفتَ يتكوّم الرمل على أي شيءٍ ثابت ويسجنك فتضيع إلى الأبد . يمكن أن تستمر العاصفة الرملية خمس ساعاتٍ . حتى حين كنا في شاحنات في أعوام تالية كان علينا أن نتابع القيادة دون رؤية . الأحوال الأسوأ تأتي في الليل . مرة ، شمال «الكفرة» هَبّتْ علينا عاصفة في الظلام ، في الثالثة صباحاً . كنستْ العاصفة الخيامَ من أمراسها وتدحرجنا معها ممتلئين بالرمل كقارب غائص يمتلئ بالماء ، وازداد علينا الثقل واختنقنا إلى أن حرّرنا سائق جمل .

تنقّلنا عبر ثلاث عواصف في تسعة أيام . ضيّعنا البلدات الصحراوية الصغيرة حيث توقّعنا أن نعثر على مزيدٍ من المؤن . تلاشى الحصان وماتتْ ثلاثة جمال ولم يكن من طعام في اليومين الأخيرين ، سوى الشاي . كان الاتصال الأخير مع أي عالم أخر هو صلصلة وعاء الشاي الذي سوّدته النار والملعقة الطويلة والكأس التي جاءت نَحْونا في ظلمة الصباحات . توقفّنا عن الكلام بعد الليلة الثالثة . كلّ ماهمّنا هو النار والحد الأدنى من السائل البنيّ .

أدخلنا الحَظّ إلى بلدة «التاج» الصحراوية . سرتُ عبر السوق ، زقاق الساعات التي تدق ، إلى شارع مقاييس الضغط الجوي ، عابراً أكشاك ذخائر البنادق . أكشاك عصير البندورة الإيطالي وطعام آخر معلب من بنغازي وقماش قطني من مصر وزخارف من ذيول النعام ، أطباء أسنان الشارع ، تجار

الكتب . كنا مانزال صامتين ، كل واحد منا يتشتّت على طول ممراتنا . تلقّينا هذا العالم الجديد ببطءٍ كأننا ناجون من الغرق . جلسنا في الحي الرئيسي « للتاج » وأكلنا لحم الخروف والأرز والكعك البدوي وشربنا الحليب مع لبّ اللوز المطحون . كل هذا بعد الانتظار الطويل لكؤوس الشاي الاحتفالية المنكّهة بالكهرمان والعنبر والنعناع .

في وقتٍ ما في ١٩٣١ انضممت إلى قافلةٍ بدويّة قيل لي إن واحداً منّا فيها . تبيّن أنه « فينيلون بارنز » . ذهبتُ إلى خيمته . كان خارجاً في ذلك اليوم في بعثة قصيرةٍ لتصنيف الأشجار المستحاثية . نظرت في خيمته إلى حزمة الخرائط وصور عائلته التي يحملها دائماً ، الخ . وبينما كنت مغادراً رأيت مرآة معلقة عالياً على حائطٍ من الجلد وحين نظرت فيها رأيت انعكاس السرير . بدا كتلة صغيرة ، ربما هي كلب ، تحت الأغطية . سحبت الجلابيّة فرأيت فتاة عربية مقيّدة تنام هناك .

بحلول ١٩٣٢ ، انتهى « باغنولد » و مادوكس وكان بقيتنا في كل مكان نبحث عن جيش « كامبيسيس » الضائع ، نبحث عن « زيرزورا » . ١٩٣٢ و ١٩٣٣ و ١٩٣٤ . لم نر بعضنا لشهور . فقط البدو ونحن ، نجتاز جينة وذهاباً درب الأربعين يوماً . كانت أنهار من القبائل الصحراوية ، أجمل بشرٍ رأيتهم في حياتي . كنا ألماناً وانكليزاً وهنغاراً وأفارقة ـ جميعنا غير مهمين لهم . بالتدريج أصبحنا بلا أمة . بدأت أكره الأمم . شوّهَتْنا الدول القومية... مات مادوكس بسبب الأمم .

لايمكن أن تُضَمَّ الصحراء أو تُمْلَك ـ كانت قطعة قماشٍ تحملها الريح . لايمكن أن تثبتها الأحجار أبداً ومُنِحَتْ مائة اسم متبدّلٍ قبل وقت طويل من وجود « كانتر بري » ، قبل وقت طويل من الحروب والاتفاقيات التي خاطت أوروبا والشرق . قوافلها ، تلك الثقافات والأعياد الغريبة المتنقّلة ، لاتترك

شيئاً خلفها ولو جمرةً . كانت مكاناً للوفاء والإخلاص . اختفينا في المنظر . نارٌ و رَمْلٌ . تركنا مرافئ الواحة ، الأمكنة التي جاءَ إليها الماء ولمسها... عين ، بير ، وادي ، فوارة ، قطارة ، شادوف . لم أحبب إسمي إزاء أسماء جميلة كهذه . امحُ اسم العائلة! امحُ الأمم! لقد علّمتني الصحراء أشياء كهذه .

مع ذلك ، أراد البعض علامتهم هناك ، في ذلك المجرى المائي الجاف ، في هذه الهضبة المتداخلة . تفاهات ضئيلة في بقعة الأرض هذه في الشمال الغربي من السودان ، الى الجنوب من برقة » . أراد فينيلون بارنز أن تحمل الأشجار المستحاثية التي اكتشفها اسمه وأمضى عاماً في المفاوضات . بعدئذ بزّه « بوتشان » بعد أن سمّى نمطاً من الكثبان الرملية باسمه . لكنني أردتُ أن أمحو اسمي والمكان الذي جئت منه . في الوقت الذي جاءت فيه الحرب ، بعد عشرة أعوام في الصحراء ، كان سهلاً بالنسبة لي أن أنزلق عبر الحدود ، أن لا أنتمي لأي كان ، لأية أمّة .

١٩٣٣ أو ١٩٣٤ . نسيتُ ذلك العام . مادوكس ، كاسباريوس ، بيرمان ، أنا ، سائقان سودانيان وطباخ . كنا في ذلك الوقت نسافر في سيارات فورد مُصَنْدَقة ونستخدم للمرة الأولى إطارات بالونية ضخمة تدعى العجلات الهوائية . كانت تسير بشكل أفضل على الرمل ، إلا أن الرهان هو فيما إذا كانت ستتحمل الحقول الحجريّة وشظايا الصخور .

نغادر « الخارجة » في ٢٢ آذار . نَظَرْت أنا وبيرمان أن ثلاثة أودية كتب عنها ويليامسون في ١٨٣٨ تصنع « ريرزورا » .

إلى الجنوب الغربي من « كيلف كيبر » ثلاث كتل غرانيتية تصعد من السهل ـ جبل أركانو وجبل عوينات وجبل كيسو . يبعد كل منها خمسة عشر ميلاً عن الآخر . المياه الصالحة في عددٍ من الوهاد ، رغم أن الآبار في جبل أركانو مرّة ، غير صالحة للشرب إلا في حالة الطوارئ . قال ويلياMسون إن ثلاثة أودية شكّلت « زيرزورا » إلا أنه لم يحدد أمكنتها أبداً وهذا يُعتبر

خرافة . مع ذلك ، حتى واحة واحدة ممطرة في هذه التلال التي تشبه فوهات البراكين ستحلّ لغزَ كيف استطاع « كامبيسس » وجيشه أن يحاولوا عبور صحراء كهذه ، الغارات السنوسية أثناء الحرب العظمى ، حين عبر الغزاة السود العمالقة صحراءً كان من المفترض أنها تخلو من المرعى والماء . هذا عالمٌ حُضِّرَ طوال قرون ، امتلك ألف ممرّ وطريق .

عثرنا على جرارٍ في أبو بالاس على شكل القارورة اليونانية الضيقة الكلاسيكية . هيرودت يتحدّث عن جرار كهذه .

أتحدث أنا وبيرمان مع عجوز غامض يشبه الأفعى في حصن « الجوف » - في الصالة الحجرية التي كانتْ مرةً مكتبة الشيخ السنوسي العظيم . عجوز من قبيلة تيبو ، دلاّل قوافل بالمهنة يتحدث عربية ملكونة . فيما بعد يقول « بيرمان » مقتبساً هيرودت : « مثل صراخ الخفافيش » . تحدثنا معه طوال النهار والليل . لم يبح لنا بشيء . العقيدة السنوسية ، المبدأ الأول ، هو أن لا يكشفوا أسرار الصحراء للغرباء .

في وادي « المليك » رأينا طيوراً من أنواع مجهولة .

في ٥ أيار أتسلق جرفاً حجرياً وأقترب من نجد عوينات من جهة جديدة . أجد نفسي في وادٍ متسعٍ مليء بأشجار الأقاقيا .

مرّ وقتٌ سمّى فيه راسمو الخرئط الأماكن التي تنقّلوا فيها بأسماء عشيقات غير أسماء عشيقاتهم . شوهِدتْ امرأة تستحمّ في قافلةٍ صحراوية رافعة قطعة نسيجٍ قطني بأحد ذراعيها أمامها . إنها عشيقة شاعر عربي قديم جعله بياض كتفيها يسمي واحة باسمها . الدلو الجلدي يسكبُ الماءَ عليها ، تلف نفسها بقطعة القماش ويتركها الشاعر القديم ليصف « زيرزورا » .

وهكذا يستطيع الإنسان في الصحراء أن ينزلق في اسم كما يدخل بئراً مكتشفة وتغريه برودتها المظلّلة بأن لايغادر مكاناً كهذا أبداً . كانت رغبتي

العظيمة هي أن أبقى هناك بين أشجار الأقاقيا تلك . لم أكن أمشي في مكانٍ لم يدخله أحد من قبل ، بل في مكان كان يوجد فيه سكان مفاجئون لفترة قصيرة عبر القرون ـ جيش من القرن الرابع عشر ، قافلة لقبيلة التيبو ، المغيرون السنوسيون في ١٩١٥ . وفي الفترات التي تتخلّل هذه الأوقات ـ لايكون هناك أي شيء . حين لا تسقط أمطار ، تذوي الأقاقيا وتجفّ الأودية... إلى أن يعيد الماء ظهوره فجأة بعد خمسين أو مائة عام . ظهورات واختفاءات متقطّعة ، كالأساطير والشائعات عبر التاريخ .

في الصحراء تُحْمل المياه التي تُحبُّ أكثر من أي شيء كإسم العاشقة ، زرقاء بين يديك وتدخل حنجرتك . يَبْلعُ المرءُ الغيابَ .

ترفع امرأة في القاهرة جسدها الأبيض الطويل فوق الفراش وتمدّ نفسها من النافذة إلى العاصفة المطرية لتسمح لعريها بتلقّيها .

تنحني « هنا » إلى الأمام ، شاعرةً بتنقّله ، تراقبه ولا تتفوّه بكلمة . من هي هذه المرأة ؟

إن نهايات الأرض ليست أبداً تلك النقاط على الخريطة التي يدفعها المستعمرون موسعين دائرة نفوذهم . في جانب واحدٍ خدم وعبيد ومدّ وجزر السلطة والتواصل مع الجمعية الجغرافية . في الجانب الآخر الخطوة الأولى التي يقوم بها رجل أبيض عبر نهر كبير ، الرؤية الأولى (للعين المجردة) لجبلٍ كان هناك بشكل أبدي .

حين نكون شبّاناً لا ننظرُ في المرايا . ننظر حين نشيخ ونهتم باسمنا بأسطورتنا وماذا ستعني حيواتنا للمستقبل . نصبح لاشيء بالأسماء التي نمتلكها ، بادعاءاتنا بأننا كنا الأعين الأولى ، الجيش الأقوى ، التاجر الأذكى . إن نرسيس طلب صورةً منحوتةً لنفسه حين شاخَ .

إلا أننا كنا مهتمين في كيف تستطيع حيواتنا أن تعني شيئاً للماضي . أبحرنا

إلى الماضي . كنا شبّاناً . عرفنا أن القوة والمال الكثير أشياء مؤقتة . نمنا جميعاً مع هيرودت . **« إن تلك المدن التي كانت عظيمة في الأزمنة الأولى يجب أن تكون قد أصبحت منحطة الآن وتلك التي كانت عظيمة في زمني كانت منحطة في الزمن السابق... إن ثروة الإنسان الجيدة لاتمكث أبداً في المكان نفسه »** .

في عام ١٩٣٦ قابل شاب يُدعى « جيوفري كليفتون » صديقاً في أوكسفورد ذكرَ ما كنّا نقوم به . اتصل بي ، تزوَّج في اليوم التالي وبعد أسبوعين طارَ مع زوجته إلى القاهرة .

دخل الزوجان عالمنا نحن الأربعة ، الأمير كمال الدين ، بيل ، ألمازي ومادوكس . كان الإسم الذي مايزال يملأ أفواهنا « كيلف كيبر » . في مكانٍ من « كيلف » ، تعشّش « زيرزورا » ، التي يردُ اسمها في الكتابات العربية التي تعود إلى القرن الثالث عشر . حين تسافرين بعيداً هكذا في الزمن ، تحتاجين إلى طائرة وكان الشاب « كليفتون » غنياً يستطيع أن يطير ويمتلك طائرةً .

قابلنا « كليفتون » في « الجوف » شمال « عوينات » ، جلس في طائرته ذات المقعدين وسرنا نحوه من مخيم القاعدة . وقفَ في ركن الطيار وسكبَ كأس خمر من دورقه . كانت زوجته الجديدة تجلس قربه . أعلن : « أسمّي هذا المكان نادي « بير مَسَاحة » .

راقبت اللايقينَ الودود المبعثر على وجه زوجته وشعرها الذي يشبه لمّة الأسد حين نزعتْ الخوذة . كانا شابّين وشعرنا بأنهما كأولادنا . خرجا من الطائرة وصافحانا .

كان هذا عام ١٩٣٦ ، بداية قصّتنا...

قفزا عن جناح طائرة « الموث » . سار « كليفتون » نحونا حاملاً الدورق وشربنا جميعاً الكحول الدافئ . كان شخصاً مناسباً للحفلات . سمّى طائرته « روبرت بير » . لا أعتقد أنه أحبَ الصحراء ، إلا أنه يمتلك عاطفة تجاهها نجمت عن نظامنا الصارم الذي أراد أن يلائم نفسه فيه ، كطالب غير متخرجٍ ،

يحترم الصمت في المكتبة . لم نتوقّع أن يحضر زوجته ، إلا أننا كنا ، كما أعتقد ودودين معها . وقفتْ هناك بينما تجمّع الرمل في عرف شعرها .

ماذا كنا بالنسبة لهذين الزوجين الشابين ؟ بعضنا كتب كتباً عن تشكّل الكثيب ، عن اختفاء وظهور الواحات ، عن الثقافات المفقودة للصحاري . بدونا مهتمين فقط بالأشياء التي لايستطيع أن يشتريها أو يبيعها ، والتي لاتهمّ العالم الخارجي . تجادلنا حول الارتفاعات أو عن واقعةٍ حدثت منذ سبعمائة عام . نظريات الاستكشاف . عبد الملك ابراهيم الزوايا ذلك الذي عاش في واحة « زك » يرعى الجمال . كان الرجل الأول بين القبائل الذي استطاع أن يفهم مفهوم الصور الفوتوغرافية .

كان كليفتون وزوجته في الأيام الأخيرة لشهر عسلهما . تركتهما مع الآخرين وذهبت لأنضم إلى رجل في « الكفرة » وأمضيت أياماً معه محاولاً أن أحلل نظرياتٍ لم أفشِ سرّها لبقية البعثة .

عدت إلى مخيّم القاعدة في « الجوف » بعد ثلاث ليالٍ .

كانت نار الصحراء بيننا . كليفتون وزوجته ، مادوكس ، بيل وأنا . لو استند رجل بضعة إنشاتٍ فسيختفي في الظلمة . بدأت كاثرين كليفتون تقرأ شيئاً ولم يعد رأسي في هالة النار الحطبية للمعسكر .

كان يوجد دمٌ كلاسيكي في وجهها . كان والداها شهيرين في عالم التاريخ القانوني . أنا رجل لم يستمتع بالشعر إلى أن سمعت امرأة تلقيه .

وفي الصحراء استعادت أيام دراستها الجامعية ووضعتها في وسطنا لتصف النجوم ـ بالطريقة التي علّم بها آدم برقةٍ امرأةً باستعاراتٍ مجيدة .

وهذه ، رغم أنها غير مرئيةٍ في الليل العميق
لاتشعَ عبثاً ، ولاتفكر ، رغم أن البشر لم يوجدوا
ذلك أن السماء تريد مشاهدين والله يريد الحمد
ملايين من المخلوقات تمشي على الأرض
غير مرئية ، حين نكون نائمين أو مستيقظين

وجميعها بتسبيح لا يتوقّف تشاهد أعماله
نهاراً وليلاً : وكيف غالباً من منحدر
التل الذي يردد الصدى أو الدغل ، سمعنا
أصواتا سماوية في هواء منتصف الليل
وحيدة أو يستجيب كل منها للحن الآخر
مسبّحةً لخالقها العظيم .

في تلك الليلة عشقتُ صوتاً ، فقط صوتاً . لم أرد أن أسمع أي شيءٍ آخر . نهضتُ ومشيتُ بعيداً .

كانت صفصافةً . كيف ستكون في الشتاء حين تصل إلى عمري ؟ ما أزال أراها ، دائماً ، بعينِ آدم . كانت تلك الأعضاء الحرجة التي تهبط من الطائرة ، تنحني وسطنا لتحثَّ النار ، معصمها إلى الأعلى يشير نحوي كأنها تشرب من مزادةٍ .

بعد بضعة شهور رقصتْ الفالس معي حين رقصنا كمجموعةٍ في القاهرة . ورغم أنها كانتْ سكرى قليلاً ، ارتدتْ وجهاً لا يُقهر . حتى الآن أعتقد أن الوجه الذي كشفها أكثر هو ذلك الذي ارتدته حين كنا كلانا نصف سكارى ، لا عاشقين .

حاولتُ طوال تلك الأعوام كلها أن أكتشف ماذا كانت تمنحني مع تلك النظرة . بدا أنه الاحتقار . هكذا بدا الأمر لي . أعتقد الآن أنها كانت تدرسني . كانتْ بريئةً ، مندهشةً من شيءٍ فيَّ . كنت أتصرّف بالطريقة التي أتصرّف فيها عادةً في البارات ، ولكن في هذا الوقت مع الرفقة الخطأ . أنا رجل يبقي قواعد سلوكه منفصلة . كنت أنسى أنها أصغر مني .

كانت تدرسني . شيء بسيطٌ كهذا . وكنت أراقب حركةً واحدةً خاطئة في تحديقتها التي تشبه تحديقة التمثال ، شيء سيمنحُها .

أعطني خريطةً أبنِ لك مدينة . أعطني قلمَ رصاص أرسمْ لك غرفةً في جنوب القاهرة ، مخططات صحراوية على الحائط . كانت الصحراء بيننا دائماً . كنت أستيقظ وأرفع عينيّ إلى خريطة المستوطنات القديمة على ساحل المتوسط ـ غزالة ، طبرق ، مرسي مطروح ـ وإلى الجنوب من هذه ، الأودية المرسومة باليد ، وتحيط بهذه ظلال الصفرة التي غزوناها ، التي حاولنا أن نضيّع أنفسنا فيها . « إن مهمتي هي أن أصف باختصار البعثات العديدة التي هاجمت « كيلف كيبر » . سيعيدنا الدكتور بيرمان فيما بعد إلى الصحراء كما وجدت منذ آلاف السنين... » .

هكذا تحدث « مادوكس » مع الجغرافيين الآخرين في « كينسينغتون كور » . إلا أنك لا تعثرين على ممارسة الزنا في محاضر الجمعية الجغرافية . لا تظهر غرفتنا أبداً في التقارير المفصّلة التي كانت ترسم مخطط كل عقدة وكل حادث في التاريخ .

في شارع الببغاوات المستوردة في القاهرة ترهب الطيور الناطقة المرء . الطيور تصدر أصواتاً مرتفعة وتصفر في صفوف كشارعٍ مُرَيَّش . كنت أعرف أي قبيلة ارتحلت ، أي طريق حرير أو جمال حملها في محفاتها الصغيرة عبر الصحراء . رحلات تستمر أربعين يوماً ، بعد أن يصطاد العبيد الطيور أو يقطعوها كالأزهار في الحدائق الإستوائية ثم يضعوها في أقفاص خيزرانية لتدخل النهر الذي هو التجارة . تظهر كالعروس في خطبة قروسطية .

وقفنا بينها . كنتُ أريها مدينةً جديدةً عليها .

لمستني يدها عند الرسغ .

« لو منحتك حياتي ، سوف ترميها ، أليس كذلك ؟

لم أقلْ شيئاً .

V

كاثرين



في المرة الأولى التي حلمتْ به استيقظت قرب زوجها وهي تصرخ في غرفة نومها . حدّقت بالشرشف وفمها مفتوح . وضع زوجها يده على ظهرها .

ـ « إنه كابوس . لاتقلقي » .

ـ نعم .

ـ « هل تريدين بعض الماء » .

ـ نعم

لن تتحرك . لن تعيد الاستلقاء في المنطقة التي كانا فيها .

حدثَ الحلم في هذه الغرفة ـ يده على عنقها (كانت تلمسها الآن) ، غضبه منها الذي أحستْ به في المرات الأولى التي قابلته فيها . لا ، ليس الغضب ، قلّة الاهتمام ، الانزعاج من امرأة متزوجة بينهم . لقد أُحْنيا كحيوانين وشدَ عنقها بنير فأصبحت غير قادرة على التنفّس أثناء استيقاظها .

أحضر لها زوجها كأس الماء من صفيحةٍ إلا أنها لم تقدر أن ترفع ذراعيها ، كانتا ترتجفان مرتخيتين . وضع الكأس بارتباك عند فمها بحيث تستطيع أن تتجرّع الماء المطهّر بالكلور ، يندلق بعضه على ذقنها ويسقط على معدتها . حين استلقت بالكاد امتلكت الوقت لتفكّر بما شاهدت وغرقتْ في نومٍ سريعٍ وعميق .

كان هذا هو التعرّف الأول . تذكرته في أحد الأوقات في اليوم التالي . إلا

أنها كانتْ مشغولةً آنذاك ورفضت أن تفكّر بمغزاه طويلاً وطردته . كان اصطداماً عرضياً في ليلة مزدحمة لا أكثر .

بعد عام جاءت الأحلام الأخرى الأكثر راحةً وخطراً . وحتى في الحلم الأول تذكرت اليدين على عنقها وانتظرت أن يتحوّل مزاج الهدوء بينهما إلى عُنْفٍ .

من يضع فُتات الطعام الذي يغويك ؟ يشدّك نحو شخصٍ لم تُفكّر به أبداً . حلمٌ . ثم ، فيما بعد ، سلسلةٌ أخرى من الأحلام .

قال فيما بعد إنه القرب الزماني والمكاني . قُرْبٌ في الصحراء . قال ، إنه يفعل هذا هنا . أحبَّ الكلمة ـ قُرْبُ الماء ، قُرْبُ جسدين أو ثلاثة في سيارة تعبر بحر الرمل لمدة ست ساعات . ركبتها المتعرّقة قُرْب علبة الشاحنة ، تنحرف الركبة ، ترتفع مع الارتطامات . تمتلك في الصحراء الوقت لتنظر إلى كل مكان ، لتنظر إلى رقص جميع الأشياء حولك .

حين تحدث هكذا كرهته وبقيتْ عيناها مهذّبتين ، أما ذهنها فأراد أن يصفعه ، وأدركت أن هذا كان جنسياً . بالنسبة له تدخل جميع العلاقات في نماذج . تقع في القرب أو البعد ، كما وضّح تاريخُ هيرودت بالنسبة له جميع المجتمعات . افترض أنه خبيرٌ بطرق العالم الذي غادره منذ أعوام مصارعاً منذ ذلك الوقت ليستكشف عالماً صحراوياً نصفُ مُخْتَرعٍ .

في مطار القاهرة حمَلوا العدّة في عرباتٍ وبقيَ زوجها ليفحص أنابيب الوقود في طائرة الموث قبل أن يغادر الرجال الثلاثة في الصباح التالي . ذهبَ « مادوكس » إلى إحدى السفارات ليرسل برقية . وسيذهب إلى البلدة ليشرب الكحول ، المساء الأخير المعتاد في القاهرة ، أولاً في كازينو دار الأوبرا للمدام بادين وفيما بعد يختفي في الشوارع خلف فندق « الباشا » . سيحزم حقائبه قبل أن يبدأ المساء بحيث يصعد إلى الشاحنة في الصباح التالي متعباً فقط .

وهكذا ساقَ بها إلى البلدة ، الهواء رطب ، حركة المرور سيئة وبطيئة في هذه الساعة .

ـ إن الحرارة خانقة . أريد بيرةً ؟ هل تريد واحدةً ؟

ـ لا ، أريد أن أرتب أشياء كثيرة في الساعتين القادمتين . عليكِ أن تعذريني .

قالت : حسناً لا أريد أن أتدخّل .

ـ سأتناول واحدة معك حين أعود .

ـ بعد ثلاثة أسابيع ، حسناً ؟

ـ تقريباً .

ـ أتمنى لو أنني ذاهبة أيضاً .

لم يقل شيئاً ليجيبَ عن هذا . عبرا جسر « بولاق » وأصبحت المواصلات أكثر سوءاً . عربات كثيرة ، مشاة كثيرون امتلكوا الشارع . انعطف جنوباً على طول « النيل » نحو فندق « سميراميس » ، حيث كانت تمكث تماما وراء الثكنات .

ـ « سوف تعثر على « زيرزورا » هذه المرّة . أليس كذلك ؟ » .

ـ « سأجدها هذه المرة » .

كان مثل ذاته القديمة . نادراً ما نظر إليها وهو يسوق ، حتى حين توقفا لمدة خمس دقائق في إحدى النقاط .

كان مهذباً بافراط في الفندق . كان حبها له يقلّ حين يتصرّف بهذه الطريقة ، على الجميع أن يتظاهروا أن هذه الوضعية مجاملة وكياسة . ذكّرها هذا بكلبٍ يرتدي ثياباً . ليذهب إلى الجحيم . لو لم يكن يجب على زوجها أن يعمل معه ، لفَضّلتْ ألا تشاهده مرة أخرى .

أنزل حقيبتها من المؤخرة وكان على وشك أن يأخذها إلى رواق الفندق .

ـ « أستطيع أن أحمل هذه » .

كان قميصها مبللاً من الخلف حين نزلت من مقعدها .

عرض البواب أن يأخذ الحقيبة إلا أنه قال : «لا ، إنها تريد أن تحملها » ، وغضبتْ ثانيةً من افتراضه . غادرَ البواب . استدارت إليه وسلّمها الحقيبة بحيث كانت تواجهه وكلتا يديه تحمل بارتباك الحقيبة الثقيلة أمامها .

ـ إذن ، وداعاً ، حظاً سعيداً!

ـ سأعتني بهم جميعاً ، سيكونون آمنين .

هزت رأسها . كانت في الظلّ ، وهو ، كأنه غير واعٍ بضوء الشمس القاسي وقف تحته .

ثم اقترب منها وفكرتُ للحظة أنه كان سيعانقها ، وبدلاً من ذلك مدّ ذراعه اليمنى إلى الأمام ومرّرها في إيماءةٍ على عنقها العاري وهكذا لمسَ جلدها بطول ساعده الرطب كلّه .

ـ وداعاً .

عادَ إلى الشاحنة . استطاعت أن تشعر بعرقه الآن ، كدمٍ تركه موسى بدا أن إيماءة ذراعه قلّدته .

تلتقط مخدةً وتضعها في حِجرها كدرعٍ ضدّه . «إذا مارست معي الجنس لن أكذب حول ذلك . إذا مارستُ معك الجنس لن أكذب في ذلك» .

تضع المخدة على قلبها وكأنها ستخنق ذلك الجزء من نفسها الذي تحرّر .

يسألها : ما الذي تكرهينه أكثر من أي شيء آخر ؟

ـ الكذبة ، وأنت ؟

ـ الملكية . حين تتركينني ، انسيني .

تنطلق قبضتها نحوه وتضرب بقوةٍ العظم تحت عينه تماماً . ترتدي ثيابها وتغادر .

سيعود كل يوم إلى المنزل وينظر إلى الكدمة السوداء في المرآة . أصبح فضولياً ليس حيال الكدمة بل حيال شكل وجهه . الحاجبان الطويلان اللذان لم يلاحظهما أبداً من قبل ، بداية الشيب في شعره الرملي . لم ينظر إلى نفسه هكذا في مرآة طوال أعوام . كان ذلك حاجباً طويلاً .

لاشيء يمكن أن يبعده عنها .

حين لايكون في الصحراء مع مادوكس أو مع « بيرمان » في المكتبات العربية ، يقابلها في حديقة « جروبي » قُرْب حدائق الخوخ المرويّة بإفراط . تكون أكثر سعادة هناك . إنها امرأة تشتاق للنداوة ، أحبّتْ دائماً الأسيجة الشجرية المنخفضة والسرخس . أما بالنسبة له فتبدو هذه الخضرة الكثيرة مثل كرنفال .

ينعطفان من حديقة « جروبي » إلى المدينة القديمة في جنوب القاهرة ، حيث الأسواق التي يذهب إليها الأوروبيون . في غرفته تغطي الخرائط الجدران ورغم محاولاته لفرشها بالأثاث كان مايزال يوجد حسٌ بمخيّم القاعدة في أمكنته .

يستلقيان بين ذراعي كل منهما ، نبض وظلّ المروحة عليهما . اشتغل هو وبيرمان طوال الصباح في المتحف الأثري واضعين النصوص العربية والتواريخ الأوربية قرب بعضها في محاولةٍ للتعرّف على الصدى ، على التزامن وتبدّل الأسماء عابرين هيرودت إلى كتاب الكنوز حيث سُمِّيتْ « زيرزورا » باسم امرأةٍ كانت تستحمّ في قافلة صحراوية . يوجد أيضاً الدوران البطيء لظل مروحة . وهنا أيضاً التبادل الحميمي وصدى تاريخ طفولةٍ ، نَدْبة ، أسلوب قُبْلة .

ـ « لا أعرف ماذا أفعل ، لا أعرف ماذا أفعل! كيف يمكن أن أكون عشيقتك! سيصيبه الجنون » .

قائمة جراحٍ .

الألوان المتنوعة للكدمة ، لون خمريٌّ متألق يقود إلى السمرة . الصحن الذي حملته عابرةً الغرفة تنقذف محتوياته جانباً ويتكسّر على رأسه ، يصعد الدم في الشعر القشّي . الشوكة التي دخلتْ قفا كتفه تترك عضّتها عَلاماتٍ يشتبه الطبيب أن تَغْلَباً سبّبها .

سيدخل في عناقٍ معها محدقاً أولاً ليرى إن كانت توجد أشياء قابلة للحركة حولهما . سيقابلها مع آخرين علناً بكدماتٍ أو رأسٍ مُضَمَّدةٍ ويشرح أن التاكسي توقفت بشكل مفاجئ فاصطدم بالنافذة الجانبية المفتوحة . أو يظهر واليود على ساعده يغطّي آثار الضرب . قلق مادوكس عليه لأن أصبح فجأة ميالاً إلى الحوادث . سخرت بهدوء من ضعف شرحه . ربما هو سنّه ، ربما يحتاج إلى نظارات ، كما قال زوجها ، لاكزاً مادوكس . قالتْ ربما السبب امرأة قابلها . انظر ، أليست هذه عضة أو خدش امرأة ؟

قال إنها عقرب . *Androctonus australis*

بطاقة بريدية . كتابة يدوية أنيقة تملأ المستطيل .

لا أستطيع احتمالَ نصف أيامي دون أن ألمسك .
وأشعر أن بقية الوقت لا تهم
إذا رأيتك ثانية . ليس هذا بسبب الأخلاق
إنه كم بامكانك أن تتحملَ .

لا تاريخ ولا اسم مرفق .

أحياناً حين تكون قادرة على قضاء الليل معه توقظهما ثلاث مآذن في المدينة تبدأ أذانها قبل الفجر . يسير معها عبر أسواق النيلة التي تقع بين

جنوب القاهرة ومنزلها . تدخل أغاني الإيمان الجميلة الهواء كسهامٍ . مئذنة تجيب أخرى وكأنها تبث شائعة عنهما وهما يسيران عبر هواء الصباح البارد ، بعد أن تكون رائحة الفحم وأكياس الخيش قد جعلتْ الهواء عميقاً . مذنبان في مدينةٍ مقدّسة .

يدفع يده عبر الصحون والكؤوس على طاولةِ مطعمٍ بحيث يمكن أن تنظر إلى مكان آخر سامعةً سبب الضجة . حين يكون بدونها . هو ، الذي لم يشعر أبداً بالوحدة في أميال الطول بين البلدات الصحراوية . يستطيع الإنسان في الصحراء أن يمسك الغياب بيديه عارفاً أنه شيء ما يغذّيه أكثر من الماء . يعرف عن نبتةٍ قرب « التاج » إذا شقّ المرء قلبها يُستبدل بسائلٍ يحتوي مذاقاً عطرياً . في كل صباح يستطيع المرء أن يشرب السائل الذي بحجم قلبٍ مُفتقد . تتابع النبتة الازدهار طوال عامٍ قبل أن تموت بسبب افتقاد مادةٍ أو أخرى .

يستلقي في غرفته محاطاً بالخرائط الشاحبة . إنه بدون « كاثرين » . يرغب في أن يحرق جوعه جميع القواعد الاجتماعية والكياسات .

لم تعد تهمه حياتها مع الآخرين . يريد فقط جمالها المتشامخ ، مسرح تعبيراتها ، يريد الإنعكاس الدقيق والسري ، عمق الحد الأدنى للمجال البصري ، غرابتهما الحميمية كصفحتين في كتابٍ مُغلق .

لقد فكّكَتْهُ .

وإذا كانتْ قد سبّبت هذا له ، فما الذي سبّبهُ لها ؟

حين تكون وراء جدار طبقتها ويكون إلى جانبها في مجموعات أضخم يروي نكاتٍ لا يضحك هو نفسه لها . وبإلحاح غريب ، يهاجم تاريخ الإستكشاف . حين لا يكون سعيداً يفعل هذا . مادوكس يعرف العادة فقط . إلا أنها لن تجعل بصرها يلتقي ببصره . تبتسم للجميع ،للأشياء في الغرفة ،

تمتدح ترتيب زهرةٍ ، أشياء غير شخصيةٍ لا قيمة لها . تسيءُ تفسير سلوكه ، مفترضة أن هذا هو ما يريده وتضاعف حجم الحائط لتحمي نفسها .

لكنه الآن لايستطيع أن يتحمّل هذا الحائط فيها . تقول له : لقد بنيتَ جدرانك أيضاً وهكذا لدي جداري . تقول ذلك متوهجة في جمالٍ لا يستطيع أن يتحمّله . هي بثيابها الجميلة ، بوجهها الشاحب الذي يضحك لكل من يبتسم لها ، بابتسامة غير مؤكدة لنكاته الغاضبة . يتابع تصريحاته المروّعة حول هذا وذاك في بعثة ما يألفها الجميع .

في اللحظة التي تستدير فيها عنه في رواق بار « جروبي » بعد أن يحيّيها ، يفقد عقله . يعرف أن الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن يقبل فقدانها هي إذا كان يستطيع أن يحتفظ بها أو تحتفظ هي به . إذا كان بوسعهما نوعاً ما أن يساعدا بعضهما على الخروج من هذا . وليس حائطاً .

تنسكب أشعة الشمس في غرفته القاهرية . يده رخوة فوق يوميّات هيرودت ، والتوتر يحتلّ بقية جسمه ، وهكذا يكتب كلماتٍ خاطئة ، القلم يدبّ وكأنه بدون عمود فقري . بالكاد يستطيع أن يكتب كلمة ضوء الشمس ، كلمة واقعٌ في الحب .

في الشقة يجيء الضوء فقط من النهر والصحراء التي وراءه . يسقط على عنقها وقدميها وندبة الطعم على ذراعها اليمنى التي يحبها . تجلس في السرير ضامّة العري . تنزلق راحة كفه المفتوحة على عرق كتفها ، يقول إن هذه كتفي ، ليست كتف زوجها ، هذه كتفي . كعاشقين قدّما أجزاء جسديهما لبعضهما هكذا . في هذه الغرفة التي هي في محيط نهر .

في الساعات القليلة التي يمتلكها يعتم الضوء الى هذا القدر . ضوء نَهْرٍ وصحراء فقط . حين تحدث الصدمة النادرة للمطر يتجهان إلى النافذة ويمدان ذراعيهما ويتمددان ليستحمّا قدر الإمكان تحته . الصرخات التي تبتهج

بالمطرة القصيرة تملأ الشوارع .

- «لن نحب أبداً بعضنا ثانيةً . لا نستطيع أن نرى بعضنا أبداً» .

- يقول : «أعرف» .

ليلة اصرارها على الفراق .

تجلس مطوقة بنفسها ، بدرع ضميرها المريع . لايقدر أن يصل عبره ، فقط جسمه قريبٌ إليها .

- «لن نلتقي أبداً ، مهما حدث» .

- «نعم» .

- «أعتقد أنه سيجنّ . أتفهم ؟» .

لايقول شيئاً ويترك محاولة أن يسحبها إليه .

بعد ساعة يسيران في ليلٍ جاف . يستطيعان سماع أغاني الفونوغراف في المسافة من سينما «الموسيقا للجميع» ذات النوافذ المفتوحة بسبب الحرارة . عليهما أن يفترقا قبل أن تُغلق ويخرج منها بشرٌ يمكن أن يعرفوها .

إنهما في الحديقة النباتية ، قرب كاتدرائية «جميع القدّيسين» تشاهد دمعةً وتنحني إلى الأمام وتلعقها وتضعها في فمها . كما امتصتْ دم يده حين جرحها وهو يطبخ لها . دم . دمع . يشعر أن كل شيء يضيع من جسمه . يشعر أنه يحتوي دخاناً . كل ماهو حيٌّ هو معرفة رغبة وحاجة المستقبل . مايود أن يقوله لا يقدر أن يتفوّه به لهذه المرأة التي انفتاحها كجرحٍ ، التي شبابها غير فانٍ بعد . لايستطيع أن يبدّل ما يحبه فيها أكثر من أي شيء ، فقدانها للتسوية ، حيث رومانس القصائد التي تحبها . ما تزال تجلس بارتياح في العالم الواقعيّ . خارج هذه الصفات يعرف أنه لايوجد نظامٌ في العالم .

ليلة اصرارها هذه ٢٨ أيلول . جفف ضوء القمر الحار المطر في الأشجار . لا قطرة واحدة لتسقط عليه كدمعة . هذا الفراق في حديقة «جروبي» . لم يسأل إن كان زوجها في المنزل في مربّع الضوء المرتفع ذاك ، عبر الشارع .

يشاهد الصف الطويل لأكفّ المسافرين فوقهما ، يرى أرساغهم الممدودة . الطريقة التي ارتفع بها شعرها ورأسها فوقه ، حين كانت عشيقته .

الآن لا قبلة . عناق واحدٌ فقط . يحرّر نفسه منها ويبتعد ثم يلتفت . كانت ماتزال هناك . يقترب منها بضع ياردات وترتفع إصبع لتقوم بإشارة .

- « أريدك فقط أن تعرفي ، ما أزال لا أشتاق إليك أبداً » .

كان وجهه مريعاً بالنسبة لها وهو يحاول أن يبتسم . ينحرف رأسها عنه ويضرب جانب عمود البوابة . يرى أنه يؤلمها ، يلاحظ اجفالتها . إلا أنهما كانا انفصلا في أعماقهما ، وارتفعت الجدران بسبب اصرارها . ارتعاشتها ، ألمها ، عرضيان ، قصديان ، يدها قُرْب صدغها . تقول : « سوف تفعل » .

من هذه النقطة فصاعداً في حياتنا ، همست له باكراً ، إما أننا سنجد أو سنفقد روحينا .

كيف يحدث هذا ؟ أن تقع في الغرام وتتفكّك . كنتُ بين ذراعيها . رفعت كمّ قميصها إلى الكتف لأرى ندبة اللقاح . قلت لها أحبُ هذه . هذه الهالة الشاحبة على ذراعها . أرى الآلة تخدش ثم تحقنها بالمصل وتحرر نفسها من جلدها ، منذ أعوام ، حين كان عمرها تسعة أعوام في حجرة رياضيّة في المدرسة .

VI

طائرة مدفونة

يحملقُ وكلُّ عينٍ مسارٌ إلى أسفل الفراش حيث تقف «هنا» عند نهايته . بعد أن تحمّمه ، تكسر سدادة زجاجة وتستدير نحوه بالمورفين . تمثالٌ . فراشٌ . يركب قاربَ المورفين . ينطلق به مسرعاً مفجّراً الزمن والجغرافيا كما تضغط الخرائط العالمَ على ورقة ثنائية البعد .

مساءات القاهرة الطويلة . بحر السماء الليلية . صقورٌ في صفوف إلى أن تحرّر عند الغسق وتدور نحو اللون الأخير للصحراء . تناسقٌ في الأداء كحفنة بذارٍ نُثِرَتْ .

كان بوسعك أن تشتري كل شيء في تلك المدينة في ١٩٣٦ من الكلب أو الطائر الذي يجيء بصوتٍ خافتٍ أو صفرةٍ إلى تلك الأرسان المريعة التي تدخل في أصغر إصبع للمرأة بحيث تبقى مقيدة إليك في سوقٍ مزدحمة .

في القسم الشمالي الشرقي للقاهرة الساحة الكبيرة لتلاميذ الدين ووراءها امتدّ بازار خان الخليلي . نظرنا فوق الشوارع الضيقة إلى القطط على السقوف الصفيحية المتغضّنة التي كانت تنظر أيضاً عبر الأقدام العشرة التالية إلى الشارع والأكشاك . كانت غرفتنا فوق كل هذا . نوافذ مفتوحة على مآذن ، فلوكات ، قطط ، ضجة كبيرة . حدّثَتْني عن طفولتها في الحدائق . حين لم تقدر على النوم رسمتْ لي حديقةَ أمّها كلمةً كلمةً ، مسكبةً مسكبة ،

جليدَ كانون الأول في بركة السمك ، صريف تعريشة الورد . ستمسك رسغي عند التقاء الشرايين وتقودني إلى الانبعاج المجوّف في عنقها .

آذار ١٩٣٧ ، عوينات . مادوكس غاضبٌ من رقّة الجو (١٥٠٠) قدم فوق سطح البحر وليس مرتاحاً في هذا الارتفاع . إنه رجل صحراء قبل كل شيء ، فبعد أن غادر قرية عائلته «مارستون» ، «ماغنا» ، «سومرست» ، بدّل جميع الأعراف والعادات لكي يستطيع أن يقترب من سطح البحر والجفاف المنتظم .

ـ «مادوكس ، ما اسم ذلك الانبعاج في قاعدة عنق المرأة ؟ في المقدمة ؟ ذلك التجويف الذي بحجم أثر إبهامك ؟» .

يراقبني مادوكس لحظةً عبر وهج الظهيرة ويغمغم :

«تماسكْ» .

يقول « كارافاجيو » « لهنا » : « دعيني أروي لك قصةً . كان يوجد هنغاري يُدعى « ألمازي » ، اشتغل لدى الألمان أثناء الحرب . طارَ قليلاً مع الفيالق الأفريقية ، إلا أنه كان أكثر قيمةً من هذا . كان في الثلاثينيات واحداً من عظماء الاستكشاف الصحراوي . كان يعرف كلّ ثقب ماءٍ وساعدَ في رسم خريطة بحر الرمل . كان يعرف كلَّ شيءٍ عن الصحراء وعن اللهجات . أيبدو هذا مألوفاً ؟ كان في فترة ما بين الحربين دائماً في البعثات خارج القاهرة . وكانت إحداها للعثور على « زيرزورا » ـ الواحة الضائعة . ثم حين نشبتْ الحرب انضمَّ إلى الألمان . في ١٩٤١ أصبح دليلاً للجواسيس ليساعدهم في عبور الصحراء إلى القاهرة . ما أريد أن أقوله لك هو أنني أعتقد أن المريض الإنكليزي ليس إنكليزياً .

ـ « بالطبع هو انكليزي ، ماذا عن مساكب الأزهار في « كلوسيسترشر » .

ـ « بالضبط كل هذا خلفية تامّة . منذ ليلتين ، حين كنا نحاول أن نسمّي الكلب ، أتذكرين ؟

ـ « نعم » .

ـ « ماذا كانت اقتراحاته ؟ » .

ـ « كان غريباً في تلك الليلة ؟ » .

ـ كان غريباً جداً لأنني أعطيته جرعةً إضافيةً من المورفين . هل تذكرين الأسماء ؟ لقد ذكر حوالي ثمانية أسماء . كانت خمسة منها نكات واضحة . ثم ثلاثة أسماء : « شيشرون » ، « زيرزورا » ، « دليلة » .

ـ ماذا تعني ؟

ـ « كان شيشرون » اسم شيفرة لجاسوس . اكتشفه البريطانيون . عميل مزدوج ثم ثلاثي . لقد هربَ . « زيرزورا » أكثر تعقيداً .

ـ « أعرف عن « زيرزورا » . لقد تحدّث عنها . تحدث أيضاً عن الحدائق » .

ـ « إلا أنه يتحدث أكثر عن الصحراء الآن . إن الحديقة الإنكليزية تنحل . إنه يحتضر . أعتقد أن لديك مساعد الجواسيس « ألمازي » في الدور العلوي » .

يجلسان على السلال القصبية القديمة في غرفة الستائر الكتّانية ناظرين إلى بعضهما . يهزّ « كارافاجيو » كتفيه بلا مبالاة : « أهذا ممكن ؟ » .

تقول : « أعتقد إنه انكليزي » . وهي تمصّ خدّيها كما تفعل دائماً حين تفكّر أو تتأمّل شيئاً يخصّها .

ـ « أعرف أنك تحبين الرجل . إلا أنه ليس إنكليزياً . في الجزء الأول من الحرب كنتُ أعمل في القاهرة ـ محور طرابلس جاسوس رومل « ربيكا » .

ـ « ماذا تعني بجاسوس ربيكا ؟ » .

ـ « في ١٩٤٢ أرسلَ الألمان جاسوساً يدعى « إبلر » إلى القاهرة قبل معركة « العلمين » . استخدم نسخةً من رواية « ربيكا » « لدافن دي مورييه » ككتاب شيفرة ليرسل رسائل إلى « رومل » حول تحركات القوات . اسمعي ، أصبح الكتاب رفيق نوم الاستخبارات الانكليزية . حتى أنا قرأته » .

ـ قرأت كتاباً ؟

ـ شكراً لك . إن الرجل الذي قادَ « إبلر » عبر الصحراء إلى القاهرة بأوامر شخصية من رومل ـ من طرابلس إلى القاهرة ـ كان الكونت لاديسلو دي ألمازي . وكانت هذه بقعة صحراوية افترض أن لا أحد يستطيع عبورها .

ـ « كان ألمازي يمتلك أصدقاءَ انكليزاً بين الحربين . كانوا مستكشفين عظماء . لكن حين نشبتْ الحرب صفّ مع الألمان . طلبَ منه « رومل » أن يأخذ « إبلر » عبر الصحراء إلى القاهرة لأنه سيكشف إذا ذهب بالطائرة أو هبط بالمظلة . عَبَرَ الصحراء مع الشخص و أوصله إلى دلتا النيل » .

ـ « أنت تعرف الكثير عن هذا ؟ » .

ـ كنت متمركزاً في القاهرة . كنا نتعقّبهما . قادَ مجموعةً من ثمانية رجالٍ من « جيالو » إلى الصحراء . كان عليهم أن يحفروا لينتشلوا الشاحنات من التلال الرملية . وجّههم نحو « عوينات » ونجدها الغرانيتي لكي يحصلوا على الماء ويجدوا مأوى في الكهوف . كانت نقطة متوسطة . اكتشف في الثلاثينات كهوفاً تحتوي على رسومٍ صخرية هناك . إلا أن النجد كان يغصّ

بالحلفاء ولم يقدر على استخدام الآبار هناك . انطلق إلى صحراء الرمل ثانية . أغاروا على مستودعات النفط البريطانية ليملأوا عرباتهم . في واحة « الخارجة » ارتدوا بزات بريطانية وعلّقوا لوحاتٍ عسكرية بريطانية على عرباتهم . حين حُدّد موقعهم من الجو اختبأوا في الأودية طوال ثلاثة أيام هادئين بشكل تام ، منخبزين حتى الموت في الرمل .

ـ « استغرقوا ثلاثة أسابيع للوصول إلى القاهرة . صافح « ألمازي » « إبلر » وغادره . هنا فقدنا أثره . استدار وعادَ إلى الصحراء وحيداً . اعتقدنا أنه عبرها ثانيةً نحو طرابلس . كانت هذه هي المرة الأخيرة التي شوهد فيها . قبض البريطانيون على « إبلر » أخيراً واستخدموا شيفرة « ربيكا » ليزوّدوا رومل بمعلومات مزيّفة عن « العلمين » .

ـ « مازال لا أصدق ذلك يا ديفد » .

ـ « كان الرجل الذي ساعد في القبض على « إبلر » في القاهرة يدعى « شمشون » .

ـ « دليلة » .

ـ بالضبط .

ـ ربما هو « شمشون » .

ظننتُ ذلك في البداية . كان يشبه « ألمازي » جداً وعاشقاً للصحراء أيضاً . أمضى حياته في المشرق وتعرّف على البدو . إلا أن الأمر بالنسبة « لألمازي » هو أنه استطاع أن يهرب . نحن نتحدث عن شخص تحطّمتْ طائرته . هذا الرجل هو هُنا ، محروق بحيث لايمكن التعرف عليه ، الذي نوعاً ما ينتهي بين ذراعي الإنكليز في « بيزا » . أيضاً يستطيع أن ينجو بالتظاهر أنه انكليزي . درس ألمازي في « انكلترة » . كان يُشارُ إليه في القاهرة « بالجاسوس الإنكليزي » .

جلست على السلة مراقبةً « كارافاجيو » . قالت : « أعتقد أنه يجب أن

نتركه يحيا . لايهم إلى أي جانب انضمّ ، أليس كذلك » ؟

قال « كارافاجيو » : « أحب أن أتحدث معه أكثر بعد أن يُحقن بالمزيد من المورفين ، لأجعله يتحدّث . كلانا . أتفهمين ؟ لنعرف كل شيء . دليلة ، « زيرزورا » . عليك أن تعطيه الجرعة البديلة » .

ـ « لا يا ديفد . أنت مهووس جداً . لايهم من هو . لقد انتهت الحرب » .

ـ « سأفعل ذلك إذن ، سأطبخ كوكتيل « برومبتون » ، المورفين مع الكحول . ابتكروا هذا في مستشفى برمبتون في لندن من أجل مرضى السرطان . لاتقلقي لن يقتله هذا . سيمتصّه جسده بسرعة . أستطيع أن أصنعه مما لدينا . قدمي له كأساً منه ثم احقنيه بالمورفين » .

راقبته وهو يجلس على السلّة ، حادّ البصر ، مبتسماً . أصبح « كارافاجيو » أثناء المراحل الأخيرة للحرب واحداً من لصوص المورفين العديدين . شمَّ رائحة موادها الطبية خلال ساعات من وصوله . أصبحت أنابيب المورفين مصدراً له الآن ، كأنابيب المعجون لصناعة الدمى ، هذا ما ظنّته حين شاهدتها لأول مرة ووجدتها جذابة بشكل كبير . كان « كارافاجيو » يحمل إثنين أو ثلاثة منها في جيبه طوال النهار مدخلاً السائل في لحمه . عثرت عليه مرةً وهو يتقيّأ من زيادته ، منحنياً ومرتجفاً في إحدى زوايا الفيلا المظلمة ، نظر إلى الأعلى وبالكاد تعرّف عليها . حاولتْ أن تتحدّث معه إلا أنه حدّق إلى الخلف . عثر على الصندوق الحديدي للمواد الطبية ، وفتحه بقوة لايعرف مداها إلا الله . مرةً حين جرح اللغام كفه على حديد البوابة ، كسر « كارافاجيو » السدادة الزجاجية بأسنانه ثم امتص وبصق المورفين على اليد السمراء قبل أن يعرف « كيب » ماهي المادة . ثم دفعه كيب وهو يحدّق غاضباً .

ـ « اتركه وحده . إنه مريضي » .

ـ « لن أؤذيه . إن المورفين والكحول سيزيلان الألم » .

(كوكتيل برومبتون . الثالثة بعد الظهر)
يأخذ « كارافاجيو » الكتاب من بين يدي الرجل .
ـ « من أين أقلعت حين تحطمت طائرتك في الصحراء ؟ » .
ـ كنت أغادر « كيلف كيبر » ذهبت إلى هناك لألتقط شخصاً . أواخر آب ، ١٩٤٢ .
ـ « أثناء الحرب ؟ كان يجب أن يكون الجميع قد غادروا » .
ـ نعم . كانت توجد جيوش فقط .
ـ « كيلف كيبر » .
ـ نعم .
ـ أين هي ؟
ـ أعطني كتاب كبلنغ ، هنا...

على الصورة المواجهة لصفحة عنوان « كيم » كانت خريطة بخطٍ مُنقّطٍ للممرّ الذي سلكه الصبي والرجل المقدّس . أظهر جزءاً من الهند فقط ـ أفغانستان داكنة مظلمة ، وكشمير في حضن الجبال .

يمرر يده السوداء على طول نهر « نومي » إلى أن تدخل البحر على ارتفاع ´30 °23 . يتابع تمرير اصبعه سبعة إنشاتٍ غرباً ثم عن الصفحة إلى صدره ويلمس ضلعه .

ـ هنا . « كيلف كيبر » ، تماماً إلى شمال مدار السرطان . على الحدود المصرية الليبية » .

ماذا حدث في ١٩٤٢ ؟

قمتُ بالرحلة إلى القاهرة وكنتُ عائداً من هناك . انزلقتُ بين الأعداء ، متذكراً الخرائط القديمة ، عاثراً على مخابئ الماء والوقود التي تعود إلى ماقبل الحرب ، سائقاً نحو « عوينات » . كان الأمر أكثر سهولة لأنني وحدي على بعد أميال من « كيلف كيبر » انفجرت الشاحنة وانقلبت وتدحرجت آلياً

في الرمل دون أن تمسّني شرارة . دائماً يخاف المرء في الصحراء من النار .

انفجرت الشاحنة ، على الأرجح بشكلٍ مُدَبَّر . كان يوجد جواسيس بين البدو الذين استمرت قوافلهم بالتنقل كالمدن حاملةً البهارات ، الحجرات ومستشاري الحكومات أينما ذهبتْ . كان يوجد في أية لحظةٍ ، بين البدو في تلك الأيام من الحرب انكليز وألمان أيضاً .

تركت الشاحنة وبدأت أسير نحو عوينات ، حيث كنت أعرف أن هناك طائرة مدفونة .

انتظرْ . ماذا تعني بطائرة مدفونة ؟

كان « مادوكس » يمتلك طائرة في الأيام الأولى ، ترك فيها القطع الضرورية فقط ـ وكان الشيء الوحيد الزائد هو غطاء حجرة الطيار الحاسم في الطيران الصحراوي . علمني أن أقود الطائرة أثناء الأوقات التي قضيناها في الصحراء وكنا نمشي حول المخلوق المغطّى وننظر كيف يعلق أو يميل في الريح .

حين طارت طائرة كليفتون التي تدعى « روبرت » في وسطنا تُركت طائرة « مادوكس » الكهلة حيث كانت مغطاة بقماش مشمّع وحُشِرَتْ في أحد تجويفات « عوينات » الشمالية الشرقية . تجمّع الرمل تدريجياً فوقها في السنوات القليلة التالية . لم يعتقد أحدٌ منا أننا سنراها ثانية . كانتْ ضحيةً أخرى للصحراء . خلال بضعة أشهر سنعبر الأخدود الشمالي ولا نلمح لها أثراً . كانت الآن طائرة كليفتون التي تصغرها بعشرة أعوام دخلتْ إلى قصّتنا .

إذن ، كنتَ تسير نحوها ؟

نعم . أربع ليالٍ من السير . تركتُ الرجل في القاهرة وعدتُ إلى الصحراء . كانتْ الحرب في كل مكان . فجأة ظهرت « فرق » . « البريمانيون » و « الباغنولديون » السلاطين والباشوات ـ الذين أنقذوا في أوقات مختلفة حيوات بعضهم ـ انشقوا الآن إلى معسكرات .

سرتُ نحو عوينات . وصلت إلى هناك حوالي الظهر وصعدت إلى كهوف النجد . فوق البئر التي سمّيت « عين دوا » .

قالت هنا : « يعتقد « كارافاجيو » أنه يعرف من أنت » .

لم يقل الرجل الذي في السرير شيئاً .

ـ « يقول إنك لستَ انكليزياً . عمل مع الاستخبارات في القاهرة وإيطاليا فترة ، إلى أن أُسِرَ . كانت أسرتي تعرف « كارافاجيو » قبل الحرب .كان لصاً . آمن بحركة الأشياء . بعض اللصوص يحب الامتلاك ، مثل بعض المستكشفين الذين تزدريهم ، مثل بعض الرجال مع النساء أو بعض النساء مع الرجال . إلا أن « كارافاجيو » لم يكن هكذا . كان فضولياً جداً وكريماً مؤهلاً ليكون لصاً ناجحاً . لم تأت أبداً إلى المنزل نصف الأشياء التي كان يسرقها . يعتقد أنك لستَ انكليزياً .

راقبتْ هدوءه حين تكلّمت . ظهر أنه لم يكن يسمع بانتباه ماكانت تقوله . تفكيره البعيد فقط . في الطريقة التي نظر فيها الدوق إيلنغتون وفكّر حين مثّل في « العزلة » .

توقّفتْ عن الكلام .

وصل إلى البئر الضحلة التي تدعى « عين دوا » . نزع ثيابه كلها وبلّلها في البئر ، وضع رأسه ثم جسمه النحيل في المياه الزرقاء . أنهكَتْ أعضاؤه من ليالي السير الأربع . نشرَ ثيابه على الصخور وتسلّق عالياً إلى الجلاميد المدوّرة خارجاً من الصحراء ، التي أصبحت الآن في ١٩٤٢ ساحة معركة شاسعة ، ودخلَ عارياً إلى ظلمة الكهف .

كان بين الرسوم المألوفة التي عثر عليها منذ سنوات . زرافات . قطيع . الرجل ذو الذراعين المرفوعتين وغطاء الرأس المريّش . أشكال عديدة في الوضعيّة الصحيحة للسباحين . كان بيرمان على صواب حيال وجود بحيرةٍ قديمة . تابع الدخول إلى البرودة ، إلى كهف السبّاحين حيث كانَ تركها . كانتْ ماتزال هناك . جرّتْ نفسها إلى زاوية ولفت جسدها بقماش المظلّة .

كان وعد أن يعود إليها .

هو نفسه سيكون أكثر سعادة إذا مات في كهفٍ معزولٍ والسباحون على الصخور حولهما . قال له بيرمان إنه في الحدائق الآسيوية تستطيع أن تنظر إلى صخرةٍ وتتخيل ماءً . بوسعك أن تحدقْ ببركةٍ هادئة وتؤمن أن لها صلابة الصخر . إلا أنها امرأة نَمَت مع الحدائق ، في النداوة ، مع كلماتٍ مثل تعريشة الورد والقنفذ . كان ولعها بالصحراء مؤقتاً . بدأت تحبَ قسوتها بسببه وأرادت أن تفهم راحته في عزلتها . كانت دائماً أكثر سعادة تحت المطر ، في الحمامات المبخرة بهواءٍ رطبٍ ، في الرطوبة النائمة ، متسلقة من نافذته في تلك الليلة الماطرة في القاهرة مرتدية ثيابها وهي ماتزال مبلّلة لتحضنه كلّه . تماماً كما أحبّتْ التقاليد والاحتفال اللطيف والقصائد القديمة التي حفظتها غيباً . ستكره أن تموت بلا اسم . بالنسبة لها كان خط ملموس يقود إلى أسلافها ، بينما محا هو الممرّ الذي بزغ منه . كان مندهشاً أنها أحبّته رغم صفاتٍ غُفْلٍ كهذه في شخصيته .

كانت مستلقية على ظهرها ، في الوضعية التي يمدّد فيها ميت في القرون الوسطى . اقتربت منها عاريا كما كنت أفعل في غرفتنا التي تقع في جنوب القاهرة راغباً في تعريتها وما أزال أحبها .

ماهو الشيء المريع في ما فعلته ؟ ألا نغفر للعاشق كل شيء ؟ نغفر له أنانيته ، رغبته ، رياءه . طالما نكون نحن باعث ذلك . بوسعك أن تمارس الحب مع إمرأة بذراع مكسورة أو مع امرأةٍ مصابة بالحمّى . مرةً مَصّتْ الدمَ من جُرحٍ في يدي كما تذوّقْتُ وابتلعتُ دم طمثها . توجد بعض الكلمات الأوروبية التي لا تستطيع أن تترجمها أبداً بشكل ملائم إلى لغة أخرى . « فيلهومالي » ، غسق القبور . مع المعنى المحيط للحميمية هناك بين الموتى والأحياء .

رفعتها إلى ذراعيَ عن رفّ النوم . كانت مكتسيةً كبيت عنكبوت وخربطتُ كل ذاك .

حملتها إلى الشمس . ارتديتُ ملابسي التي جفّت وأصبحتْ هشّة من حرارة الأحجار .

صنعت يداي المتصلتان سرجاً لها لتستريح عليه . وحالما وصلت الى الرمل ، رفعتها بحيث أصبح وجهها فوق كتفي . كنتُ واعياً لخفّة وزنها . اعتدت عليها هكذا بين ذراعيّ ، ولقد دارتْ حولي في غرفتي كانعكاس بشري للمروحة ـ ذراعاها ممدودتان ، أصابعها كقنديل بحر .

تحركنا هكذا إلى الأخدود الشمالي الشرقي حيث دُفِنَتْ الطائرة . لم أكن بحاجةٍ إلى خريطة . كان معي وعاء النفط الذي حملته طوال الطريق من الشاحنة المنقلبة ، لأنه منذ ثلاثة أعوام كنا عاجزين بدونها .

ـ « ماذا حدثَ منذ ثلاثة أعوام ؟ » .

« لقدأُصيبتْ . في ١٩٣٩ . حطَم زوجها طائرته . خُطّط الأمر من قبل زوجها كجريمة انتحار كانتْ ستشمل ثلاثتنا . لم نكن عاشقين في ذلك الوقت . أعتقد أن معلومات عن العلاقة وصلتْ إليه بطريقةٍ ما .

« إذن كانت مجروحة جداً بحيث لا تستطيع أن تنطلق معك » .

« نعم . كانتْ الفرصة الوحيدة لإنقاذها هي أن أحاول البحث عن النجدة وحدي » .

في الكهف ، بعد كل شهور الفراق والغضب ، اجتمعا وتحدثا مع بعضهما مرة أخرى كعاشقين ، هادمين الحائط الذي شيّداه بينهما بسبب قانونٍ اجتماعي لم يؤمن أيٌّ منهما به .

في الحديقة النباتية ضربتْ رأسها بعمود البوابة بتصميم وعنف ، متكبرة جداً على أن تكون عاشقةً سرية . لن يكون هناك مقصورات في حياتها . استدار نحوها رافعاً ذراعه : لا أزال لا أشتاق إليكِ . ستشتاق إلي .

أصبح أثناء أشهر فراقهما متهوراً ومغروراً . تجنّب رفقتها . لم يستطع أن يتحمّل هدوءها حين كانتْ تشاهده . تلفنَ إلى منزلها وتحدّث مع زوجها وسمع ضحكها في الخلفية . كانت فيها فتنة علنية تُغري الجميع . وكان هذا شيئاً أحبّه فيها . لم يعد يثق بأي شيء .

شك أنها استبدلتْ به عشيقاً آخر . فسّر كل إيماءه منها لآخر كشيفرة وَغْدٍ . أمسكتْ مرةً مقدمة سترة « راوندل » في رواق وهزّتها ضاحكة عليه حين غمغم بشيءٍ وراقبَ المساعد الحكومي البريء يومين ليرى إن كان شيء آخر بينهما . لم يعد يثق بتربيتاتها التحببية له . كانت معه أو ضدّه . كانتْ ضدّه . لم يتحمّل حتى ابتسامتها الحذرة له . إذا ناولته كأساً لن يشرب منها . إذا أشارت أثناء العشاء إلى وعاء فيه زنبقة نيلية تعوم ، لن ينظر إليه . زهرة أخرى لعينة فقط . كان لديها مجموعة جديدة من المقرّبين عزلوه هو وزوجها . لا أحد يعود إلى الزوج . كان يعرف الكثير عن الحب والطبيعة البشريّة .

اشترى أوراقاً سمراء شاحبة للفّ السجائر ووضعها داخل أقسام من كتاب التاريخ تحدَّثتْ عن حروب لم تكن تعنيه . كتب جميع حججها ضده . وضعها في الكتاب ـ مُعطياً نفسه صوت المراقب ، المصغي ، الهُوَ ، فقط .

أثناء الأيام الأخيرة قبل الحرب ذهب للمرة الأخيرة إلى « كيلف كيبر » ليخلي معسكر القاعدة . كان من المفترض أن يلتقطه زوجها هناك ، الزوج الذي أحباه كلاهما إلى أن تحابّا .

طارَ « كليفتون » إلى « عوينات » ليلتقطه في اليوم المحدّد ، وانخفض بطائرته فوق الواحة الضائعة جداً بحيث أن أوراق شجيرات الأقاقيا سقطت على إثر ذلك . انزلقت طائرة الموت منخفضة بينما كان يقف على القمة العالية ويشير بقماش مشمع أزرق ، ثم دارتْ على محور إلى الأسفل واتجهتْ نحوه

مباشرة ثم تحطمت على الأرض على بعد خمسين ياردة . كان خيط دخان أزرق يخرج ملتفاً من عجلات الهبوط ، لم يكن هناك نار .

زوجٌ جُنَّ . قتلهم جميعاً . قتل نفسه وزوجته وقتله هو لأنه لا طريقة للخروج من الصحراء ، الآن .

إلا أنها لم تكن ميتة . حرّر الجسد وسحبه من القبضة المغضّنة ، قبضة زوجها .

كيف كرهتني ؟ تهمسُ في كهف السباحين ، تتحدث عبر ألمها وجراحها . رسغٌ محطّم . أضلاع مفتّتة . كنتُ مريعاً معي . كان هذا عندما اشتبه بك زوجي . ما أزال أكره هذا فيك ، الاختفاء في الصحارى أو البارات .

لقد تركتني في حديقة « غروبّي » .

لأنك لم ترغب فيَّ ، كأي شخص آخر .

لأنك قُلْتِ إن زوجك سيجن . حسناً ، لقد فقد عقله .

ليس لوقتٍ طويل . لقد جُنِنْت قَبْله ، قَتَلْتَ كلَّ شيء فيَّ . قبّلني وناد ني باسمي .

التقى جسداهما في العطور ، في التعرّق ، مسعورين ليكونا تحت ذلك ، تحت ذلك الفيلم الرقيق بلسانٍ أو سنٍ ، وكأنهما كليهما سيمسكان صفةً وينتزعها كلٌّ منهما أثناء ممارسة الحب من جسم الآخر .

الآن لايوجد طَلْقٌ على ذراعها ، ولا ماء زهر على فخذها .

تعتقد أنك محطم للأوثان ، إلا أنك لست كذلك . أنت فقط تتحرك أو تبدل ما لاتستطيع الحصول عليه . إذا فشلت في شيء تنسحب إلى شيء آخر . لاشيء يغيّرك . كم عدد النساء اللواتي حصلت عليهن ؟ لقد تركتك لأنني كنت أعرف أنني لن أقدر على تغييرك أبداً . ستقف في الغرفة هادئاً أحياناً ، صامتاً أحياناً أخرى ، وكأن الخيانة العظمى لنفسك هي أن تكشف إنشاً آخر من شخصيتك .

تحدّثنا في كهف السباحين . كنا على بعد منطقتين من أمان « الكفرة . فقط .

يتوقّف ويرفع يده . يضع « كارافاجيو » قرص مورفين في الكف السوداء فيختفي في الفم الأسود للرجل .

عبرتُ حوض البحيرة الجاف نحو واحة الكفرة لا أحمل شيئاً سوى الحبال لتقيني من الحرارة وبرد الليل وتركت كتاب « هيرودت » معها . وبعد ثلاثة أعوام في ١٩٤٢ ، سرتُ معها نحو الطائرة المدفونة حاملاً جسدها كأنه درع فارسٍ .

كانت أدوات البقاء على قيد الحياة تدفن تحت الأرض في الصحراء ، سكان الكهوف ، الماء النائم في نبتة مدفونة ، الأسلحة ، الطائرة . في خط الطول ٢٥ في الارتفاع ٢٣ حفرت نحو الغطاء المشمّع وظهرت طائرة مادوكس القديمة تدريجياً . كان الوقت ليلاً وحتى في الهواء البارد كنتُ أتعرّق . حملت مصباح النفط فوقها وجلست للحظة قرب الصورة الظلّية لانحناءة رأسها . عاشقان وصحراء ، ولم أذكر إن كان الضوء من النجوم أو من القمر . كانت الحرب في كلّ مكان آخر .
خرجت الطائرة من الرمل . لا طعام ، وكنتُ ضعيفاً . كان القماش المشمّع ثقيلاً جداً . لم أستطع اخراجه فكان عليَّ أن أقطعه .
في الصباح ، بعد ساعتين من النوم حملتها إلى حجرة الطيار . أدرت المحرك فدارَ . تحركنا ثم انزلقنا ، أعواماً متأخرين جداً ، في السماء .

يتوقف الصوت . ينظر الرجل المحروق مباشرةً أمامه في تركيزه المورفيني .

الطائرة الآن أمامَ عينيه . يحملها الصوت البطيء بجهد فوق الأرض . يفتقد المحرك دوراتٍ وكأنه فقد قطعة . تنفتح مظلّتها منتشرة في الهواء الصاخب لحجرة الطيار ، صخب مريع بعد أيام سيره في الصمت . ينظر إلى الأسفل ويرى النفط ينسكب على ركبتيه . يتحرر غصن من قميصها . الأقاقيا والعظم . كم يبلغ ارتفاعه فوق الأرض ؟ كم هو منخفض في السماء ؟

يلمس بطن الطائرة قمة نخلةٍ ثم يدور على محور إلى الأعلى فيندلق النفط على المقعد الذي ينزلق جسمها فيه . تندلع شرارة من دائرةٍ فتشتعل أغصان ركبتها . يسحبها إلى المقعد قربه . يدفع بيديه على زجاج الحجرة ولن تتزحزح ويدوران في كلّ مكان . كم هو منخفض في السماء ؟ تنهار أغصان أقاقيا ، أوراق ، تبدأ الأعضاء بالاختفاء في امتصاص الهواء . رائحة المورفين على لسانه . « كارافاجيو » منعكس في البحيرة السوداء لعينيه . يعلو وينخفض كدلو بئر . وجهه ملطخ بالدم . إنه يطير بطائرة متعفّنة ، تتمزّق الستائر القماشية على الجناحين أثناء السرعة . إنهما جثة . كم كانت النخلة بعيدة ؟ منذ متى ؟ يرفع رجليه من النفط ، إلا أنهما ثقيلتان ، لا طريقة لرفعهما ثانية . إنه عجوز . فجأة . متعباً من العيش بدونها لا يستطيع أن يستند بين ذراعيها ويثق بها لتحرسه ليلاً ونهاراً حين ينام . لا يملك أحداً . إنه منهك لا من الصحراء بل من العزلة . ذهب مادوكس . تُرجمتْ المرأة إلى أغصان وأوراق والزجاج المحطم في الأعلى كان كفك فوقه .

ينسل إلى عدة المظلة ويدور رأساً على عقب ، يتحرر من الزجاج والريح تقذف جسمه إلى الخلف . ثم تتحرَر ساقاه من كل شيء ، ويكون في الجوَ ، مشعاً لايعرف لماذا هو مشعٌ إلى أن يدرك أنه يحترق .

تستطيع « هنا » أن تسمع الأصوات في غرفة المريض الإنكليزي وتقف في الصالة محاولة أن تعرف ماذا يقولان .

كيف هي ؟

رائعة .

الآن دوري .

آه! رائع! رائع!

إنها أعظم الابتكارات

اكتشاف هام أيها الشاب .

حين تدخل تشاهد « كيب » والمريض الإنكليزي يتبادلان بالدور علبة حليبٍ مكثّف . يمصّ الإنكليزي العلبة ثم يبعدها عن وجهه ليمضغ السائل الكثيف . يبتسم لكيب الذي يبدو غاضباً لأنه لايمتلكها . ينظر اللّغام إلى « هنا » ويحوم حول السرير مفرقعاً أصابعه مرتين ، ثم ينجح أخيراً في سحب العلبة بعيداً عن الوجه الأسود .

ـ « لقد اكتشفت أنا والصبي متعة متبادلة . بالنسبة لي في رحلاتي في مصر ، بالنسبة له في الهند » .

يسأل اللَغام : « هل حدث وتناولت سندويشة حليبٍ مكثف ؟ »

تنقل « هنا » عينيها بينهما .

يحدّق « كيب » بالعلبة ، يقول : « سأحضر واحدة أخرى« ، ويغادر الغرفة .

تنظر « هنا » إلى الرجل الذي في السرير .

ـ « أنا و « كيب » نذلان دوليان ولدا في مكان واحد واختارا أن يعيشا في مكانٍ آخر . عاركنا لنعود إلى أوطاننا أو نخرج منها طوال حياتنا ، رغم أن « كيب » لا يعرف هذا بعد . لهذا السبب علاقتنا جيّدة » .

يثقب « كيب » في المطبخ علبة الحليب المكثّف الجديدة ثقبين بحربته التي يدرك أنها تُستخدم الآن لهذا الهدف فقط ، ثم يصعد راكضاً إلى غرفة النوم .

يقول اللغّام : « لابُدَ أنك رُبّيتَ في مكانٍ آخر ، إن الإنكليز لايمصّون بهذه الطريقة » .

ـ « عشتُ بعض الأعوام في الصحراء . تعلمتُ كل شيء أعرفه هناك . إن كلّ شيء هام لي حدثَ في الصحراء » .

يبتسم « لهنا » .

« شخص يغذّيني بالمورفين ، آخر يطعمني الحليب المكثّف ، ربما اكتشفنا غذاءً متوازناً » .

يستدير إلى « كيب » .

ـ كم من الوقت اشتغلت لغّاماً ؟

ـ خمسة أعوام . معظمها في لندن ، ثم إيطاليا ، مع وحدات القنبلة غير المتفجرة .

ـ من كان أستاذك ؟

ـ رجل إنكليزي في « وولويتش » . لقد اعتُبر غريب الأطوار .

ـ « إنه أفضل المدرسين . لابد أنه اللورد سفولك ؟ هل قابلتَ الآنسة « موردن » ؟

ـ نعم .

لايحاول أي منهما في أي نقطة من حديثهما أن يجعلا « هنا » مرتاحةً . إلا أنها تريد أن تعرف عن أستاذه وكيف سيصفه .

ـ ماذا كان يشبه يا كيب ؟

ـ « عملَ في البحث العلميَ . كان رئيس وحدة تجريبية . كانت سكرتيرته الآنسة « موردن » دائماً معه تسجل ملاحظات يمليها حين يشتغل على قنبلة بينما يساعده السيد « هارتز » في الأدوات .

كان رجلاً متألقاً . لقد دُعوا الثالوث المقدّس . انفجر بهم لغم في ١٩٤١ في « إريث » .

تنظر إلى اللغام وهو يستند إلى الحائط ، قدم إلى الأعلى بحيث يكون كعب حذائه على شجيرة مرسومة . لم يرتسم تعبير حزن على وجهه ، لاشيء للتأويل .

فك بعض الرجال عقدة حياتهم الأخيرة بين ذراعيها . رفعتْ في « أنغياري » رجالاً أحياءً لتكتشف أن الديدان قد استهلكتهم سابقاً . وضعت في « أورتونا » سجائر في فم صبيٍ بلا ذراعين . لم يوقفها شيء . تابعت واجباتها بينما خبأت ذاتها الشخصية . كثيرٌ من الممرضات تحولن إلى وصيفاتٍ للحرب قلقاتٍ ، في بزّاتهن الصفراء القرمزية ذات الأزرار العظمية .

تشاهد « كيب » يسند رأسه إلى الخلف على الحائط وتلتقط النظرة الحيادية لوجهه . تستطيع أن تقرأها .

VII

في الموضع



ويستبري ، لندن ، ١٩٤٠

وقف « كيربال سنج » على ظهر الحصان حيث يوضَع سرجه . في البداية وقف ببساطةٍ على ظهر الحصان ، توقّف ولوّح لأولئك الذين لم يستطع أن يشاهدهم ، بل كان يعرف أنهم يراقبونه . راقبه اللورد سفولك بالمنظار الثنائي وشاهدَ الشاب يلوّح وذراعاه تتأرجحان عالياً .

ثم هبط داخل الحصان الحواريّ الأبيض العملاق « لويستبري » ، إلى بياض الحصان المنحوت على التلّ . كان الآن شكلاً أسودَ ، تزيدُ الخلفية من قتامة جلده وبزّته الخاكيّة . لو كان التركيز على المنظار دقيقاً لشاهد اللورد « سفولك » الخط القرمزي النحيل للحبل العنقي القصير على كتف « سنج » والذي يشير إلى وحدته . سيبدو لهم كأنه يخطو على خريطة ورقية قُطعتْ على شكل حيوانٍ . إلا أن « سنج » كان واعياً فقط لبوطه الذي كان يخوّض على الحوار الأبيض القاسي حين هبط المنحدر .

كانت الآنسة موردن تهبط وراءه التلّ ببطء معلقةً حقيبةً إلى كتفها داعمةً نفسها بمظلة مطوية . وقفت على بعد عشرة أقدامٍ فوق الحصان ، فتحتْ المظلّة وجلستْ في ظلها . ثم فتحتْ دَفْتَر ملاحظاتها .

سألته : « هل تستطيع أن تسمعني » ؟

- « نعم . هذا رائع » .

مسحتْ الحوار عن يديها بتنورتها وعدلت نظارتها . نظرتْ إلى الأعلى في المسافة وكما فعل « سنج » لوَحتْ لأولئك الذين لم تستطع أن تشاهدهم .

أحبّها « سنج » . كانت أول امرأة « انكليزية » تحدث معها فعلياً منذ أن وصل إلى انكلترة . قضى معظم وقته في الثكنات في « وولويتش » . في شهوره الثلاثة هناك التقى هنوداً آخرين وضباطاً انكليزاً فقط . امرأة ستجيب عن سؤال في ملهى للجند ، إلا أن المحادثات مع النساء كانت تستمر جملتين أو ثلاثاً فقط .

كان الولد الثاني . سيذهب الإبن الأكبر إلى الجيش والأخ التالي سيصبح طبيباً وأخ آخر سيصبح رجل أعمال . تقليد قديم في عائلته . إلا أن هذا كلّه تغيّر مع الحرب . انضم إلى فوجٍ للسيخ ونُقِلَ بحراً إلى انكلترة . بعد الأشهر الأولى في لندن تطوّع في وحدة مهندسين شُكّلت لتعالج العمل المتأخر والقنابل غير المتفجرة . كانت الكلمة في ذلك الوقت في ١٩٣٩ ساذجة . « تُعتبر القنابل غير المتفجرة من مسؤولية وزارة الداخلية التي وافقت أن يجمعها مراقبون من *A.R.P.G* والشرطة ويرسلوها إلى مستودعات مناسبة حيث يقوم أعضاء من القوات المسلحة بتفجيرها في الوقت المناسب » .

ولم تتولّ وزارة الحرب مسؤولية التخلص من القنابل إلاّ إلى ١٩٤٠ ثم ، سلمتها بدورها إلى المهندسين الملكيين . شُكِّلت ٢٥ وحدة للتخلّص من القنابل . كانت تفتقد التجهيزات التقنية وكانت تملك مطارق ومعازق وأدوات تصليح طرق فقط . لم يكن يوجد أخصائيون .

تتألف القنبلة من الأجزاء التالية :

١ ـ صندوق أو علبة القنبلة .

٢ ـ صمَامة

٣ ـ شحنة ابتدائية .

٤ ـ شحنة رئيسية من مواد متفجرة عالية القوة .

٥ ـ تجهيزات فوقية ـ قطع حادّة ـ عروات رفع *Kopfrings* .

كان ثمانون بالمائة من القنابل التي أسقطتها الطائرات فوق بريطانيا رقيقة الجدران وذات أهداف عامة . وكانت تزن عادة من مائة إلى ألف رطل . كانت القنبلة التي تزن ألفي رطل تُدعى « هيرمان » أو « إيسو » ، أما التي تزن (٤٠٠٠) رطل فكانت تُدعى الشيطان .

سينام « سنج » بعد أيامٍ طويلةٍ من التدريب والرسوم البيانية والخرائط ماتزال في يده . دخلَ ، نصف حالمٍ ، إلى متاهة أسطوانة مع حامض البكريك والشحنة الابتدائية والمكثفات إلى أن وصل إلى الصمامة عميقاً داخل الجرم الرئيسي .

حين تصيب القنبلة هدفاً ، تجعل المقاومة الرعّاش يعمل ويقدح الشعلة في الصمامة . يقفز الانفجار الصغير إلى الشحنة الابتدائية مسبباً انفجار البنتوريت* ، وهذا يشغّل حامض البكريك الذي يجعل الحشوة الرئيسية المؤلفة من الـ ت .ن .تِ والأماتول والبارود المُلومن** ، ينفجر . وتستغرق الرحلة من الرعّاش إلى الانفجار جزءاً من مليون من الثانية .

إن أخطر القنابل هي تلك التي يتم إسقاطها من ارتفاعات منخفضة والتي لا تعمل إلا بعد أن تهبط . تدفن هذه القنابل غير المتفجرة نفسها في المدن والحقول وتبقى هاجعة إلى أن يتم إزعاج موصلات الرعّاش بعصا مزارع أو لكزة عجلة سيارة ، بضربة كرة تينس على الصندوق ، ثم تنفجر .

نقل سنج بالشاحنة مع المتطوعين الآخرين إلى قسم الأبحاث في « وولويتش » . كان هذا هو الوقت الذي ازدادت فيه نسبة الضحايا في وحدات التخلص من القنابل بشكل مرعب ، نظراً لعدد القنابل القليلة غير المتفجرة الموجودة هناك . في ١٩٤٠ ، بعد أن سقطتْ فرنسا وحوصرت انكلترة ازدادت الأمور سوءاً .

---

* مادة متفجرة .

** مكسوّ بالألمنيوم .

بدأت الغارات الجوية في آب وفي شهر واحد وأصبح عدد القنابل غير المتفجرة التي تجب معالجتها (٢٥٠٠) قنبلة .
أُغلِقَتْ الطرقات وهُجِرَتْ المعامل . وصل في أيلول عدد القنابل الحية إلى (٣٧٠٠) . شُكِّلت مائة فرقة قنابل جديدة ، إلا أن عدم فهم آلية عمل القنابل كان مايزال سائداً . وكانت الحياة تستمر في تلك الوحدات عشرة أسابيع .

« كان هذا عصراً بطولياً للتخلص من القنابل ، فترة شجاعةٍ فرديّة ، حين قادَ العمل الملحّ ، وغياب المعرفة والعتاد إلى القيام بمجازفات رائعة... كان ، على أية حال ، عصراً بطولياً بقي أبطاله غامضين ، بما أن أعمالهم حُجِبَتْ عن العامّة لأسباب أمنية . كان من غير المرغوب بوضوح نشر تقارير يمكن أن تساعد العدوّ على تخمين المقدرة التي تتصدى للقنابل » .

في السيارة التي تقودُ إلى « ويستبري » ، جلس « سنج » في المقدمة مع السيد « هارتز » ، بينما جلستْ الآنسة « موردن » في المؤخرة مع اللورد « سفولك » . كانت سيارة « الهمبر » المطلية باللون الخاكيّ مشهورةً . كانت الرفاريف مدهونة باللون الأحمر الإشاري المتألق . كما كانت جميع وحدات نقل تدمير القنابل ـ أو في الليل يوضع فيلتر أزرق على الضوء اليساري الجانبي . منذ يومين انفجر رجل كان يمشي قرب الحصان الحواري المشهور في « الدونز » . حين وصل المهندسون إلى الموقع اكتشفوا أن قنبلة أخرى هبطت في وسط الموقع التاريخي ـ في معدة الحصان الأبيض العملاق « لويستبري » المنحوت على التلال الحوارية المتدرجة في عام ١٧٧٨ . بعد هذا الحدث بوقتٍ قصيرٍ وضعت شباك تمويهية فوق جميع الأحصنة الحوارية التي كان عددها سبعة ، ليس هذا من أجل حمايتها بقدر ماهو من أجل عدم جعلها علائم واضحة للغارات الجوية على انكلترة .
كان اللورد سفولك يثرثر في المقعد الخلفي عن هجرة طيور أبو الحنّاء

من دوائر الحرب في أوروبا وعن تاريخ تدمير القنابل وعن قشدة ديفون . كان يعرّف الشاب السيخيّ على عادات انكلترة وكأنها كانت ثقافة مكتشفة حديثاً . ورغم كونه اللورد «سفولك» فقد عاش في «ديفون» وإلى أن اندلعت الحرب كان مولعاً بدراسة «لورنا دون» ، وكيف كانت الرواية أصيلة تاريخياً وجغرافياً . أمضى معظم فصول الشتاء يتسكّع حول قرى «براندون» و «بورلوك» ولقد أقنع السلطات أن «إكسمور» مكان مثالي للتدرّب على تدمير القنابل . كان يوجد إثنا عشر رجلاً تحت إمرته وهم لغّامون ومهندسون موهوبون انتخبوا من وحدات مختلفة وكان «سنج» واحداً منهم . تمركزوا طوال الأسبوع في حديقة «ريتشموند» في لندن ، بعد أن تم اطلاعهم على الأساليب الجديدة للعمل على القنابل غير المتفجرة بينما كانت أيائل الأرض المراحة تتنقّل حولهم . إلا أنهم سيذهبون في نهاية الأسبوع إلى «إكسمور» ، حيث سيتابعون التدرّب أثناء النهار وبعد ذلك سيأخذهم اللورد «سفولك» بالسيارة إلى الكنيسة حيث أُطْلقتْ النار على «لورنا دون» أثناء حفلة خطبتها . إما من هذه النافذة أو من ذلك الباب الخلفي... أطلقت النار عليها عبر الممشى وأصيبت في كتفها . طلقة رائعة ، فعلاً ، رغم أنها تستحقّ الشجبَ بالطبع . طُوردَ الوَغْد إلى المستنقعات وبُتِرَت عضلاته عن جسمه . وبدتْ القصة لـ«سنج» مثل خرافة هندية مألوفة .

كانت صديقة اللورد سفولك الأقرب في المنطقة هي طيّارة أنثى كرهتْ المجتمع إلا أنها أحبَّتْ اللورد سفولك . كانا يذهبان إلى الصيد معاً . كانت تعيش في كوخٍ صغير في «كاونتسبري» على جرف يطلُّ على قناة «بريستول» . كان لكل قرية يعبرانها بسيارة «الهمبر» غرائبها التي يصفها اللورد سفولك . «هذا هو المكان الأفضل لشراء عكازات مصنوعة من البرقوق» . وكأن «سنج» كان يفكر أن يدخل إلى مخزن «تيودور» عند الزاوية في بزّته وعمامته ليثرثر بشكل عرضي مع المالكين حول العصي . قال لـ«هنا» فيما بعد إن اللورد سفولك أفضل انكليزي . لو لم يكن هناك حرب لما

غادر « كاونتسبري » ومعتزله الذي يدعى مزرعة المنزل أبداً ، حيث سيلتهي بصناعة الخمرة وبالذباب في حجرة غسل الملابس السوداء في الخلف ، يبلغ عمره خمسين عاماً ، متزوج إلا أنه أعزب في شخصيته ، يمشي على الجروف كل يوم ليزور صديقته الطيارة . كان يحب أن يثبّت الأشياء كأنابيب الغسيل القديمة ومولدات الضخ وسفافيد المطبخ التي تديرها عجلة مائية . كان يساعد الطيّارة الآنسة سويفت على جمع معلومات عن عادات طيور الغُرير .

كانت قيادة السيارة إلى الحصان الحواري في « ويستبري » مليئة بالحكايات والمعلومات . يعرف حتى في وقت الحرب المكان الأفضل للتوقّف وتناول الشاي . يدخل إلى غرفة الشاي في « باميلا » يده في عصابة مدلاة من العنق بسبب حادث القطن المتفجّر ترافقه عصبته المؤلفة من السكرتيرة والسائق والّلغام كأنهم أولاده . لم يكن أحد متأكداً كيف أقنع اللورد سفولك لجنة يو إكس ب بالسماح له بتشكيل كتيبة تدمير القنابل التجريبية . إلا أنه بخلفيته في الابتكارات كان من المرجّح أنه يتمتّع بمؤهلات أكثر من الآخرين . كان متعلماً ذاتياً وآمن أن ذهنه يستطيع أن يقرأ البواعث والروح خلف أي اختراع . ابتكر على الفور الجيب القميصي الذي سمحَ للصمامات والأدوات أن تُخزن بسهولةٍ من قبل الّلغام العامل .

شربوا الشاي وانتظروا الكعك مناقشين تعطيل القنابل في مواضعها .

ـ أظن أنك تعرف ذلك يا سنج » ، أليس كذلك ؟

ـ نعم سيدي .

كان « سنج » يعبده . كان اللورد سفولك بالنسبة له الجنتلمان الأول الحقيقي الذي التقى به في انكلترة .

ـ « أنت تعرف أنني أثق أنك تفعل ذلك مثلي . ستكون الآنسة « موردن » معك لتسجّل الملاحظات . سيكون السيد هارتز في المؤخرة . إذا احتجت المزيد من العتاد أو القوة اصفر صفرة الشرطة وسينضم إليك . إذا لم يقدر على فعل شيء ، هذا يعني أنه يختلف معك ويجب أن تصغي إلى نصيحته . إلا

أنك تملك السلطة المطلقة في الموقع . خذ مسدّسي . إن الصمامات الآن أكثر تعقيداً على الأرجح ، إلا أنك لاتعرف ما يحدث ، ربما تكون محظوظاً » .

كان اللورد سفولك يلمّح إلى حادثة أكسبته الشهرة . اكتشف أسلوباً لتعطيل صمامة مؤجّلة بإشهار مسدسه الحربي وإطلاق طلقة عبر رأس الصمامة وهكذا اعتقل حركة جسم الساعة . هُجر الأسلوب حين أدخل الألمان صمامة جديدة فيها تقع الكبسولة والساعة في الأعلى .

تمّتْ مصادقة « كيربال سنج » ولن ينسى ذلك أبداً . انقضى نصف وقته أثناء الحرب في الطرح المزاح لهذا اللورد الذي لم يغادر انكلترة أبداً وخطّط أن لايغادر « كاونتيسبري » حين تنتهي الحرب ، وصل « سنج » إلى انكلترة دون أن يعرف أحداً مُبعداً عن عائلته في « البنجاب » . كان يبلغ الواحد والعشرين من العمر . لم يقابل أحداً إلا الجنود . وهكذا حين قرأ الإعلان الذي يطلب متطوعين مع فرقة القنابل التجريبية ، رغم أنه سمع لغامين آخرين يتحدثون عن اللورد سفولك كمجنون ، قرر أن على المرء في الحرب أن يسيطر على نفسه وهناك فرصة كبيرة للخيار والحياة إلى جانب شخصية أو فرد .

كان الهندي الوحيد بين المتقدمين وكان اللورد سفولك متأخراً . اقتيد (١٥) منهم إلى مكتبة وطلبتْ منهم السكرتيرة أن ينتظروا . بقيتْ على المقعد تنسخ الأسماء بينما كان الجنود يمزحون حول المقابلة والاختبار . لم يكن يعرف أحداً . سارَ إلى حائطٍ وحدّق في مقياسٍ للضغط الجويّ وكان على وشك أن يلمسه حين تراجع ، مقرباً وجهه منه فقط . جافٌّ جدا إلى معتدل ، إلى عاصف . غمغم بالكلمات لنفسه بلفظه الانكليزي الجديد . نظر إلى الخلف نحو الآخرين ، حدق حواليه في الغرفة والتقط نظرة السكرتيرة المتوسطة العمر . راقبته بصرامة . صبيٌّ هندي . ابتسم وسارَ نحو رفوف الكتب . ثانية لم يلمس أي شيء . قرّب أنفه من مجلد يُدعى ريموند ، أو الحياة ، من تأليف سير أوليفر هودج . عثر على عنوان آخر مشابهٍ « بيير أو

الغوامض » . استدار والتقط عيني المرأة عليه ثانية . شعر بالذنب وكأنه وضع الكتاب في جيبه . ربما لم ترَ عمامةً من قبل أبداً . الإنكليز يريدونك أن تقاتل من أجلهم إلا أنهم لن يتحدثوا إليك . سنج ، والغوامض .

قابلوا اللورد سفولك الطيب جداً أثناء الغداء الذي سكب الخمرة لكل من أرادها وضحك بصخب لدى كل محاولةٍ لرواية نكتة من قبل المتطوعين . أُجْرِيَ لهم امتحان غريب بعد الظهر حيث يجب أن تُجمع قطع آلة كلها مع بعضها دون معلومات مسبقة عما كانت تُستخدم من أجله . حُدِّدتْ لهم ساعتان إلا أنهم يستطيعون أن يغادروا حالما تُحَلّ المشكلة . أنهى سنج الامتحان بسرعة وأمضى بقية الوقت يبتكر أشياءً أخرى يمكن أن تُصنع من العناصر المتنوعة . أحسّ أنه سَيُقبَل بسهولة إذا لم يتعلق الأمر بعرقه . جاءَ من بلادٍ فيها الرياضيات والميكانيكا ميزتان طبيعيتان . السيارات لا تُحطَّم أبداً . كانت أجزاء منها تُحمل عبر قريةٍ وتُحوّل إلى آلة خياطة أو مضخة ماءٍ . يعاد تنجيد المقعد الخلفي لسيارة الفورد ويصبح صوفا . كان معظم الناس في قريته يحبّذون حمل مفتاح رَبْطٍ أو مفك براغٍ بدلاً من قلم رصاص . وكانت الأجزاء الزائدة تدخل في ساعة جَدَ أو بكرة ريٍ أو الآلية الدورانية لكرسي مَكْتَبٍ . كان يُعْثَر على علاجات للكارثة الآلية بسهولة . كان المرء يبرّد محرك السيارة المرتفع الحرارة ليس بخراطيم مطاطية جديدة بل بغَرْفِ روث البقر ووضعه حول المكثّف . لقد رأى في انكلترة كمية كبيرة جداً من القطع تجعل قارة الهند تستمرُّ مائتي عام .

كان واحداً من ثلاثة متقدمين اختارهم اللورد سفولك . هذا الرجل الذي لم يتحدث حتى إليه (ولم يضحك معه ، ببساطةٍ لأنه لم يرو نُكاتٍ) .

سارَ عبر الغرفة ووضع ذراعه حول كتفه . وتبيّن أن السكرتيرة الحادة هي الآنسة « موردن » ودخلتْ بسرعة حاملةً صينية عليها كأسان كبيرتان من

الشيري . سلّمتْ واحدةً إلى اللورد «سفولك» ، وقالت : «أعرف أنك لاتشرب» ، وأخذت الآخرى ورفعت كأسها له : «تهانينا ، كان امتحانك رائعاً . رغم أنني كنتُ متأكدة أنه سيتمّ اختيارك ، حتى قبل أن تقوم بالامتحان» .

- «إن الآنسة «موردن» حكمٌ رائع على الشخصية ، تمتلك حساً بالتألق والشخصية» .

- الشخصية سيدي ؟

- نعم . ليست ضرورية فعلاً ، إلا أننا سنعمل سويةً . نحن هنا نشبه الأسرة كثيراً . اختارتك الآنسة موردن حتى قبل الغداء .

- «وجدت أنه من الصعب أن أغمزك ياسيد سنج» .

وضع اللورد سفولك ذراعه حول «سنج» ثانية وسار معه إلى النافذة .

«فكرت بما أنه لن نبدأ حتى منتصف الأسبوع التالي أن آخذ قسماً من الوحدة إلى المزرعة المنزلية . يمكن أن نتعارف في ديفون ، بوسعك أن تذهب معنا في «الهمبر» .

وهكذا ربح معبراً حراً من الآلية العمياء للحرب . دخل إلى أسرةٍ بعد عامٍ في الخارج وكأنه الإبن الضال الذي عاد ، قُدّم كرسي حول الطاولة ، عانقته المحادثات .

كان الظلام خيّم حين عبروا الحدود من «سومرست» إلى ديفون على الطريق الساحلية التي تطل على قناة «بريستول» .

واستدار السيد «هارتز» إلى الممر الضيّق الذي يحاذيه الخلنج والورديّة الذي له لون دموي قاتم في هذا الضوء الأخير . كان طول الطريق ثلاثة أميال .

وإلى جانب ثالوث سفولك وموردن وهارتز ، كان ستة لغامين شكّلوا الوحدة . ساروا في المستنقعات حول الكوخ الحجري في نهاية الأسبوع . وانضم إلى اللورد سفولك وموردن وزوجته الطيّارة لتناول العشاء مساء السبت . أخبرت الآنسة سويفت «سنج» أنها رغبت دائماً في أن تطير براً إلى

الهند . حين انتقل « سنج » من الشكنة لم يمتلك أي فكرة عن مكان موقعه . كان ثمت خريطة على بكرة عالياً على السقف . وحيداً في أحد الصباحات سحب البكرة إلى الأسفل حتى لامست الأرض . « كاونتسبري والمنطقة . أعد الخريطة ر .فونز ورُسمت برغبةٍ من السيد جيمس هاليداي » .

« رُسِمَتْ برغبةٍ... » كان يبدأ بمحبة اللغة الانكليزية .

كان مع « هنا » في الخيمة الليلية حين أخبرها عن الانفجار في « إريث » . تنفجر قنبلة يبلغ وزنها ٢٥٠ كيلوغراماً بينما كان اللورد سفولك يحاول تعطيلها . قتلتْ أيضاً السيد « فرد هارتز » والآنسة « موردن » وأربعة لغَامين كان اللورد سفولك يدربهم . أيار ١٩٤١ . أمضى « سنج » عاماً في وحدة سفولك . كان يعمل في لندن ذلك النهار مع الملازم أول « بلاكر » ، في تنظيف منطقة « إليفانت وكاسل » من قنبلة من نوع الشيطان . تذكر أنه نظر إلى الأعلى ورأى ضابطين من ضباط تدمير القنابل يسيران ناحيته واستغرب ما الأمر . على الأرجح عثروا على قنبلة أخرى . كانت الساعة بعد العاشرة ليلاً وكان متعباً بشكلٍ خطير . هناك واحدة أخرى تنتظره . عاد إلى العمل .

حين انتهوا من الشيطان قرّر أن يدّخر الوقت وسارَ إلى أحد الضابطين الذي قام بنصف استدارة في البداية وكأنه يريد أن يغادر .

« نعم . أين هي ؟ »

أمسك الرجل يده اليمنى وعرف أن هناك خطأً ما . كان الملازم أول « بلاكر » خلفه وأخبره الضابط ماحدث ثم وضع الملازم أول « بلاكر » يده على كتفي « سنج » وأمسكه .

ساق إلى « إريث » . كان خمّن ما كان الضابط يتردّد في طلبه منه . كان يعرف أن الرجل لن يأتي إلى هنا لينقل له خبر الموت فقط . إنهم في حربٍ على كل حال . هذا يعني أن قنبلة ثانية في مكان ما في الجوار لها على الأرجح التصميم نفسه ، وهذه هي الفرصة الوحيدة لمعرفة الخطأ .

أراد أن يقوم بهذا وحيداً . سيبقى الملازم أول بلاكر في لندن . كانا آخر من تبقى من الوحدة وسيكون من الحماقة المجازفة بالإثنين . إذا كان اللورد سفولك فشل فهذا يعني أن هناك شيئاً جديداً . أراد أن يقوم بهذا وحيداً على أية حال . حين يشتغل رجلان سويةً يجب أن تكون هناك قاعدة للمنطق . يجب أن تتقاسم وتتوصل إلى تفاهم حيال القرارات .

أبعد كلَّ شيء عن سطح عواطفه أثناء القيادة في الليل . لكي يبقي ذهنه صاحياً ، يجب أن يعتبرهم على قيد الحياة . الآنسة موردن تشرب كأس ويسكي ضخمة قبل أن تنتقل إلى الشيري . ستكون بهذه الطريقة قادرةً أن تشرب ببطء أكبر وتظهر أكثر كسيدةٍ في بقية المساء . « أنت لا تشرب يا سيد « سنج » ، ولكن لو كنت تشرب ، فستفعل ما أفعله . كأس ويسكي كاملة ثم تستطيع أن ترتشف كمغازلٍ جيد » . كان يتبع هذا ضحكتها الكسولة الجدّية . كانت المرأة الوحيدة التي قابلها طوال حياته والتي حملت دورقين فضّيين معها . إذن ، ماتزال تشرب واللورد سفولك مايزال يلوك الكعك من نوع « كبلنغ » .

سقطت القنبلة الأخرى على بعد نصف ميل . قنبلة أخرى تزن ٢٥٠ كيلوغراماً . بدتْ كنوعٍ مألوف . قاموا بتعطيل مئاتٍ منها ومعظمها روتينياً . كانت هذه هي الطريقة التي تتقدّم بها الحرب . بعد كل ستة أشهر يبدّل العدوّ شيئاً . تتعلّمْ الخدعة ، النزوة ، اللحن المساير وتعلّمه لبقيّة الوحدات . دخلوا في مرحلةٍ جديدةٍ الآن .

لم يأخذ أحداً معه . عليه فقط أن يتذكر كل خطوة . كان الرقيب الذي أوصله بالسيارة يُدعى هاردي ويجب عليه أن يبقى في الجيب . اقترح أن ينتظر إلى الصباح إلا أنه كان يعرف أنهم يفضّلون أن يقوم بذلك الآن . إنها قنبلة الإس سي التي تزن ٢٥٠ كيلو غرام ومألوفة جداً . إذا كان هناك تبديل فعليهم أن يعرفوا بسرعة . طلب منهم أن يتلفنوا مباشرة من أجل الأضواء . لم يأبه أن يعمل وهو متعب ، إلا أنه أراد أضواءً ملائمة ، لا

أضواء سيارتي جيبٍ فقط .

حين وصل إلى « إريث » ، كانت بقعة القنبلة مضاءة مُسَبقاً . في ضوء النهار ، في يوم بريءٍ ، ستكون حقلاً . أسيجة شجرية ، ربما بركة . أما الآن فهي ميدان صراع . حين شعر بالبرد استعار كنزة هاردي وارتداها فوق كنزته ستدفئه الأضواء على أية حال . حين سار إلى القنبلة كانوا مايزالون أحياءً في ذهنه . امتحان .

بزغ لمعان المعدن في تركيز دقيق في الضوء المشعّ . نسي كلَ شيء الآن ماعدا عدم الثقة . قال اللورد سفولك يمكن أن تجد لاعب شطرنج متألقاً في سن السابعة عشرة أو حتى الثالثة عشرة يغلب معلماً جليلاً . إلّا أنك لايمكن أن تجد أبداً لاعب بريدج متألقاً في هذا السن . تعتمد لعبة البريدج على الشخصية . شخصيتك وشخصية خصومك . يجب أن تأخذ بعين الاعتبار شخصية عَدوِك . وهذا ينطبق على تدمير القنابل . إنها لعبة بريدج بين شخصين . يوجد خصم واحد . ليس لديك شريك . أحياناً أجعلهم يلعبون البريدج لأمتحنهم . يعتقد الناس أن القنبلة شيء آلي ، عدوٌّ آلي . لكن عليك أن تفكّر أن شخصاً ما صنعها .

كان جدار القنبلة متمزقاً بسبب سقوطها على الأرض واستطاع « سنج » أن يشاهد إذا كان مُراقباً من قبل « سفولك » أو مبتكر هذه البدعة . أنعَشَتْهُ طَراوة الضوء الصناعي . سارَ حول القنبلة محدقاً فيها من كل زاوية . كان عليه من أجل أن يزيل الصمامة أن يفتح الحجرة الرئيسية للقذيفة ويعبر المادة المتفجرة . فك حقيبته وبمفتاح شامل طوى بحذر الصفيحة المعدنية في قفا هيكل القذيفة . حين نظر إلى الداخل شاهد أن جيب الصمّامة حُرِّر من العلبة . لم يستطع أن يجزم إن كان هذا حظاً جيداً أم سيئاً . كانت المشكلة هي أنه لم يعرف إذا كانت الآلية بدأت تعمل . إذا كانت انطلقت . كان ينحني فوقها مستنداً على ركبتيه سعيداً لأنه وحيد في عالم الخيار الواضح . استدر يميناً أو استدر يساراً . اقطع هذا أو ذاك . إلا أنه كان مُتعباً

وكان مايزال غاضباً .

لم يعرف كم يملك من الوقت . كان يكمن خطر أكبر في الانتظار طويلاً . أمسك أنفَ الأسطوانة ببوطه بقوّة ثم قصّ جيب الصمامة ورفعه عن القنبلة . حالما فعل هذا بدأ يرتجف . لقد أخرجه . القنبلة غير مؤذية الآن . وضع الصمّامة بهدّابها المتدلي من الأسلاك على العشب ، كانت واضحة ومتألقة في هذا الضوء .

بدأ يجرّ العلبة الرئيسية نحو الشاحنة على بعد خمسين ياردة حيث يستطيع الرجال أن يفرغوها من المادة المتفجّرة الخام . وبينما كان يجرّها انفجرت قنبلة ثالثة على بعد ربع ميل وأضيئت السماء جاعلة حتى المصابيح القوسية تبدو ماكرة وبشرية .

قدّم له ضابط إبريقاً فيه قليلٌ من الكحول وعادَ وحيداً إلى جيب الصمّامة . استنشق الأبخرة من الشراب .

لم يعد يوجد خطرٌ حقيقيٌ ، إذا كان مخطئاً ، سيقطع الانفجار الصغير يده ، ولكن طالما هي متشبثة بقلبه في لحظة التأثير فلن يموت . إن المشكلة الآن ببساطة هي المشكلة . الصمّامة . المزحة الجديدة في القنبلة .

عليه أن يعيد متاهة الأسلاك إلى نموذجها الأصليّ . عاد إلى الضابط وطلبَ منه بقية ترمس الشراب الساخن ، ثم عادَ وجلس ثانية مع الصمامة . كانت الساعة الواحدة والنصف صباحاً كما خمّن لأنه لا يرتدي ساعةً . نظر إليها لمدة نصف ساعة عبر دائرة زجاجية ممغنطة ، نوع من المونوكل* ، تتدلى من عُروَته . انحنى وحدّق عبر النظارة بحثاً عن أية خدوش أخرى يمكن أن يكون ملزم قد سبّبها . لاشيء .

سيحتاج فيما بعد إلى شيء يلهيه . فيما بعد ، حين كان تاريخ شخصي كامل من الأحداث واللحظات في ذهنه ، احتاج شيئاً معادلاً للصوت الأبيض ليحرق أو يدفن كل شيء بينما هو يفكّر بالمشاكل الماثلة أمامه . إن الراديو

* نظارة أحادية الزجاجة .

أو المستقبلة البلورية وموسيقاها الصاخبة ستأتي فيما بعد قماشاً مشمّعاً يصدّ عنه مطر الحياة الواقعية .

إلا أنه مُدركٌ الآن شيئاً ما في المسافة البعيدة كانعكاس للبرق على سحابة . مات هارتز وموردن وسفولك ، أصبحوا فجأة مجرّد أسماء . أعادت عيناه التركيز على علبة الصمّامة .

بدأ يقلّب الصمّامة رأساً على عقب في ذهنه مفكراً بالاحتمالات المنطقية ثم أدارها أفقياً مرةً ثانية . فك الشحنة الابتدائية وانحنى واضعاً أذنه عليها بحيث أصبح النحاس المكشوط ملامساً لها . لم يسمع طقطقات خافتة . تفككت بصمت . فصل برقة أقسام آلية الساعة عن أنبوب جيب الصمّامة ووضعها جانباً . التقط أنبوب جيب الصمامة وحدق فيه مرة ثانية . لم يَر شيئاً . كان على وشك أن يضعه على العشب . حين تردّد أعاده إلى الضوء . لم يلاحظ أي خطأ سوى أن الوزن ثقيل . ولن يفكر أبداً بالوزن لولم يكن يبحث عن المزحة . كل ماكانوا يفعلونه عادةً هو الاصغاء والنظر . غطى الأنبوب بحذر وانزلق الثقل نحو الفتحة . كانت شحنة ابتدائية ثانية ـ أداة كاملة منفصلة ـ لتحبط أية محاولة لتعطيل القنبلة .

قرب الأداة نحوه وفك الشحنة الابتدائية . صدرتْ لمعة بيضاء مخضّرة وصوت سوط من الأداة . تلاشى المفجّر الثاني . سحبه ووضعه قرب الأجزاء الأخرى على العشب وعاد إلى سيارة الجيب .

غمغم : «توجد شحنة ثانية . كنت محظوظاً جداً وقادراً على سحب تلك الأسلاك . اتصل بمقر القيادة واسألهم إن كانت توجد قنابل أخرى» .

أبعد الجنود عن سيارة الجيب ووضع مقعداً هناك وطلب أن تُسلّط أضواء المصابيح القوسية عليه . انحنى والتقط العناصر الثلاثة ووضع كلاً منها على بعد قدم عن المقعد المؤقت . كان يشعر بالبرد الآن وتنفّس ريشةً من هواء جسمه الدافئ . نظر إلى الأعلى فشاهد جنوداً مايزالون يفرغون المتفجّر الرئيسي . كتب بعض الملاحظات بسرعة وسلّم حل القنبلة الجديدة إلى ضابطٍ . لم يفهم ذلك بشكل كاملٍ بالطبع ، إلا أنهم يجب أن يحصلوا على هذه المعلومات .

حين يدخل ضوء الشمس إلى غرفة فيها نار تتلاشى النار . لقد أحبّ اللورد سفولك ومعلوماته الغريبة . إلا أن غيابه هنا بمعنى أن كل شيءٍ يعتمد الآن على « سنج » ، كان يعني أن ادراك « سنج » غطى جميع القنابل من هذا النوع عبر مدينة لندن . لقد حصل فجأة على خريطة مسؤولية ، على شيء أدرك أن اللورد سفولك حمله في شخصيته في جميع الأوقات . كان هذا الوعي هو الذي خلق فيه فيما بعد الحاجة لإبعاد كل شيء حين يعمل على قنبلة . كان واحداً من أولئك الذين لم يهتموا أبداً برقص القوة . كان مرتاحاً في الانتقال بين الخطط والحلول . شعر بأنه قادرٌ على الاضطلاع بالوصول إلى حل . حين جاءت إليه واقعية موت اللورد سفولك ختم العمل الذي أوكل إليه وأعاد التطوّع في الآلة الغفل للجيش . كان على ظهر السفينة العسكرية « ماكدونالد » التي كانت تنقل مائة لغّام آخر إلى الحملة الإيطالية . استخدموا هناك ليس من أجل القنابل فحسب ، بل من أجل بناء الجسور وإزالة الأنقاض ، ونصب السكك الحديدية للعربات المصفّحة . اختبأ هناك بقية الحرب . قليلون هم الذين تذكروا السيخيَ الذي كان في وحدة « سفولك » . سُرّحتْ الوحدة كلها خلال عامٍ ونُسيَتْ ، ماعدا الملازم الأول بلاكر ، الوحيد الذي رُفّع بسبب موهبته .

ولكن في تلك الليلة حين كان « سنج » في السيارة عابراً « لويزهام » و « بلاكهيز » نحو « إريث » عرف أنه يحتوي أكثر من أي لغّام آخر على معرفة

اللورد سفولك . كان من المتوقع أن يكون هو الرؤية البديلة .

كان مايزال واقفاً في الشاحنة حين سمع الصفرة التي تعني أنهم سيطفئون المصابيح القوسية . في غضون ثلاثين ثانية استبدلت بالمصابيح ، الخراطيش في مؤخرة الشاحنة . غارة قنابل أخرى . يمكن أن تُطفئ هذه الأضواء الأضعف إذا سمعوا الطائرات . جلس على تنكة النفط الفارغة مواجهاً العناصر الثلاثة التي أزالها من قنبلة إس سي التي تزن ٢٥٠ كيلو غراماً وكان هسيس الخراطيش حوله صاخباً بعد صمت المصابيح القوسية .

جلس مصغياً ومراقباً منتظراً أن تطقطق ، وكان الرجال الآخرون صامتين على بعد خمسين ياردة . كان يعرف أنه ملك الآن ، سيد دمية يستطيع أن يأمر أي شيء ، دلوَ رملٍ ، فطيرة فاكهة ، وهؤلاء الرجال الذين لن يعبروا باراً غير مزدحمٍ ليتحدثوا معه حين ينتهون من أعمالهم سيفعلون مايرغب فيه . كان هذا غريباً بالنسبة له . وكأنه سُلِّمَ بزة ضخمة يستطيع أن يلفّها حوله والتي ستتجرجر أكمامها خلفه . كان معتاداً على لا مرئيته . لقد تم تجاهله في انكلترة في ثكنات مختلفة وأصبح يُفضِّل هذا . إن الاكتفاء الذاتي والعزلة اللتين شاهدتهما « هنا » فيه لم يسبّبهما كونه لغّاماً في الحملة الإيطالية فقط . كانا نتيجة كونه العضو الغفل لعرقٍ آخر ، جزءاً من العالم اللامرئي .

بنى دفاعات شخصية ضدّ كل هذا واثقاً بالذين صادقوه فقط . لكن في تلك الليلة في « إريث » عرف أنه قادر على امتلاك أسلاك تتعلق به تؤثر في كل من حوله من الذين لايمتلكون موهبته .

هرب إلى إيطاليا بعد بضعة شهور ، حزمَ ظلّ معلمه في حقيبته بالطريقة التي شاهد فيها الصبي المكتسي بالأخضر في مضمار سباق الخيل يفعل ذلك في إجازته الأولى في عيد الميلاد . عرض عليه اللورد سفولك والآنسة موردن أن يأخذاه لحضور مسرحيةٍ انكليزية . اختار « بيتر بان » ، وأذعنا دون كلامٍ وذهبا معه إلى عرضٍ مليء بصراخ الأطفال . كان يسترجع ظلالاً وذكرياتٍ كهذه حين يستلقي مع « هنا »« في خيمته في البلدة التلّية الصغيرة بإيطاليا .

إن كشفَ ماضيه أو مواصفات شخصيته سيكون إيماءةً كبيرة . كما أنه لا يستطيع أن يتحقق منها أي دافع عميق سبّب هده العلاقة . أحبها بقوة الحب نفسه الذي شعر به تجاه أولئك الإنكليز الثلاثة الغريبين الذين أكل على الطاولة نفسها معهم ، الذين راقبوا سروره وضحكه وتعجّبه حين رفع الفتى الأخضر ذراعيه وطار في الظلمة عالياً فوق المسرح عائداً ليعلّم الفتاة الشابة في العائلة الأرضية عجائب كهذه أيضاً .

في ظلمة « إريث » المضاءة بالمشاعل الكبريتية سيتوقّف أينما سمع صوت الطائرات وستغوص مشاعل الكبريت واحداً بعد آخر في دلاء الرمل . سيجلس في الظلمة الطينيّة محركاً المقعدَ بحيث يستطيع أن يتكئ إلى الأمام ويضع أذنه قريباً من الآليات المتكتكة التي ماتزال توقُّفُ الطقطقات محاولاً أن يسمعها تحت ارتجاف القاذفات الألمانية فوقه .

ثم حصل ما كان ينتظره . بعد ساعةٍ بالضبط ، تحرّر المؤقّت وانفجرت كبسولة القدح . لقد حرّرت إزالة الشحنة الابتدائية الرئيسية مطرقةً غير مرنية أدت إلى تشغيل الشحنة الثانية المخبأة . كانت موقّتة لتنفجر بعد ستين دقيقة بعد وقت طويل من افتراض اللغام الطبيعي بأن القنبلة ستُعطل بشكل آمن .

ستغيّر هذه الأداة الجديدة اتجاه وحدات الحلفاء لتدمير القنابل كله . من الآن فصاعداً كل قنبلة عملها متأخر ستحمل تهديد شحنة ابتدائية ثانية . لن يعود ممكناً للغامين أن يعطلوا قنبلة عن طريق إزالة الصمّامة فقط . يجب أن تُحَيّد القنابل مع بقاء الصمّامة سليمةً نوعاً ما ، وبشكل مبكر سحبَ الصمّامة الثانية المقصوصة من شرك الغفلة . في الظلمة الكبريتية تحت غارة القصف شهد الفلاش الأبيض المخضرَ الذي بحجم يده . تأخر ساعة واحدة . لقد بقي على قيد الحياة بسبب الحظ فقط . عاد إلى الضابط وقال : « أحتاج إلى صمامة أخرى لأتأكد » .

أضاؤوا المشاعل حوله ثانية . مرة أخرى انسكب الضوء في دائرة

ظلمته . تابع اختبار الصمامات الجديدة لمدة ساعتين إضافيتين في تلك الليلة . برهن تأخر الستين دقيقة أنه متساوق .

أمضى في « إريث » معظم الليل . استيقظ في الصباح ليجد نفسه في لندن . لم يستطع تذكر أنه عاد بالسيارة . استيقظ ، ذهب إلى طاولة وبدأ يرسم رسماً تخطيطياً لمظهر القنبلة : الشحنات الابتدائية ، المفجرات ، مشكلة (زوس ٤٠) كلها ، من الصمامة إلى حلقات الإقفال ، ثم غطّى الرسم الأساسي بكل خطوط الهجوم المحتملة لتعطيله . كان كل سهم يُرسم بدقة والنص يُكتب بطريقة واضحة كما علّموه .

ماكان قد اكتشفه في الليلة الماضية بدا صحيحاً . لقد نجا بفعل الحظ فقط . لم تكن توجد طريقة ممكنة لتعطيل هذه القنبلة في موضعها دون تفجيرها . رسم وكتبَ كل شيء يعرفه على ورقة . برامج العمل الكبيرة . كتب في أسفلها : « رُسِمتْ برغبةٍ من اللورد سفولك بقلم طالبه الملازم أول كيربال سنج ، ١٠ أيار ١٩٤١ » .

عملَ بجدّ هائل ، بجنونٍ بعد موت « سفولك » . كانت القنابل تتبدّل بسرعة ، بتقنيات وأدوات جديدة . كان مقرّ ثكنته في حديقة « ريجنت » مع الملازم أول « بلاكر » وثلاثة أخصائيين آخرين يشتغلون على الحلول ، يضعون مخطط كل قنبلة جديدةٍ حين تأتي .

بعد إثني عشر يوماً من العمل في مديرية البحث العلمي عثروا على الجواب . تجاهلْ الصمامة تماماً . تجاهلْ المبدأ الأول ، الذي كان حتى ذلك الوقت « عطل القنبلة » . كان عملاً متألقاً . كانوا جميعهم يضحكون ويصفّقون ويضمون بعضهم على مائدة الضباط . لم يعرفوا ماهو البديل ، إلا أنهم عرفوا أنهم كانوا على صواب تجريدياً . لن تُحل المشكلة بمعانقتها . كان هذا سطر الملازم أول « بلاكر » . « إذا كنت في غرفةٍ مع مشكلةٍ لاتتحدث معها » . ملاحظة مُرتجلة . جاء سنج نحوه وعالج المقولة من زاوية مختلفة . « إذن

يجب ألا نلمس الصمّامة أبداً » .

حالما وصلوا إلى هذا ، وصل أحدهم إلى الحل في غضون أسبوع . المعقّم البخاري . يستطيع المرء أن يفتح ثقباً في العلبة الرئيسية للقنبلة ثم يُستخلَب المتفجّر الرئيسي ويسحب بحقن البخار . هذا حل المشكلة مؤقتاً . لكنه في ذلك الوقت كان على ظهر سفينة متجهة إلى إيطاليا .

ـ « يوجد دائماً حوّار أصفر مُعلّم على جانب القنابل . هل لاحظت ذلك ؟ تماماً كما عُلِّمتْ أجسادنا بالطباشير الأصفر حين صففنا في ساحة لاهور » .

ـ « كان صفّ منا يمشي بتثاقل وببطء إلى الأمام من الشارع إلى المبنى الطبيّ ثم إلى الساحة حين تطوّعنا . كنا نسجّل أسماءنا ، وكان الطبيب يقبل أو يرفض أجسامنا بأدواته ويستكشف أعناقنا بيديه . كانت الملاقط تخرج من « الديتول » وتلتقط أجزاء من جلدنا . ملأ الذين قبلوا الساحة وكُتِبَت النتائج المشفّرة على جلودنا بالطباشير الأصفر . فيما بعد وفي الصف ، بعد مقابلة قصيرة ، علّم ضابط هندي مزيداً من الطباشير الأصفر على الألواح المربوطة حول أعناقنا . وزننا ، عمرنا ، مقاطعتنا ، مستوى تعليمنا ، وضع أسناننا ، وأية وحدة نصلح لها .

لم أشعر بالإهانة من هذا . أنا واثق أن أخي سيغضب ، سيتجه غاضباً إلى البئر ، يرفع السطل ويغسل العلامات الحوّارية . لم أكن مثله . رغم أنني أحببته ، وأعجبتُ به . كنت أمتلك جانباً من طبيعتي يرى سبباً في جميع الأشياء . كنت الشخص الذي يمتلك جدّية في المدرسة كان يقلدها ويسخر منها . أنتِ تفهمين طبعاً ، كنت أقل جدية منه ، كانت المسألة هي أنني كنت أكره المواجهة فقط . لم يوقفني هذا عن القيام بما أرغب فيه أو التصرف

بالطريقة التي أريدها . اكتشفتُ باكراً الفضاء المهمل المفتوح لنا نحن الذين نحيا حياةً صامتة . لم أتجادل مع رجل الشرطة الذي قال لي إنني لا أستطيع أن أركب الدراجة فوق جسر محدد أو عبر بوابة معيّنة في الحصن ، وقفت هناك فقط ، هادئاً حتى أصبحت لا مرئياً ثم تابعت كجندبٍ ، ككأسِ ماءٍ مخبّأة . أتفهمين ؟ هذا ما علّمتني إياه معارك أخي العلنيّة .

« إلا أن أخي كان دائماً بطل الأسرة بالنسبة لي . كنت في الهواء المزاح لموقعه كجمرة . شهدتُ إعياءه الذي كان يجيء بعد كل احتجاج ، وكان جسمه يتهيأ ليستجيب لتلك الإهانة أو ذاك القانون . لقد حطّم تقاليد عائلتنا ورفض رغم كونه الأخ الأكبر ، أن ينضمّ إلى الجيش . رفض أن يوافق على أي موقف يكون فيه الإنكليز سلطة . وهكذا جرّوه إلى السجن ، إلى سجن « لاهور » المركزي ، ثم إلى سجن « جاتناكار » . يستلقي في سريره ليلاً ، يده مرفوعة داخل الجبصين ، بعد أن كسرها أصدقاؤه ليحموه ، لمنعه من محاولة الهرب . أصبح في السجن هادئاً ومخادعاً ، مثلي ، لم يشعر بالإهانة حين سمعَ أنني تطوعت لأحل مكانه وتخليت عن دراسة الطب . ضحك فقط وأرسل رسالة مع والدنا أوصاني فيها بالحذر . لن يعارض أبداً ما فعلت أو يعارضني . كان واثقاً أنني أمتلك خدعة البقاء على قيد الحياة ، أنني قادر على الاختباء في الأمكنة الصامتة » .

إنه يجلس على الطاولة في المطبخ يتحدث مع « هنا » . ينطلق « كارافاجيو » عبره بسرعة في طريقه إلى الخارج حاملاً حبالاً ثقيلةً على كتفيه والتي هي شيء خاصٌ به كما أجاب حين سألوه عنها . يجرها خلفه وحين يخرج من الباب يقول ، « يريد المريض الانكليزي أن يراك أيها الصبي » .

ـ « حسناً أيها الصبي » ، ويقفز اللّغام عن الطاولة وتنزلق لكنته في لكنة « كارافاجيو » الويلزية المزيّفة .

ـ « كان أبي يمتلك طائراً ، سمّاني صغيرة كما أعتقد ، كان يضعه قربه وكأنه ضروري لراحته كالنظارة أو ككأس ماء أثناء تناول الطعام . حتى وإن

دخل إلى غرفة نومه في المنزل يحمله معه . وحين كان يذهب إلى العمل كان يعلق القفص الصغير على مقود الدراجة » .

ـ هل مايزال والدك حياً ؟

ـ « آه! نعم . أظن ذلك . لم أتلق رسائل لبعض الوقت ومن المرجّح أن يكون أخي مايزال في السجن » .

يتابع تذكر شيء واحد . إنه الحصان الأبيض . يشعر بالحرارة على الهضبة الحوارية . غبارها الأبيض يدوّم حوله . إنه يعمل على تعطيل البدعة الغريبة ، التي هي واضحة تماماً ، إلا أنه لأول مرة يعمل وحيداً . تجلس الآنسة موردن على بعد عشرين ياردة فوقه ، فوق المنحدر تسجل ملاحظات عما يفعله . يعرف أنه في أسفل الوادي وعبره يراقبه اللورد سفولك بالمنظار .

يعمل ببطء . يرتفع غبار الحوار ثم يستقر على كل شيء ، على يديه وعلى البدعة فكان عليه أن ينفخه عن أغطية الصمامة والأسلاك باستمرار ليرى التفاصيل . يشعر بالحرارة في سترته القصيرة الضيّقة . يتابع وضع رسغيه المتعرّقين خلفه ليمسحهما بقفا قميصه . جميع الأجزاء المفكوكة والمزالة تملأ الجيوب المختلفة على صدره . إنه متعب ، يختبر الأشياء بِشكل متكرر . يسمع صوتَ الآنسة « موردن » . « بالطبع أستطيع » . يزرر جميع أزرار جيوب صدره ويضعُ قماشة على البندقية ، تهبط بارتباك إلى الحصان الأبيض ثم تجلس إلى جانبه وتفتح حقيبتها . تفتح منديلاً مخرّماً فيه محتويات زجاجة كولونيا صغيرة وتمرّره إليه . امسح فمك بهذا ، يستخدمه اللورد سفولك لينعش نفسه . يأخذه بحذر وفق اقتراحها . يمسح جبهته وعنقه ورسغيه . تفتح الترمس وتسكب شاياً لكل منهما . تفتح أوراقاً مبللة بالزيت وتخرج شرائح من كعكة « كبلنغ » .

تبدو مستعجلةً للعودة إلى أعلى المنحدر ، إلى الأمان . وسيكون من الوقاحة تذكيرها أنها يجب أن تعود . تتحدث ببساطةٍ عن الحرارة البائسة

وحقيقة أنهم على الأقل حجزوا غرفاً في البلدة فيها حمامات بحيث يستطيعون التطلع إليها . تبدأ قصة صاخبة عن كيفية لقائها مع اللورد سفولك ولا تذكر أبداً القنبلة الموجودة إلى جانبهما . كان يبطئ في الطريقة التي يعيد فيها المرء قراءة الفقرة نفسها وهو نصف نائم محاولاً أن يجد اتصالاً بين الجمل . لقد أخرجته من دوامة المشكلة . تحزم حقيبتها بحذر ، تضع يداً على كتفه اليمنى وتعود إلى موقعها على الشرشف فوق حصان « ويستبري » . تترك له نظارات شمسية إلا أنه لا يستطيع أن يرى بوضوح عبرها فيضعها جانباً ويعود إلى العمل . عطر الكولونيا . يتذكر أنه شمّه مرةً حين كان طفلاً . أصابته الحمّى وشخص ما مسحه على جسمه .

VIII

الغابة المقدسة

يسير « كيب » خارجاً من الحقل الذي كان يحفر فيه ، يده اليسرى مرفوعة أمامه كأنه لواها .

ينقل الفزّاعة إلى حديقة « هنا » ، الصليبَ الذي تتدلى عليه علب السردين ثم يصعد نحو الفيلا . يغطي اليد المرفوعة أمامه بالأخرى كأنه يحمي لهبَ شمعةٍ . تقابله « هنا » على الدكة ، يمسك يدها ويضعها على يده . الدعسوقة التي تدور على ظفر إصبعه الصغيرة تعبر بسرعةٍ إلى رسغها .

تستدير نحو المنزل . يدها مرفوعة أمامها الآن . تسير عبر المطبخ وتصعد الدرج .

يستدير المريض ليواجهها حين تدخل . تلمس قدمه باليد التي تحمل الدعسوقة . تتركها تتحرك على الجلد الأسود . متجنبة بحْرَ الشرشف الأبيض ، تبدأ مسارها الطويل نحو بقية جسمه ، وتبدو لوناً أحمر متألقاً على مايبدو كمثلِ لحمٍ بركاني .

في المكتبة تطير علبة الصمامة في الجو بعد أن أسقطها « كارافاجيو » حين استدار إلى صرخة « هنا » المبتهجة في الصالة . قبل أن تصل إلى الأرض ينزلق جسم « كيب » تحتها ويمسكها بيده .

يحدق « كارافاجيو » نحو الأسفل ليرى وجه الشاب ينفخ الهواء كله عبر خدّيه .

يفكر بسرعة أنه مدين له بحياة .

يبدأ « كيب » بالضحك فاقداً خجله أمام الرجل الأكبر سناً ، حاملاً علبة الأسلاك .

سيتذكر « كارافاجيو » السقطة . كان بوسعه أن يبتعد ، أن لا يراه ثانية ، إنه لن ينساه أبداً . بعد أعوام من الآن في شارع في « تورنتو » سيخرج « كارافاجيو » من تاكسي ويفتح الباب لهندي شرقي كان على وشك الدخول إليها ، وسيفكر بـ« كيب » آنذاك .

الآن يضحك اللغام فقط أمام وجه « كارافاجيو » وأمام السقف .

قال « كارافاجيو » وهو يلوح بيده نحو « كيب » و « هنا » : « أعرف كل شيء عن الوَزْرات . قابلت أولئك الهنود في الطرف الشرقي لـ« تورنتو » . كنت أسرق منزلاً وتبيّن أنه لعائلةٍ هندية . استيقظوا من أسرتهم وكانوا يرتدون هذه الألبسة ، الوزرات ، ليناموا فيها وخدعني هذا . كان لدينا الكثير لنتحدث عنه وفي النهاية أقنعوني أن أرتديه . نزعت ثيابي وارتديت واحداً وحالاً انقضوا عليَ وطاردوني وأنا نصف عارٍ في الليل » .

ابتسمت : هل هذه قصة حقيقية ؟

ـ « واحدة من كثيرات » .

كانت تعرف عنه ما يكفي لجعلها تصدقه . كان « كارافاجيو » يُسَرُّ باستمرار بالعنصر البشري أثناء السرقات . إذا دخل إلى منزل في عيد الميلاد سيتضايق إذا لاحظ أن « روزنامة ليست مفتوحة على التاريخ الذي يجب أن

تكون مفتوحة عليه . وغالباً ماكان يتبادل الأحاديث مع الحيوانات العديدة التي تُترك وحيدة في المنازل ويناقش معها الوجبات ويقدم لها حصص طعام ضخمة وكانت غالباً تحيّيه بمتعةٍ ملحوظةٍ إذا عاد إلى مسرح الجريمة .

تسيرُ أمام الرفوف في المكتبة ، عيناها مغمضتان ، وتسحب كتاباً بشكل عشوائي . تعثر على مكانٍ فارغٍ بين قسمين في الكتاب الشعري وتبدأ بالكتابة هناك .

يقول إن لاهور مدينة عريقة . لندن بلدة حديثة إذا ما قورنتْ بلاهور . أقول ، حسناً . أنا من بلادٍ أحدث . يقول إنهم كانوا يعرفون دائماً عن البارود . منذ القرن السابع عشر سجَلت رسومات البلاد عروض ألعاب نارية .
إنه صغير ، ليس أكثر طولاً مني . يمتلك ابتسامة ودودة تستطيع أن تفتنَ أي شيء حين يظهرها . في طبيعته فظاظة لا يظهرها .
يقول الإنكليزي إنه واحدٌ من أولئك المحاربين القدّيسين . إلا أنه يمتلك حساً خاصاً بالفكاهة أكثر صعوبة مما يوحي به أسلوبه .
تذكر : « سأعيد وصله في الصباح » . أوه!
يقول إن لاهور تمتلك ثلاث عشرة بوابة مسماة بأسماء القديسين والأباطرة أو الأمكنة التي تقود إليها .
كلمة بَنْغَل* ، جاءت من اللغة البنغالية .

* بيت من طابق واحد .

في الرابعة بعد الظهر أنزلوا « كيب » إلى الحفرة مع العدّة إلى أن وصل إلى خصره في المياه الموحلة ، انثنى جسمه حول جرم قنبلة من نوع « إيسو » . كان ارتفاع هيكلها من الزعنفة إلى الرأس عشرة أقدام ، وكان انفها غائصاً في الوحل عند قدميه . أمسكَ فخذاه الغلاف المعدني تحت المياه البنيّة كما رأى الجنود يمسكون النساء في زاوية قاعة الرقص . حين تعب ذراعاه علقهما على الدعامات الخشبية على مستوى الكتف والتي وضعتْ هناك لمنع الوحل من الانهيار حوله . حفرَ اللغامون الحفرة حول قنبلة إيسو ونصبوا الأعمدة الخشبية قبل أن يصل إلى الموقع . في ١٩٤١ بدأت قنابل إيسو بصمامات جديدة تسقط ، وكانت هذه قنبلته الثانية .

قرَّر أثناء جلسات التخطيط أن الطريقة الوحيدة حيال الصمّامة الجديدة هي تركها سليمةً . كانت قنبلة ضخمة في وضعية نعامة . نزل حافياً وبدأ يغوص ببطء بعد أن أمسكه الوحل ، غير قادر على أن يجد موطئاً صلباً في المياه الباردة . لم يكن يرتدي البوط ، كان سيعلق بالوحل ويمكن أن يكسر كاحليه حين يُرْفع بالبكرة فيما بعد .

وضع خده الأيسر على الغطاء المعدني محاولاً أن يفكر بالدفء ، أن يركز على لمسة الشمس الصغيرة التي وصلت إلى الحفرة التي يبلغ عمقها عشرين قدماً وسقطت على قفا عنقه . ما عانقه يمكن أن ينفجر في أية لحظة حالما ترتعش آلات القدح ، تنفجرُ الشحنة الابتدائية . لم يكن يوجد سحرٌ أو أشعة إكس تخبر أي شخص أين تحطمت الكبسولة الصغيرة ، أي سلك سيتوقف عن التذبذب . كانت تلك الإشارات الميكانيكية الصغيرة مثل لعثمة قلب أو سكتة قلبية تحدث لرجل يعبر الشارع ببراءة أمامك .

في أي بلدة هو ؟ لم يستطع أن يتذكر . سمع صوتاً ونظر إلى الأعلى . أنزل إليه « هاردي » العدّة في حقيبة مربوطة بنهاية حبل ، وتعلّقتْ هناك بينما كان « كيب » يحاول أن يدخل المقصّات والأدوات في جيوب سترته الكثيرة . كان يدندن بالأغنية التي كان يغنّيها هاردي في سيارة الجيب في طريق العودة

إلى الموقع ـ

إنهم يغيّرون الحرس في قصر بكنغهام
وذهب كريستوفر روبن مع أليس .

جفّف منطقة رأس الصمّامة وبدأ يضع كوب طينٍ حوله ، ثم فتح زجاجة وسكب سائل الأوكسجين في الكوب . شدّ الكوب بشكل آمن على المعدن . الآن عليه أن ينتظر ثانية .

بينه وبين القنبلة مسافة قليلة بحيث شعر بتغير درجة الحرارة مسبقاً . لو كان على أرضٍ جافّة لاستطاع أن يسير بعيداً ويعود في عشر دقائق . عليه أن يقف الآن قرب القنبلة . كانا مخلوقان مشبوهين في مكان مغلق . كان النقيب كارليل يعمل في تعطيل قذيفة بالأوكسجين المتجمد وفجأة اشتعلتْ الحفرة كلها . أخرجوه بسرعة ، فاقداً الوعي في طقم عدّته .

أين كان هو ؟ في « ليسون غروف » ؟ في « أولد كينت رود » ؟

غمس « كيب » الصوف القطني في الماء الموحل ولمس الغطاء على بعد إثني عشر إنشاً من الصمامة . سقطت ، هذا يعني أن عليه أن ينتظر فترة أطول . حين التصق الصوف القطني ، كان هذا يعني أن منطقة كافية حول الصمامة تجمّدت ، ويستطيع أن يتابع عمله . سكبَ بعض الأوكسجين في الكوب .

كانت دائرة التجمد المتنامية تبلغ نصف قطر قدم الآن . نظر إلى القصاصة التي ثبتها أحدهم على القنبلة . قرأوها وهم يضحكون كثيراً في ذلك الصباح في صندوق الأدوات والعدة الحديث الذي أرسل إلى جميع وحدات تدمير القنابل .

متى يكون الانفجار جائزاً بشكل معقول ؟

إذا رُمِز لحياة الإنسان بـ X وللمجازفة بـ Y وللأذى المقدّر من الانفجار بـV إذاً يستطيع المنطقي أن يقول إنه إذا كانت V أصغر

من YX يجب أن تُفجّر القنبلة ، لكن إذا كانت YV أكبر من X يجب القيام بمحاولة لتجنب الإنفجار في الموضع .

من كتبَ أشياءً كهذه ؟

مرّتْ ساعة على بقائه مع القنبلة في الحفرة . استمر في سكب الأوكسجين السائل . كان على ارتفاع ذراعه إلى اليمين ، أنبوب يضخ إلى الأسفل هواءً طبيعياً لكي لايصاب بالدوار من الأوكسجين . (شاهد جنوداً متعبين من الشراب يستخدمون الأوكسجين ليعالجوا صداعهم) . جرّب الصوف القطني مرة ثانية وتجمّد هذه المرة . كان يملك حوالي عشرين دقيقة . بعد ذلك سترتفع درجة حرارة بطارية القنبلة ثانية . لكن الآن تجمّدت الصمامة ويستطيع أن يبدأ بإزالتها .

مرر يده في أعلى وأسفل علبة القنبلة ليفحص أي تمزّق في المعدن . سيكون الجزء المغمور آمناً ، إلا أن الأوكسجين يمكن أن يشتعل إذا اتصل مع متفجّر مكشوف . نقطة ضعف كارليل . إكس فوق ياء . إذا كان يوجد تمزقات عليهم أن يستخدموا النتروجين السائل .

جاء صوت هاردي من أعلى الحفرة الوحلية : « إنها قنبلة إيسو وزنها ألفا رطلٍ ياسيدي » .

« من نمط خمسين معلّمة بشكل دائري ، ب . جيبان للصمّامة على الأرجح . ولكن نعتقد أن الثانية غير مسلحة . حسناً ؟

ناقشا هذا من قبل ، إلا أن الأشياء تُؤكد ، تُذكر للمرة الأخيرة .

- « ضعني الآن على ميكروفون وتراجع .

- حسنا يا سيدي .

ابتسم « كيب » كان يصغر هاردي بعشرة أعوام وليس انكليزياً ، إلا أن هاردي كان أكثر سعادة تحت الغطاء الواقي للنظام الانضباطي . كان الجنود يترددون دائماً في مناداته بسيدي ، إلا أن هاردي نبحها بصوتٍ مرتفع وبحماس .

كان يعمل بسرعةٍ الآن لاخراج الصمامة بما أن البطاريات معطّلة .

-« هل تستطيع أن تسمعني ؟ اصفر... حسناً ، سمعتها . أخيراً غطيت بالأوكسجين . سنتركه يرغي لمدة ثلاثين ثانية . ثم ابدأ . جدِّد الجليد ، حسناً ، سأزيل الحاجز ، حسناً أُزيل الحاجز » .

كان هاردي يصغي إلى كل شيء ويسجله خشية أن يكون هناك شيء خاطئ . شرارة واحدة وسيكون « كيب » في حفرةٍ من اللهب . أو ربما توجد مزحة في القنبلة . على الشخص التالي أن يفكر بالبدائل .

ـ « أنا أستخدم مفتاح الكيلتر » . كان أخرجه من جيب صدره . كان بارداً وعليه أن يدلكه ليدفئه . بدأ يزيل حلقة القفل وحلقة الحصر وجعلهما تغوصان في الماء . شعر بهما تتدحرجان ببطء عند قدميه . سيستغرق كل شيء أربع دقائق أخرى .

« آليس تتزوج أحد الحراس » . حياة الجندي صعبةٌ بشكل مريع ، تقول آليس .

كان يغني بصوتٍ مرتفع محاولاً أن يدخل بعض الدفء إلى جسمه وكان صدره يتألم من البرد . تابع محاولة الاستناد إلى الخلف للابتعاد بما يكفي عن المعدن المتجمد أمامه . وكان عليه أن يتابع تحريك يديه إلى الأعلى إلى قفا عنقه حيث كانت الشمس ماتزال هناك ، ثم يدلكهما ليحررهما من الطين والسخام والتجلد . كان من الصعب جعل الطوق المعدني يمسك الرأس ، وارتعب حين تحطم رأس الصمامة بشكل كامل .

« هناك خطأ يا هاردي . رأس الصمامة كله تحطم . تحدث معي ، اتفقنا ؟ الجسم الرئيسي للصمامة مثبّت هنا ، لا أستطيع أن أصل إليه . لايوجد شيء مكشوف أستطيع أن أمسكه .

ـ « أين التجمد الآن » ؟ كان هاردي فوقه على صواب . كانت بضع ثوانٍ إلا أنه ركض إلى الحفرة .

« ست دقائق أخرى من التجمد » .

اخرج وسنفجرها .

« لا ، أعطني مزيداً من الأوكسجين » .

رفع يده اليمنى وشعر بأن علبة جليدية وضعت فيها .

« سوف أقطِّر الأوكسجين في منطقة الصمامة المكشوفة ـ حيث انفصل الرأس ـ ثم سأشق المعدن إلى أن أمسك بشيء . تراجع الآن ، سأتحدث معك » .

بالكاد استطاع أن يكظم غيظه حيال ما حدث . الروث ، الاسم الذي يطلقونه على الأوكسجين كان يندلق على كل ثيابه ويهسّ حين يضرب الماء . انتظر ظهور التجمّد وبدأ يقص المعدن بمعزق . سكبَ المزيد ، انتظر وقص عميقاً . حين لم يظهر شيء اقتطع قطعة من قميصه وضعها بين المعدن والمعزق ثم بدأ يدق المعزق بشكل خطير بمطرقة خشبية مزيلاً القطع . كانت قطعة قميصه أمانه الوحيد من أي شرارة . كانت المشكلة الكبرى هي برودة أصابعه . لم تعد رشيقة ، كانت معطّلة كالبطاريات . تابع القصَّ جانبياً في المعدن حول رأس الصمامة المفقود ، قاصاً إياه في طبقات ، آملاً أن التجمّد سيقبل هذا النوع من الجراحة . إذا قطع الى الأسفل بشكل مباشر يمكن أن يضرب كبسولة القدح التي تُشعل الشحنة الابتدائية .

استغرقت خمس دقائق أخرى . لم يتحرك هاردي من فوق الحفرة وبدلاً من ذلك كان يعطيه الوقت التقريبي المتبقّي للتجمّد . ولكن في الحقيقة لم يكن أي منهما متأكداً . منذ أن تحطم رأس الصمامة ، كانوا يجمدون منطقة مختلفة ورغم أن درجة حرارة الماء كانت باردة بالنسبة له ، كانت أعلى من درجة حرارة المعدن .

عندئذٍ شاهدَ شيئاً ما . لم يتجرأ على توسيع الثقب . كان موصِّل الدائرة يتذبذب مثل حالق فضّي . لو يستطيع الوصول إليها . حاول أن يدلك يديه ليدفئهما .

تنفّس وبقي هادئاً بضع ثوانٍ وقطع بالكماشة الإبرية الموصّل إلى إثنين قبل أن يزفر ثانية . شهق حين حرق التجمد جزءاً من يده حين سحبها خارج

الدارات . عُطّلت القنبلة .

أُزيلت الصمامة . أزيلت الشحنة الابتدائية . قبّلني . كان هاردي بدأ بتشغيل الرافعة وكان كيب يحاول أن يمسك الحبل ، بالكاد استطاع أن يفعل ذلك بسبب الحرق والبرد ، وكانت جميع عضلاته باردة . سمع البكرة تدور وأمسك فقط بشدّة القطع الجلدية التي كانت ماتزال نصف مثبّتة حوله . بدأ يشعر أن قدميه السمراوين تُسحبان من قبضة الوحل ، تُنتشلان كجثة غريقة من مستنقع . قدماه الصغيرتان تنهضان من الماء . بزغ ، رُفع من الحفرة إلى ضوء الشمس ، أولاً الرأس ثم الجذع .

تعلّق هناك ، حاملُ حلقة بطيئة تحت الخيمة المخروطية للقوائم التي حملت البكرة . عانقه هاردي وفكّه في الوقت نفسه وحرّره . فجأة شاهد حشداً ضخماً يراقبه على بعد عشرين ياردة . كان جريئاً جداً ، قريباً بما يكفي لتدميره ، وبالطبع لم يكن هاردي هناك ليبعدهم .

راقبوه بصمت ، الهندي معلق بكتف هاردي ، بالكاد يقدر على أن يسير إلى الجيب بعتاده كلّه ـ الأدوات والعلب والبطانيات وآلات التسجيل ماتزال تدور ، لايصغي إلى أي شيء هناك في المهوى .

« لاأستطيع أن أسير » .

« فقط إلى الجيب ، بضع ياردات فقط يا سيدي . سألتقط البقية » .

تابعا التوقف ثم السير ببطء . كان عليهما أن يعبرا الأوجه المحدّقة التي كانت تراقب الرجل الصغير الأسمر الحافي القدمين المرتدي سترة مبلّلة ، الأوجه التي كانت تراقب الوجه المرسوم الذي لم يتعرّف أو يعترف بأي شيء ، بأي منها . كانوا جميعاً صامتين ، يخطون إلى الخلف فقط ليفسحوا طريقاً له ولهاردي . بدأ يرتجف فيَ الجيب . لم تستطع عيناه أن تتحمّلا التوهج على الحاجب الزجاجي للسيارة . كان على هاردي أن يرفعه على مراحل إلى مقعد الراكب .

حين غادر هاردي ، نزع « كيب » ببطء بنطاله المبلل ولف نفسه ببطانية . ثم جلس هناك ، غير قادر حتى على فتح ترمس الشاي الساخن

الموضوع على المقعد الى جانبه بسبب التعب والبرد . فكّر : لم أكن خائفاً هناك في الحفرة . كنت غاضباً فقط ـ من خطئي ، أو من امكانية وجود مزحة . ردة فعل حيوانية لأحمي نفسي فقط .

أدرك أن هاردي هو الوحيد الذي أبقاه بشرياً .

حين يحلُ يومٌ حارٌ على فيلا « سان جيرولامو » يغسل الجميع شعرهم في البداية بالكيروسين لإزالة احتمال وجود القمل ثم بالماء . مستلقياً ، فارداً شعره إلى الخلف ، مغمضاً عينيه إزاء الشمس ، يبدو « كيب » فجأة معرّضاً . يخجلُ حين يتخذ هذه الوضعية الهشّة ويبدو كجثة من الأسطورة أكثر مما يبدو أي شيء حيَ أو بشريَ . تجلس « هنا » إلى جانبه ، بَعدَ أن جفَ شعره الرماديَ الداكن . هذه هي الأوقات التي سيتحدث فيها عن الأسرة وعن شقيقه في السجن .

يجلس ويدفع شعره إلى الأمام ويبدأ تدليكه بمنشفة . تتخيّل « آسيا » كلها عبر إيماءات هذا الرجل الواحد . الطريقة التي يتحرك فيها بكسل ، حضارته الهادئة . يتحدث عن قدّيسين محاربين وتشعر الآن أنه واحدٌ صارمٌ ورؤيوي يتوقّف فقط في هذه الأوقات النادرة لضوء الشمس ليكون ملحداً ، غير رسمي ، يعود رأسه ثانية إلى الطاولة لتجفّف الشمس شعره المتناثر كما الحنطة في سلة قشية على شكل مروحة . ورغم أنه إنسانٌ من آسيا اتخذ في هذه الأعوام الأخيرة من الحرب آباءً انكليزاً ، اتبع تعاليمهم كابنٍ مطيعٍ . « آه! إلا أن أخي يعتقد أنني أحمق لأنني وثقت بالانكليز » . يستدير نحوها وضوء الشمس في عينيه . « يقول يوماً ما سأفتحُ عينيَ . آسيا ما تزال قارة

مُستعبَدة ، ويرعبه كيف نرمي أنفسنا في الحروب الانكليزية . إنها معركة رأي خضناها دائماً . «يوما ما ستفتح عينيك» . كان أخي يقول هذا دائماً .

يقول اللغام هذا وعيناه مغمضتان بشدة ، ويسخر من الاستعارة . «اليابان جزء من آسيا ، أقول ، وعامل اليابانيون السيخَ بوحشية في الملايا ، إلا أن أخي يتجاهل هذا . يقول إن الانكليز يشنقون السيخ الذين يقاتلون من أجل الاستقلال» .

تسيرُ مبتعدة عنه وذراعاها مطويتان . ضغائن العالم . ضغائن العالم . تمشي في الظلمة النهارية للفيلا وتدخل لتجلس مع الانكليزي .

ليلاً ، حين تُحرّر شعره ، يصبح مرة ثانية كوكبة أُخرى ، أذرع ألف خط استواء على مخدته ، تموّجاتها بينهما أثناء العناق وأدوار نومهما . تحضن إلهة هندية بين ذراعيها ، تحضن الحنطة والشرائط . حين ينحني فوقها ينسكب . تستطيع أن تربطه على رسغها . حين يتحرك تبقي عينيها مفتوحتين لترى بعوض الكهرباء في شعره في ظلمة الخيمة .

يتنقّل دائماً عبر علاقته مع الأشياء ، قرب الجدران ، أسيجة الدكة المرفوعة . ينعم النظر في المحيط . حين ينظر إلى «هنا» يشاهد جزءاً من خدها الهزيل في إطار المنظر الذي خلفه . الطريقة التي يراقب فيها تقوّس طائر الزقّيقية على ضوء بعده عن سطح الأرض . سارَ عبر ايطاليا بعينين حاولتا أن تشاهدا كل شيء ، ماعدا ما كان مؤقتاً وإنسانياً .

إن الشيء الوحيد الذي لن يفكر به أبداً هو نفسه . لا يفكر بظله الشفقي أو بيده التي تمتد إلى قفا كرسي أو انعكاسه في نافذة أو كيف يراقبونه . لقد تعلّم في أعوام الحرب أن الشيء الوحيد الآمن هو نفسه .

يمضي ساعات مع الإنكليزي الذي يذكره بشجرة تنّوب رآها في انكلترة ، حملتْ غصنها الوحيد المريض المثقل بالعمر ركيزة صُنعتْ من شجرة أخرى انتصبتْ في حديقة اللورد سفولك على حافّة الجرف ، مطلةً على قناة « بريستول » كحارس . ورغم ضعفها ، أحسّ أن الكائن الذي في داخلها نبيلٌ يمتلك ذاكرة شعّت قوتها في ما وراء المرض .

هو نفسه لا يمتلك مرايا . يطوي عمامته في الخارج ، في الحديقة ناظراً إلى الطحالب على الأشجار . لكنه يلاحظ الرقعة التي أحدثها المقص في شعر « هنا » . يألفُ نَفَسها حين يضع وجهه إزاء جسمها ، على الترقوة ، حيث يضيء العظم جلدها . لكن إذا سألته مالون عينيها ، رغم أنه بدأ يعبدها ، تعتقد أنه لن يكون قادراً على الإجابة . سيضحك ويخمّن ، ولكن هي ، ذات العينين السوداوين إذا قالت وعيناها مغمضتان أنهما خضراوان سيصدقها . يمكن أن ينظر متقصّداً إلى العيون إلا أنه لن يسجّل لونها ، كما الطعام في حنجرته أو معدته هو فقط نسيج أكثر مما هو تذوق أو شيء مُحدَّد .

حين يتحدث شخصٌ فإنه ينظر إلى فمٍ ، لا إلى الأعين ولونها الذي يبدو أنه سيتغيّر دائماً وفق ضوء الغرفة ، الوقتٍ في النهار . تكشف الأفواه غياب الأمن أو النظافة أو أي نقطة أخرى على طيف الشخصية . بالنسبة له هي المظهر الأكثر تعقيداً للوجوه . ليس متأكداً أبداً ما يمكن أن تكشفه العين . إلا أنه يستطيع أن يقرأ كيف تتجه الأفواه نحو الصلابة وتوحي بالرقة . إن المرء يمكن أن يخطئ غالباً في الحكم على العين من ردة فعلها على شعاع شمس بسيط .

كل شيء بالنسبة له جزء من انسجام متبدّل . يراها في ساعات وأمكنة مختلفة تبدّل صوتها أو طبيعتها وحتى جمالها ، بالطريقة التي تحكم بها القوة الخلفيّة للبحر أو تهدهدُ قدرَ قوارب النجاة .

كان من عادتهم أن يستيقظوا مع بزوغ الفجر ويتناولوا الطعام في الضوء الأخير المتاح . وطوال الفترة الأخيرة من المساء ستكون هناك شمعة واحدة تتوهج في الظلمة قرب المريض الإنكليزي ، أو مصباح نصف ممتلئ بالزيت إذا كان « كارافاجيو » قد دبّر سرقة ما . إلا أن الممرات وغرف النوم الأخرى ترتع في الظلام كأنها في مدينة مدفونة . كانوا اعتادوا السير في الظلمة والأيدي إلى الأمام تلمس الجدران على كلا الجانبين بأصابعها .

« لامزيد من الضوء . لامزيدَ من الضوء . تواصل « هنا » ترديد هذه العبارة لنفسها . إن عادة « كيب » المثيرة للأعصاب في القفز على الدرج واضعاً إحدى يديه على الدرابزون يجب أن تتوقّف . تخيّلتْ قدميه تسافران عبر الهواء وتضربان معدة « كارافاجيو » العائد .

أطفأت الشمعة في غرفة الانكليزي منذ ساعة . نزعت حذاءها وفكت أزرار ردائها عند العنق بسبب حرارة الصيف ، أيضاً فتحت أزرار الكُمَّين ورفعتهما عالياً على ذراعيها . فوضى عذبة .

في طابق الجناح الرئيسي ، بغض النظر عن المطبخ والمكتبة والكنيسة المهجورة كانت ساحة داخلية زجاجية . أربعة جدران زجاجية مع باب زجاجي يدخلك إلى حيث بئر مغطاة ورفوف من النباتات الميتة لابد أنها ازدهرتْ مرّةً في الغرفة المدفأة . ذكرتها هذه الساحة الداخلية بكتاب فُتح ليكشف أزهاراً مضغوطةً . شيئاً يُنظر إليه أثناء المرور ، ولايُدخل أبداً .

كانت الثانية بعد منتصف الليل .

دخل كل منهما إلى الفيلا من باب مختلف . « هنا » من مدخل الكنيسة عبر الدرجات الست والثلاثين وهو من الساحة الشمالية . حين دخل إلى المنزل نزع ساعته ووضعها في تجويف على مستوى الصدر حيث كان يستريح قديس صغير . راعي مستشفى الفيلا هذا . لن تلمح الضوء الفوسفوري . كان نزع حذاءه مرتدياً بنطلوناً فقط انطفأ الضوء المثبت على ذراعه . لم يحمل شيئاً آخر . وقف هناك لوهلة في الظلمة فتى نحيل ، عمامة داكنة ، الكارا Kara مرخاةً على رسغه إزاء الجلد . استند على زاوية الممرَ كأنه رمح .

ثم انحدر عبر الساحة الداخلية . دخلَ إلى المطبخ وحالاً أحسَ بوجود كلب في الظلام فأمسكه وربطه بحبل إلى الطاولة . أخذَ الحليب المكثف عن رف المطبخ وعاد إلى البيت الزجاجي في الساحة الداخلية . مرر يديه على قاعدة الباب ووجد العصي الصغيرة تستند إليه . دخل وأغلق الباب خلفه وفي اللحظة الأخيرة مدَ يده ليثبّت العصي على الباب ثانية . في حالة أنها شاهدته . ثم هبط إلى البئر . كان يوجد لوح خشبي قاطع على عمق ثلاثة أقدام عرف أنه قويَ . أغلق الغطاء خلفه وانحنى هناك متخيلاً أنها تبحث عنه أو تختبئ . بدأ يمصَ علبة الحليب المكثّف .

اشتبهتْ أنه سيفعل شيئاً من هذا القبيل . بعد أن شقّت طريقها إلى المكتبة ، أشعلتْ الضوء الذي على ذراعها ومشت إلى جانب خزائن الكتب التي كانت تمتدُ من كواحلها إلى ارتفاعات لامرئية فوقها . كان الباب مغلقاً وهكذا لا ضوء سيكشف نفسه لأي شخص في الصالات . سيكون قادراً في الخارج فقط . كانت تتوقف كل بضعة أيام باحثة مرة أخرى بين الكتب الإيطالية المهيمنة عن الكتاب الانكليزي الغريب التي تستطيع أن تقدَمه للمريض الإنكليزي . بدأت تحب هذه الكتب ذات الكعوب الإيطالية ، صور الأغلفة ، الرسومات اللونية والغلاف النسيجي ، رائحتها ، حتى صوت الطقطقة حين تفتحها بسرعة كأنها سلسلة صغيرة غير مرئية من العظام . توقفتْ مرة

أخرى ، دير بارم .

إذا حصل وتخلّصت من متاعبي ، قال لسليليا ، سأزور الصور الجميلة في بارما وعندها هل ستتفضلين وتذكرين الإسم : فابريزيو ديل دونغو .

كان « كارافاجيو » يستلقي على السجادة في النهاية القصوى للمكتبة . بدا من ظلمته أن ذراع « هنا » اليسرى كانت فوسفوراً خاماً يضيء الكتب عاكساً الاحمرار على شعرها القاتم متوهجاً على قطن ردائها وكمها المثني وعند كتفها .

خرج من البئر

انتشر الضوء الذي يبلغ قطره ثلاثة أقدام من ذراعها ثم امتصّه السواد حتى أن « كارافاجيو » شعر بوادٍ من الظلمة بينهما . وضعت الكتاب ذا الغلاف الرمادي تحت ذراعها . حين تحركت ، ظهرت كتبٌ جديدة واختفت أخرى .

لقد كبرتْ . وأصبح يحبها الآن أكثر مما أحبها حين فهمها بشكل أفضل ، حين كانت نتاج والديها . ما كانت عليه الآن هو ما قررت بنفسها أن تصبحه . كان يعرف أنه لو عبر قرب « هنا » في شارع في أوروبا فسوف تعرفه . إلا أنه لن يقدر على التعرّف عليها . في الليلة الأولى لمجيئه إلى الفيلا قنّع صَدْمته . امتلأ وجهها المتقشّف الذي بدا بارداً في البداية ، حدةً . أدرك أثناء الشهرين الأخيرين أنه تعوّد على ماهي عليه الآن . بالكاد صدّق متعته إزاء تحولها . قبل أعوام حاول أن يتخيّلها كراشدةٍ إلا أنه ابتكر شخصاً بمواصفات صيغتْ من جماعتها لا تنطبق على هذه الغريبة الرائعة التي يمكن أن يحبها بشكل أعمق لأنها لم تتشكل من أي شيء قدّمه هو .

استلقتْ على الصوفا وخفضت المصباح إلى الأسفل لتستطيع أن تقرأ ، وكانت غرقتْ عميقاً في الكتاب . فيما بعد نظرت إلى الأعلى مصغيةً ثم أطفأت المصباح بسرعة .

أكانت واعية وجوده في الغرفة ؟ كان « كارافاجيو » مدركاً ضجة تنفّسه والصعوبة التي كان يعانيها من التنفّس بطريقة منظمة رزينة . أشعل الضوء لحظةً ثم أطفئ بسرعةٍ مرة أخرى .

ثم بدا أن كل شيء في الغرفة يتحرك ماعدا « كارافاجيو » . استطاع أن يسمع كل هذا حوله مندهشاً أنه لم يُلْمس . كان الصبيّ في الغرفة . سار « كارافاجيو » إلى الصوفا ومدّ يده نحو « هنا » . لم تكن هناك . حين انتصب التفّ ذراع حول عنقه وسحبه إلى الأسفل . توهج ضوء بقسوة على وجهه وشهق كلاهما حين سقطا نحو الأرض . كانت الذراع التي تحمل الضوء ماتزال تمسكه من عنقه ، ثم ظهرت قدمٌ عارية في الضوء وعبرت وجه « كارافاجيو » وخطت على عنق الصبي قربه . اشتعل ضوء آخر . «لقد أمسكتك . لقد أمسكتك» .

نظر الجسدان اللذان على الأرض إلى شكل « هنا » المظلم فوق الضوء المظلم . كانت تغني : «لقد أمسكتك ، أمسكتك» . استخدمت « كارافاجيو » الذي يصدر في الحقيقة أزيزاً سيئاً . عرفتُ أنه سيكون هنا . لقد كان هو الخدعة .

ضغطت قدمها بشدّة أكبر على عنق الصبي . «استسلم . اعترف» .

بدأ « كارافاجيو » يرتجف في قبضة الصبي مغطى بالعرق ، غير قادر على تخليص نفسه . كان توهج الضوء من كلا المصباحين متركزاً عليه . كان عليه نوعاً ما أن يتسلق ويزحف خارج هذا الرعب . اعترفْ . كانت الفتاة تضحك . احتاج أن يخفض صوته قبل أن يتحدث ، إلا أنهما بالكاد كانا يسمعان ، مثارين من مغامرتهما . خلص نفسه من قبضة الصبي المرتخية دون أن يتفوّه بكلمة وغادر الغرفة .

أصبحا في الظلمة ثانية . تسأله : « أين أنت » ؟ ثم تتحرّك بسرعة . يتخذ موقعاً بحيث تصطدم بصدره . تضع يدها على عنقه ثم فمها على فمه . « حليبٌ مكثّف »! أثناء مناقشتنا ؟ « حليب مكثّف » ؟ تضع فمها على عنقه ، على عرقه ، وتتذوّقه حيث كانتْ قدمه العارية . « أريد أن أراك » . يشتعل مصباحه ويراها ، وجهها ملطخ بالوسخ ، شعرها مشوش في دوامة بسبب التعرّق . تبتسم له .

يضع يديه النحيلتين في الكمين المرخيين لثوبها ويمسك كتفيها بيديه . إذا انحرفت الآن ، ستنحرف يداه معها . تبدأ بالاستناد واضعة كل ثقلها في السقوط إلى الخلف واثقة أنه سينحدر معها ، واثقة أن يديه ستوقفان السقطة . ثم سيلتف رافعاً قدميه في الهواء . يداه وذراعاه وفمه عليها وبقية الجسد ذيل سرعوف . مايزال المصباح مثبّتاً على عضلة وعرق ذراعه اليسرى . ينزلق وجهها في الضوء ليقبّل ويلعق ويتذوّق . تنشّف جبهته نفسها في رطوبة شعرها .

فجأة يعبر الغرفة ويقفز مصباحه في كل المكان ، أمضى أسبوعاً في هذه الغرفة متخلصاً من جميع الصمامات المحتملة فأصبحت آمنة . وكأن الغرفة بزغتْ أخيراً من الحرب ، لم تعد حزاماً أو إقليماً . يتحرّك مع المصباح مؤرجحاً ذراعه ، كاشفاً السقف ووجهها الضاحك حين يعبرها وهي واقفة على الصوفا تنظر إلى تلألؤ جسمه النحيل . في المرة التالية التي يعبرها فيها يرى أنها تنحني إلى الأسفل وتمسح ذراعيها بحافة ثوبها . تغني : « ولكنني أمسكتك ، أمسكتك » . أنا موهيكانيّ شارع دانفورث » .

ثم تركب على ظهره وينحرف ضوؤها على ظهور الكتب في الرفوف العالية ، ذراعاها ترتفعان وتنخفضان وهو يدوّرها وترمي ثقلها إلى الأمام ، تسقط وتمسك فخذيه ، ثم تنهض دائرة وتتحرّر منه ، وتعود إلى الاستلقاء على السجادة القديمة التي ما تزال مضمخة برائحة المطر القديم ويعلق الغبار والرمل على ذراعيها الرطبتين . ينحني عليها ، تمتد يدها وتطفئ مصباحه .

«لقد ربحت ، أليس هذا صحيحاً ؟ مايزال صامتاً منذ أن دخل إلى الغرفة . يدخل رأسه في تلك الإيماءة التي تحبها والتي قد تكون انحناءة رأس ، أو هزّة عدم اتفاق محتمل . لا يستطيع أن يشاهدها بسبب التوهج . يطفئ ضوءها فيصبحان متساويين في الظلمة .

شهرٌ واحدٌ في حياتهما نامت فيه «هنا» و «كيب» إلى جانب بعضهما . تبتّلٌ رسمي بينهما . اكتشفا أنه يمكن أن يوجد في ممارسة الجنس حضارة كاملة ، بلاد برمتها أمامهما . حبُّ فكرة وجوده أو وجودها . لا أريد أن يُمارس الجنس معي . لاأريد أن أمارس الجنس معك . لا أحد يعرف أين تعلَم ذلك أو أين تعلمت هي ذلك ، في شباب كهذا .

ربما من «كارافاجيو» ، الذي تحدث معها أثناء تلك الأمسيات عن عمره ، عن الرقة تجاه كل خلية في عاشق والتي تجيء حين يكتشف المرء فناءه . إن هذا العصر بعد كل شيء ، عصر فانٍ . أتمّت رغبة الصبيّ نفسها فقط في نومه العميق حين يكون بين ذراعي «هنا» ، إن ذروته الجنسية متعلقة بشكل أكبر بجاذبية القمر ، بجذب الليل لجسده .

طوال المساء يستند وجهه النحيل على أضلاعها . ذكرته بمتعة الحكّ ، حين تدور أظافرها وهي تحك ظهره . كان هذا شيئا علمته إياه مربّية منذ سنوات الصغر . كل تلك الراحة والهدوء أيام الطفولة جاءت منها كما تذكر «كيب» ، وليس أبداً من الأم التي أحبها أو من شقيقه أو والده الذين لعب معهما . حين يخاف أو لايقدر على النوم كانت المربية هي التي تتعرّف على حاجته وكانت تقوده إلى النوم بسهولة واضعة يدها على ظهره الصغير النحيل ، تلك الغريبة المحبّة التي جاءت من جنوب الهند والتي عاشت معهم وساعدتهم

على إدارة المنزل وطبختْ وقدّمت لهم الوجبات ، وأحضرت أولادها إلى صدفة المنزل ، بَعْد أن أراحت شقيقه الأكبر أيضاً في الأعوام الأولى وعلى الأرجح عرفتْ شخصية جميع الأطفال بشكل أفضل من آبائهم .

كانت عاطفة متبادلة . لو سئل « كيب » من يحبُ أكثر لسمّى المربّية قبل أمه . كان حبها يبعث الراحة أعظم من أي حب قائم على قرابة الدم أو من أي حب جنسي بالنسبة له . سيدرك فيما بعد ، أنه اندفع خارج العائلة ليجد حُباً كهذا . الحميمية الأفلاطونية ، أو أحيانا الحميمية الجنسية لغريبةٍ . سيكون عجوزاً تماماً قبل أن يتعرّف على هذا في نفسه ، قبل أن يقدر أن يسأل حتى نفسه سؤال من يحبُ أكثر .

مرةً فقط شعر أنه قدّم لها بعض الراحة ، رغم أنها فهمتْ حبه لها . حين ماتتْ أمها زحف إلى غرفتها وحضن جسمها الذي هرمَ فجأة . استلقى قربها صامتاً ، قرب بكائها في غرفة الخدم الصغيرة حيث كانت تبكي بوحشية وبرسمية . راقبها حين جمعت دموعها في فنجان صغير حملته إزاء وجهها . عرف أنها ستأخذ هذا إلى الجنازة . كان خلف جسدها المحنيّ ، يداه اللتان تبلغان التاسعة من العمر على كتفيها ، وحين تهدأ أخيراً وتصدر بين فينة وأخرى ارتعاشةً ، يحك جسمها عبر الساري ثم يسحبه جانباً ويحك جلدها ـ كما تلقتْ « هنا » هذا الفن الرقيق ، واضعاً أظافره على الخلايا المليون لجسمها ، في خيمته ، في ١٩٤٥ ، حيث تلاقتْ قارتاهما في بلدةٍ تليّةٍ .



IX

كهف السبّاحين

لقد وعدت أن أخبرك كيف يحبّ المرء .

قابلَ شابٌ يدعى « جيوفري كليفتون » صديقاً في أوكسفورد ذكرَ ما كنا نفعله . اتصل بي ، تزوج في اليوم التالي وبعد أسبوعين طارَ مع زوجته إلى القاهرة . كانا في الأيام الأخيرة لشهر عسلهما . كانت تلك بداية قصّتنا .

حين قابلتُ « كاثرين » كانتْ مُتزوجة . امرأة متزوّجة . هبط « كليفتون » من الطائرة ثم بزغتْ بشكلٍ غير متوقّع لأننا خطّطنا للبعثة مفكْرين به فقط . كانت ترتدي شورتاً خاكياً وعظام ركبتيها بارزة . كانت في تلك الأيام متحمسة جداً للصحراء . أحببتُ شبابه أكثر مما أحببتُ تلهف زوجته الشابة الجديدة . كان طيارنا ، رسولنا ، مستطلعنا . كان العصر الجديد ، يطير ويسقط شيفرات من الشرائط الحمراء الطويلة لينصحنا أين يجب أن نكون . وتحدَّث عن عبادته لها باستمرار . كنا أربعة رجال وامرأة وزوجها الذي يعيش متعه اللفظية حيال شهر العسل . ذهبنا إلى القاهرة وعادا بعد شهر ، وكان الأمر نفسه تقريباً . كانت هذه المرة أكثر هدوءاً . إلا أنه كان هو الذي يتمتّع بالشباب . ستجلس على تنكات نفطٍ واضعة يديها على فكها ومرفقيها على ركبتيها محدقةً بقماشٍ مشمَع يصطفق باستمرار وكليفتون

يستعرضُ مدائحه لها . حاولنا أن نخرجه من ذلك عن طريق المزاح ولكن أن نتمناه أكثر احتشاماً سيكون هذا ضدّه ولا أحد منا أراد ذلك .

كانت مُصْمتة بعد ذلك الشهر في القاهرة ، تقرأ باستمرار وتنصرف إلى نفسها أكثر وكأن شيئاً قد حصل أو أنها أدركت فجأةً ذلك الشيء العجيب عن الكائن البشري ، أنه يستطيع أن يتغيّر . لم يكن عليها أن تبقى الاجتماعية البارزة التي تزوّجت مغامراً . كانت تكتشف نفسها . وكان من المؤلم مراقبة تثقيفها الذاتي لأن « كليفتون » لم يستطع أن يشاهده . كانت تقرأ كلّ شيءٍ عن الصحراء . استطاعت أن تتحدّث عن العوينات والواحة الضائعة واصطادت حتى المقالات الهامشية .

كنت رجلاً يكبره بخمسة عشر عاماً ، أتفهمين . وصلتُ إلى تلك المرحلة من العمر حين تم تحديدي مع الأوغاد المتشائمين في كتاب . لا أؤمن بالاستمرارية ، بالعلاقات التي تمتدّ قروناً . كنتُ أكبرها بخمسة عشر عاماً ، إلا أنها كانت أذكى مني ، كانت أكثر جوعاً للتغيّر مما توقّعت .

ما الذي بدّلها أثناء شهر عسلهما المؤجّل على مصبّ النيل ، خارج القاهرة ؟ شاهدناهما بضعة أيام ـ وصلا بعد أسبوعين من زواجهما في « تشيشر » . أحضر عروسته معه بما أنه لا يستطيع أن يتركها ويحنث بالتزامه معنا ، أنا ومادوكس ، وإلا لكنّا التهمناه . وهكذا بزغتْ ركبتاها العظيمتان من الطائرة في ذلك اليوم . كان هذا هو عبء قصّتنا ، موقفنا .

احتفل كليفتون بجمال ساعديها ، بالخطوط النحيلة لكاحليها . وصف كيف شاهدها تسبح . تحدّث عن الحمامات الجديدة في أجنحة الفنادق ، عن نهمها الشديد أثناء تناول وجبة الفطور .

لم أقلْ كلمةً واحدة عن كلّ هذا . سأنظر أحياناً وهو يتحدّث وألتقط نظرتها تشهد على سخطي الصامت ، ثم ابتسامتها المتحاشمة . كان بعض السخرية في الجوّ . كنت الرجل الأكبر سناً ، رجل العالم الذي سار منذ عشرة

أعوام من واحة «الداخلة» إلى «كيلف كيبر» ، الذي رسم خريطة «فرافرة» وعرف «بُرْقة» وضاع أكثر من مرتين في بحر الرمل . قابلتني حين كنت أحمل كلّ تلك المواصفات ، أو كان بوسعها أن تنعطف بضع درجات وتشاهد المواصفات في مادوكس . ومع ذلك ، وبغض النظر عن الجمعية الجغرافية ، كنا طائفة دينية تقريباً عثرت عليها بسبب هذا الزواج .

لم تعن شيئاً كلمات زوجها في مدحها . إلا أنني رجلٌ حَكَمَتْ حياته الكلمات بطرقٍ عديدة ، حكمتها الإشاعات أو الحكايات والأشياء المرسومة في خرائط والكِسر المكتوبة ، براعة الكلمات . إن تكرار شيء ما في الصحراء هو كَدَلْق مزيدٍ من الماء على الأرض .

كانت ظلال معانيها تأخذك مائة ميل .

كانت بعثتنا على بعد أربعين ميلاً من «العوينات» ، وكنت أنا ومادوكس سنذهب حالاً وحدنا لنقوم بالاستطلاع . وكان يجب أن تبقى عائلة كليفتون والآخرون في الخلف . أنهت جميع كتبها وطلبت مني كتاباً . لم يكن معي إلا الخرائط . «ذلك الكتاب الذي تنظر فيه مساءً ؟ هيرودت . آه . تريدين ذلك ؟ «لاأستطيع» . «إذا كان خاصاً» . إنه يحتوي على ملاحظاتي وقصاصاتي . أحتاجه معي» . «اعذرني . كان هذا اعتداء منيّ» . حين أعود سأريه لك . من غير العادي بالنسبة لي أن أسافر بدونه» .

حصل كلُّ هذا بتودد كبير . شرحت إنه كتاب عادي ووافقت على ذلك . كنت قادراً على المغادرة دون أن أشعر أنني بأية طريقة أنانيَ . لقد أقررت بتهذيبها . لم يكن «كليفتون» هناك . كنا وحيدين . كنت أحزم حقائبي في خيمتي حين اقتربت مني . أنا رجلٌ أدار ظهره لأشياء كثيرة في عالم المجتمع ، إلا أنني أقدَر أحياناً دقة الأسلوب .

عدنا بعد أسبوع . حدثَ الكثير بخصوص الاكتشاف وجمع الأشياء المبعثرة . كانت معنوياتنا مرتفعة . وأقيم احتفال صغير في المعسكر . كان

« كليفتون » دائماً شخصاً يحتفل بالآخرين . كان هذا مُعْدياً .

اقتربت مني حاملة كوب ماء . « تهانينا ، لقد سمعت من جيوفري » - « نعم » . « خذ . اشرب هذا . فتحت يدي ووضعت الكأس على راحتي . كان الماء بارداً جداً بالمقارنة مع الماء الذي كنا نشربه من المزادات . « خطّط « جيوفري » لحفلة من أجلك . إنه يكتب أغنية ويريدني أن أقرأ قصيدة ، إلا أنني أريد أن أقوم بشيء آخر . « هنا » . خذي الكتاب وألقي نظرة عليه . أخرجت الكتاب من حقيبتي وقدّمته لها .

بعد الوجبة والشاي أخرج « كليفتون » زجاجة كونياك خبأها عن الجميع إلى هذه اللحظة . شربت الزجاجة كلها في ذلك المساء أثناء قصة مادوكس عن رحلتنا ، وأغنية « كليفتون » المضحكة . ثم بدأت تقرأ من كتاب التواريخ قصة كاندوليس وملكته . دائماً أتجاوز تلك القصة . إنها في أول الكتاب وليس فيها ما يتعلّق بالأمكنة والفترة التي أهتمّ بها . إلا أنها قصة مشهورة بالطبع ، وكانت هي ما اختارت أن تتحدث عنه :

> أصبح كاندوليس هذا مُتيَّماً بحبّ زوجته ، وبعد أن أصبح هكذا ، اعتبر أن زوجته تبزّ بجمالها جميع النساء الأخريات واعتاد أن يصف لكيجس ابن داسكيلوس والأكثر امتاعاً له من بين جميع رمّاحيه ، جمال زوجته بشكل يفوق أي وصف .

- هل تصغي ياجيوفري ؟
- نعم ، يا عزيزتي .

> قال لكيجس : كيجس ، أعتقد أنك لاتصدقني حين أخبرك عن جمال زوجتي لأنه يحدث أن تكون آذان الرجال أقل ميلاً للتصديق من عيونهم ولذلك عليك أن تستنبط وسيلة لتنظر إليها عاريةً .

أشياء عديدة يمكن أن يقولها المرء ، وعرفت أنني سأصبح في النهاية عشيقاً لها . تماما كما سيصبح « كيجس » عشيق الملكة وقاتل « كاندوليس » . كنت أفتح كتاب هيرودت من أجل مفتاح حول الجغرافيا إلا أن « كاثرين » فعلت ذلك من أجل نافذةٍ في حياتها . كان صوتها حذراً وهي تقرأ مركزة عينيها على الصفحة حيث القصة وكأنها تغوص في الرمال المتحركة وهي تتحدث .

« في الحقيقة أؤمن أنها الأجمل بين جميع النساء وأتوسّل إليك ألاّ تطلب مني أن أفعل ماهو مخالف للقانون » . إلا أن الملك أجابه : « تشجّع يا كيجس ولا تخش من أنني أقول لك هذا الكلام لأجربك أو من زوجتي خشية أن تتأذى من ذلك . سأرتب الأمر بحيث أنها لن تدْرك أنك شاهدتها » .

هذه هي قصة وقوعي في غرام تلك المرأة التي قرأتْ لي قصة معيّنة من كتاب « هيرودت » . سمعتُ الكلمات التي تفوهت بها عبر النار دون أن أنظر إليها أبداً حتى حين كانت تحرض زوجها . ربما كانت تقرأ له فقط ، ربما لم يكن باعث خفيٌّ وراء اختيارها إلا بالنسبة لهما . كانتْ ببساطة قصة صدمتها بألفة موقفها . لكن انكشف فجأة ممرّ في الحياة الواقعية ، رغم أنها لم تتصوّرها كخطوة أولى ضالة في أية حال . أنا متأكد .

سأضعك في الغرفة حيث ننام ، خلف الباب المفتوح ، وبعد أن أدخل ستأتي زوجتي لتستلقي أيضاً . يوجد الآن كرسي قرب مدخل الغرفة تضع عليه ثيابها حين تخلعها قطعة بعد أخرى وهكذا ستقدر على التحديق بها بحرية تامة .

إلا أن الملكة تشاهد « كيجس » حين يغادر غرفة النوم . تفهم عندئذ ما الذي فعله زوجها ، ورغم أنها شعرتْ بالعار ، لم تحتج... وحافظتْ على هدوئها .

هذه قصّة غريبة . أليس كذلك يا « كارافاجيو » ؟ تفاهةُ رجلٍ إلى حدّ أن يرغب في أن يكون مثاراً للحسد . أو يرغب في أن يُصدّق لأنه يعتقد أنه لا يُصدّق . كانت هذه صورة « كليفتون » بشكل مؤكد ، إلا أنه أصبح جزءاً من هذه القصة . ثمت شيء صادم جداً إلا أنه إنساني في فعل الزوج .

تستدعي الزوجة في اليوم التالي « كيجس » وتمنحه خيارين :

« يوجد الآن طريقان مفتوحان أمامك وسأخيّرك بين الإثنين . إما أن تذبح « كاندوليس » وتمتلكني أنا والمملكة « ليديا » أو ستُذبح هنا في مكانك بحيث لايمكن أن ترى في المستقبل ، عبر طاعتك « لكاندوليس » مايجب ألا تراه . إما أن يموت من خطّط لهذا أو تموت أنت الذي نظر إليّ وأنا عارية .

وهكذا يُقْتَل الملك ويبدأ عصرٌ جديد ، كُتِبَتْ قصائد عن « كيجس » في البحر الأيامبي . كان أول البرابرة الذين أشاروا إلى أشياء في « دلفي » . حكم كملكٍ « لليديا » ثمانية وعشرين عاماً لكننا مانزال نذكره كشخصٍ في قصة حب غير عاديةٍ فقط .

توقفت عن القراءة ونظرتْ إلى الأعلى ، خارجَ الرمال المتحركة . كانت تدور وهكذا غيّرت القوة اليدين . في غضون ذلك وبمساعدة حكايةٍ وقعت في الغرام .

إن الكلمات تمتلك قوةً يا « كارافاجيو » .

حين لاتكون عائلة « كليفتون » معنا ، تكون في القاهرة ، لأن « كليفتون » يقوم بعمل آخر للإنكليز لا يعرف إلا الله ماهو ، ربما لِعمٍّ في مكتب حكومي ما . حدثَ هذا كله قبل الحرب . ولكن في ذلك الوقت كانت جميع الأمم تسبح في تلك المدينة ، حيث كانا يلتقيان في حديقة « جروبي » من أجل الحفلات

الساهرة ويرقصان في الليل . كانا زوجين شابّين مشهورين بشرفهما وكنت أنا في محيط مجتمع القاهرة . عاشا بشكل جيدٍ حياةً احتفالية كنت أنزلق فيها بين فينة وأخرى . وجبات عشاء ، حفلات حدائق ، وقائع لم أكن أهتم بها إلا أنني ذهبت إليها لأنها كانتْ هناك . أنا رجلٌ يصوم إلى أن يعثر على مايريده .

كيفَ أشرحها لك ؟ باستخدام يدي ؟ بالطريقة التي أستطيع فيها أن أتقوّس في الهواء على شكل هضبةٍ أو صخرة ؟ كانتْ جزءاً من البعثة لمدة عامٍ تقريباً . شاهدتها وتحدّثت معها . وكان كلّ منا يجعل نفسه في حضور الآخر بشكل مستمر . فيما بعد ، حين أصبحنا مدركين الرغبة المتبادلة تطوفنتْ تلك اللحظات السابقة في القلب ، إيحائية الآن ، مسكة الذراع المتوترة تلك على جُرْفٍ ، النظرات التي فُقِدتْ أو أسيءَ تأويلها .

نادراً ما تواجدت في القاهرة في ذلك الوقت . كنت أقضي شهراً من كل ثلاثة أشهر في قسم الدراسات المصرية . بدأت العمل على كتابي الذي دعوته الاستكشافات الأخيرة في الصحراء الليبية ومع مرور الأيام اقتربت أكثر من النص وكأن الصحراء كانت في مكان ما على الورقة ، وهكذا استطعت حتى أن أشمَ الحبر حين خرج من القلم ، وصارعت بشكل متزامن حضورها القريب أكثر هوساً ، إذا جاز قول الحقيقة ، بفمها المحتمل ، بأناقة ركبتها ، بسهل معدتها الأبيض حين كنت أكتب كتابي القصير الذي يبلغ سبعين صفحة ، المحكم والدقيق والمكتمل بخرائط السفر . رغبتُ في أن أهدي الدراسة إليها ، إلى صوتها ، إلى جسدها الذي تخيلته ينهض أبيض من الفراش كقوس ، إلا أنه كتابٌ أهديته إلى ملك . واعتقدت أنها ستسخر من هوسٍ كهذا وسترعاه بهزّة رأسها المستاءة والمهذّبة .

بدأت أصبح رسمياً بشكلٍ مضاعف برفقتها . وهذه ميزة لطبيعتي ، وكأنني مرتبك من عُرْيٍ تمّ كشفه . إنها عادة أوروبية . وكان من الطبيعي بالنسبة لي ـ بعد أن ترجمتها في نصّين عن الصحراء ـ أن أرتدي الآن لباساً معدنياً أثناء حضورها .

إن القصيدة الوحشية بديل
للمرأة التي يحبها المرء أو التي عليه أن يحبها
قصيدة ملحمية وحشية ، نسخة مزيفة عن أخرى .

في مرعى حسنين بيك ـ الرجل المهيب من بعثة عام ١٩٢٣ ـ سارت مع المساعد الحكومي « راوندل » وسلمت عليّ باليد وطلبت منه أن يحضر لها شراباً واستدارت إلي وقالت : « أريدك أن تغتصبني » . عاد « راوندل » كان الأمر وكأنها سلّمَتْني سكّيناً . في غضون شهر أصبحت عشيقها . في تلك الغرفة فوق السوق ، إلى الشمال من شارع الببغاوات .

غصتُ حتى ركبتيَ في الصالة المبلّطة بالموزاييك ووجهي على ستارةِ ملاءتها ، الطعم المالح لتلك الأصابع في فمها . كنا تمثالاً غريباً ، كلانا ، قبل أن نبدأ بفتح قفل جوعنا . أصابعها تحكُّ الرملَ في شعري الذي يرقّ . القاهرة وجميع صحاريها حولنا .

أكان ذلك رغبة في شبابها ، في صبيانيتها الرقيقة الماهرة ؟ كانت حدائقها هي الحدائق التي تحدثت عنها حين حدّثْتكِ عن الحدائق .

كان في حنجرتها الفجوة الصغيرة التي سميّناها البوسفور . سأغوص من كتفها إلى البوسفور وأريح عينيَ هناك . سأركع بينما تنظر إليّ بسخرية كأنني غريبٌ شارد . إنها تمتلك نظرة شاردة . تضع يدها الباردة فجأةً على عنقي في باصٍ قاهري . أخذنا تاكسياً مغلقة وتبادلنا لمسات سريعة بين جسر الخديوي اسماعيل ونادي « تيبيراري » أو الشمس عبر أظافرها في رواق الطابق الثالث في المتحف حين غطَّت يدها وجهي .

كان هناك شخصٌ واحد يجب أن نتجنَب أن يشاهدنا . إلا أن جيوفري كليفتون كان رجلاً منطمراً في الآلة الانكليزية . يعود نسب أسرته إلى « كانيوت » . ليس من الضروري أن تكون الآلة قد كشفت لكليفتون المتزوج منذ ثمانية عشر شهراً فقط ، خيانة زوجته ، إلا أنها بدأتْ تُطوِّق الخطأ ، المرضَ في النظام وعرفتْ كل حركةٍ قمنا بها من اليوم الأول للمسّة المرتبكة

في فندق سميراميس .

تجاهلت ملاحظاتها عن أقرباء زوجها وكان جيوفري كليفتون غافلاً مثلنا عن نسيج العنكبوت الانكليزي الكبير الذي فوقنا . إلا أن نادي الحراس الشخصيين اهتمّ بزوجها وحماه . مادوكس الذي كان أرستقراطياً يمتلك علاقات حكومية عرف بهذه الالتفافات المكتومة فقط . مادوكس فقط ، وبحساسية لبقةٍ حذّرني من عالم كهذا . حملت هيرودت ومادوكس ـ قدّيس في زواجه ـ حملتُ « آنا كارنينا » ، مُعيداً قراءة قصة الحب والخداع باستمرار . مرةً ، بعد أن تأخرنا جداً عن تجنب الآلة التي سبّبنا دورانها ، حاول أن يشرح عالم « كليفتون » من خلال شقيق « آنا كارنينا » . أعطني كتابي ، أصغ إلى هذا :

كان نصف موسكو وبطرسبورغ أقرباء أو أصدقاء لأوبلونسكي . وُلِدَ في دائرة البشر الذين كانوا ، أو أصبحوا عظماءَ هذه الأرض . كان ثلث العالم الرسمي ، الرجال العجائز ، أصدقاء والده ويعرفونه منذ أن كان طفلاً... بالتالي ، كان موزّعو بركات هذا العالم أصدقاءه ، ولن يتركوا واحداً منهم... كان من الضروري فقط عدم الاعتراض أو الحسد ، عدم إثارة الخصام وتلقي الإهانة ، الأمر الذي لم يفعله أبداً بسبب لطفه الطبيعي .

بدأت أحب نقر ظفرك على المحقنة يا « كارافاجيو » . في المرة الأولى التي حقنتني بها « هنا » بالمورفين في حضورك كنت قرب النافذة وعلى صوت نقر ظفرها مالَ عنقك نحونا . أعرف رفيقاً . الطريقة التي سيعرف بها عاشق دائماً تمويه عشّاق آخرين .

تريدُ النساء كلَّ شيءٍ من عاشق ، وغالباً ما كنتُ أغوصُ تحت السطح . هكذا تختفي الجيوش تحت الرمل . وكان هناك خوفها من زوجها ، إيمانها بشرفها ، رغبتي القديمة في الكفاية الذاتية ، اختفاءاتي ، شكوكها بي ، عدم إيماني أنها أحبّتني . جنون ارتياب ورهاب احتجاز الحبّ المخبوء .

قالت لي : « أعتقد أنك فقدت إنسانيتك .

ـ « لستُ الخائن الوحيد » .

ـ « لا أعتقد أنك تأبه ـ لأن هذا حدث بيننا . تعبر كلَّ شيءٍ بخوفك وكرهك للملكية ، للامتلاك ، من أن تُمْتلك أو تُسمَى . تعتقد أن هذا فضيلة . أظن أنك لستَ بشرياً . إذا تركتك ، إلى من ستذهب ؟ هل ستجد عشيقةً أخرى ؟ » .

لم أقل شيئاً .

ـ « انكرْ ذلك ، تباً .

كانت تريدُ الكلمات دائماً ، تحبها ، تتغذى عليها . منحتها الكلمات الوضوح ، أحضرتْ العقل ، الشكل ، بينما اعتقدت أن الكلمات عواطف محنيّة كالقصب في الماء .

عادت إلى زوجها .

وعند هذه النقطة همستْ ، إما أننا سنجد أو سنفقدُ روحينا .

البحار تنتقل بعيداً ، فكيفَ الأمر مع العشاق ؟ مرافئ « إنيسوس » أنهار هيراقليط تختفي وتحل مكانها مصبّات من الطمي . تصبح زوجة كاندوليس زوجة « لكيجس » والمكتبات تحترق .

ماذا كانتْ علاقتنا ؟ خيانة لأولئك الذين كانوا حولنا ، أو رغبة في حياةٍ أخرى ؟

عادتْ إلى حياتها في المنزل إلى جانب زوجها وتقاعدت في البارات الزنكية .

سأكون ناظراً إلى القمر

بيدَ أنني سأراكِ .

عمل هيرودت الكلاسيكي ، يدندن ويغنّي تلك الأغنية مرةً بعد أخرى ، مرقّقاً الأبيات ليدخلها في حياة شخص ما . إن البشر يتعافون من الفقدان السري بأشكال متنوعة . شاهدني أحد أفراد حاشيتها أجلس مع تاجر توابل . أخذت منه

مرةً كشتباناً قصديرياً يحتوي زعفراناً . واحد من بين عشرة آلاف شيء .

ولو أن باغنولد ـ بعد أن شاهدني أجلس مع تاجر التوابل ـ نقل الحادثة أثناء العشاء حول الطاولة حيث كانتْ تجلس ، كيف سأشعر حيال هذا ؟ هل منحتني بعض الراحة بأنها ستذكر الرجل الذي قدَّم لها هدية صغيرة ، كشتباناً قصديرياً علقته على سلسالٍ قاتمٍ رقيقٍ حول عنقها لمدة يومين ، حين كان زوجها خارج البلدة ؟ مايزال الزعفران فيه ، وهكذا ماتزال صبغة الذهب على صدرها .

كيف تلقتْ تلك القصة عني أنا المنبوذ في المجموعة ، بعد مشهدٍ ما أو آخر حيث ألحقتُ العار بنفسي ، وباغنولد يضحك وزوجها الذي كان رجلاً جيداً يقلق عليّ ، ومادوكس ينهض ويسير إلى نافذةٍ وينظر نحو الجزء الجنوبي من المدينة . ربما انتقلت المحادثة إلى مشاهد أخرى . كانوا صنّاع خرائط . ولكن هل هبطت في البئر التي تعاونّا على حفرها معاً وحمت نفسها ، بالطريقة التي رغبتُ فيها بيدي ؟

كلانا يمتلك حياته الخاصّة الآن نحن مسلحان بالاتفاقية الأعمق بيننا .

ـ « ماذا تفعل » ، قالت لي حين صادفتني في الشارع . « ألا ترى أنك تجعلنا جميعاً مجانين » .

قلت لمادوكس إني أتردّد على أرملة ، إلا أنها لم تكن أصبحت أرملة بعد . حين عاد مادوكس إلى انكلترة لم نعد ، أنا وهي ، عاشقين .

تمتم مادوكس : « انقلْ تحياتي إلى أرملتك القاهريّة ، كنت أودّ لو أنني قابلتها » . هل كان يعرف ؟ شعرت أكثر بأنني مخادع معه ، هذا الصديق الذي عملتُ معه لمدة عشرة أعوام ، الرجل الذي أحببته أكثر من أي شخصٍ آخر . كان العام هو ١٩٣٩ وكنا جميعاً نغادر هذه البلاد إلى الحرب على أية حال .

عاد مادوكس إلى قرية « مارستون ماغنا سومرست » ، حيثُ وُلِدَ وجلسَ بعد شهرٍ في حشْدٍ كنسيٍّ ، سمع الموعظة التي ألقيت على شرف الحرب ، سحب مسدّسه الصحراوي وانتحر .

أنا هيرودت من هاليكارناسوس وضعتُ تاريخي كي لا يسحب الزمن اللونَ الذي أضفاه الإنسان على الوجود أو تلك الأعمال العظيمة والرائعة التي تجلّت على يد اليونانيين والبرابرة... سوية مع ذلك السبب الذي قاتلوا بعضهم من أجله .

كان الرجال هم دائماً الذين يلقون الشعرَ في الصحراء . روى مادوكس للجمعية الجغرافية قصصاً رائعة عن عبورنا ومساراتنا . بيرمان كان يغذّيها وأنا ؟ كنتُ المهارة بينهم . الميكانيكي . كتب الآخرون حبهم للعزلة وتأملوا ما وجدوه هناك . لم يكونوا متأكدين أبداً من رأيي في هذا . « هل تحب ذلك القمر ؟ » سألني مادوكس بعد أن عرفني لمدة عشرة أعوام . طرح السؤال بحذر وكأنه انتهك شيئاً حميمياً . لم أكن بالنسبة لهم واضحاً جداً لأكون عاشقاً للصحراء . كثير الشبه بأوذيسيوس . كنتُ هادئاً . أريني صحراءً كما ترين شخصاً آخر نهراً ، أو شخصاً آخر حاضرةَ طفولته .

حين افترقنا في المرة الأخيرة استخدم مادوكس الوداع الأخير : « ليجعل الله الأمان رفيقاً لك » . وخطوت عنه مبتعداً ، قائلاً : « لا إله » . كنا نختلف عن بعضنا بشكل تام .

قال مادوكس إن أوذيسيوس لم يكتب كلمة أبداً ، كتاباً حميماً . ربما شعر أنه غريب في النظم المزيّف للفن ، ويجب أن أقرّ أن دراستي كانت صارمة الدقّة . لقد جعلني الخوف من وصف حضورها حين كنت أكتب ، أحرق كل تعاطف ، كل بلاغة الحب . لقد وَصَفتُ الصحراء بنقاء محضٍ كما لو أنني سأتحدث عنها . سألني مادوكس عن القمر أثناء أيامنا الأخيرة معاً قبل أن تبدأ الحرب . افترقنا . غادر إلى انكلترة وكان احتمال الحرب القادمة يقاطع كلّ شيء وتنقيبنا البطيء عن التاريخ في الصحراء . قال لي وداعاً يا أوذيسيوس وهو يبتسم عارفاً أنني غير مولعٍ أبداً بأوذيسيوس وأقل ولعاً

« بآنياس » ، إلا أننا قرّرنا بأن باغنولد هو « آنياس » ، إلا أنني لم أكن مولعاً بأوذيسيوس أيضاً . وداعاً ، قلتُ له .

أذكر أنه استدار ضاحكاً . أشار بابهامه السميكة إلى تلك البقعة في عنقه قرب تفاحة آدم وقال : « هذه تُدْعى وعاء دموياً » .

منحَ ذلك التجويف في عنقها اسماً رسمياً . عاد إلى زوجته في قرية « مارستون ماغنا » آخذاً معه روايته المفضّلة لتولستوي تاركاً لي جميع بوصلاته ،خرائطه . تُرك تعاطفنا دون أن يعبّر عنه .

ومارتسون « ماغنا » في « سومرست » ، التي استحضرها لي مرةً بعد أخرى في محادثاتنا حوّلت حقولها الخضراء إلى مطار . أحرقت الطائرات بخارها فوق القلاع الأثرية . لا أعرف ما الذي جعله يفعل هكذا ، ربما الضجة المتواصلة للطيران الذي أصبح صاخباً الآن بعد الأزيز البسيط لـ« الموث الغجريّة » ، التي كانتْ تقطع صمتنا في ليبيا ومصر . كانت حربُ أحدهم تقطع النسيج الرقيق للرفقاء . كنتُ أوذيسيوس ، فهمت فيتوات الحرب المتنقلة والمؤقتة . إلا أنه كان رجلاً يصنع الأصدقاء بصعوبة ، عرفَ اثنين أو ثلاثة أشخاص طوال حياته ، وتبيّن الآن أنهم أعداء .

كان في سومرست وحيداً مع زوجته التي لم تلتق بنا أبداً . كانت إيماءات صغيرة كافية له . رصاصة واحدة أنهت الحرب . حدثَ هذا في تموز ١٩٣٩ . استقلوا باصاً في قريتهم إلى « يوڤيل » . كان الباص بطيئاً وهكذا تأخروا عن الخدمة . في مؤخرة الكنيسة المحتشدة ، ومن أجل أن يعثرا على مقاعد ، جلسا في أمكنة منفصلة . حين بدأتْ الموعظة بعد نصف ساعة ، كانت شوفينيةً ومؤيدة للحرب دون شك . تحدث القسيس بمرحٍ عن الحرب مباركاً الحكومة والرجال الذين يوشكون أن يدخلوا الحرب . أصغى « مادوكس » بينما كانت الموعظة تزداد التهاباً . أخرج مسدسه الصحراوي ، انحنى وأطلق النار على قلبه . مات فوراً . صمتٌ كبير . صمتٌ صحراوي . صمتٌ صاخب . سمعوا جسده ينهار على المقعد الخشبيّ . لم

يتحرَك أي شيء آخر . تجمدَ القسيس في إيماءة . كانت مثل حالات الصمت حين ينشق قمع زجاجي حول شمعةٍ وتستدير جميع الوجوه . سارت زوجته في الممر الرئيسي وقفتْ عند صفّه ، غمغمتْ شيئاً ، وسمحوا لها أن تقترب . ركعتْ وطوّقته بذراعيها .

كيف مات أوذيسيوس ؟ انتحرَ ، أليس كذلك ؟ أبدو أنني أستدعي ذلك . الآن . ربما أفسدت الصحراء مادوكس ، في ذلك الوقت حين لم تكن لنا صلة بالعالم . أتابع التفكير بالكتاب الروسي الذي حمله دائماً . كانت روسيا دائماً أقرب إلى بلادي أكثر من بلاده . نعم ، كان مادوكس إنساناً مات بسبب الأمم .

أحببت هدوءه في كل شيء . سأجادل بغضبٍ عن المواقع على خريطةٍ وسوف تتحدث تقاريره نوعا ما عن « جد لنا » بجملٍ معقولة . كتبَ بهدوء « وفرح » عن رحلاتنا . كانت متعة في الوصف ، وكأننا كنا « آنا » و « ڤرونسكي » في قصةٍ . كان رجلاً لم يدخل أبداً قاعات الرقص القاهرية معي . وأنا كنت الرجل الذي وقع في الغرام أثناء الرقص .

يتحرك بمشيةٍ بطيئة . لم أشاهده يرقص أبداً . كان رجلاً كتبَ وأوّل العالم . كانت الحكمة تنمو من مجرّد أن يُسلّم فقط الخصلة الصغرى من العاطفة . كان بوسع نظرةٍ أن تقودَ إلى فقرات نظرية . لو شهد مشكلة جديدةً في قبيلةٍ صحراوية أو وجد شجرة نخيل نادرة سيبهجه هذا لمدة أسابيع . حين كنا نعثر على رسائل أثناء تنقّلاتنا ، أية صياغة ، معاصرة أو قديمة ، لغة عربية على حائط طيني ، ملاحظة بالانكليزية مكتوبة بالحوّار على رفراف جيب ، سيقرؤها ثم يضغط يده عليها وكأنه سيلمس معانيها الأعمق الممكنة ، ليصبح أكثر قُرْباً من الكلمات قدر الإمكان .

يرفع ذراعيه عالياً ، الشرايين المكدومة أفقية ، يواجه طوفَ المورفين .

حين يدخل إليه يسمع « كارافاجيو » يُسقط الإبرة في الوعاء اللماع الذي على شكل كلية . يشاهد الشكل المتغضّن يدير ظهره له ثم يعيد الظهور ، مقبوضاً عليه أيضاً ، مواطن مورفين مثله .

مرّت أيام كنت فيها أرجع إلى البيت من كتابة مجدية حيث كل ما كان يستطيع أن ينقذني هو أغنية وردة صريمة الجدي التي يؤديها جانكو رينهارت وستيفن غرابلي مع « الهوت كُلَب » الفرنسي ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ . سنوات جازٍ عظيمة . في الأعوام التي طافت فيها من فندق كلاريدج في شارع الشانزليزيه وإلى بارات لندن ، جنوب فرنسا ، المغرب ، ثم تنزلق إلى مصر حيث الشائعات عن إيقاعات كهذه أُدْخلتْ بصمتٍ من قبل فرقة رقص قاهرية لا اسم لها . حين عدتُ إلى الصحراء ، أخذت معي أمسيات الرقص إلى « تذكارات » الـ ٧٨ . في البارات ، النساء يخطون ككلاب رمادية يتكئن علي ؛ بينما تغمغم فوق أكتافهن أثناء « حبيبتي » تقدمةُ شركة التسجيل الفرنسية . ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ . كان هناك همس الحب في سقيفةٍ . كانت حرب عند منعطف الزاوية .

أثناء تلك الليالي الأخيرة في القاهرة ، بعد شهور من انتهاء العلاقة ، أقْنَعَنا مادوكس أخيراً أن يدخل باراً زنكياً من أجل توديعه . كانتْ هي وزوجها هناك . ليلة أخيرة واحدة . رقصة أخيرة . سكرَ ألمازي وقامَ برقصةٍ قديمة قام بابتكارها تُدْعى ضمّة البوسفور ، رافعاً كاثرين كليفتون بينَ ذراعيه النحيلتين وعابراً الأرضية إلى أن سقط معها عبر بعض نباتات الدريقة التي ينميها النيل .

يفكّر « كارافاجيو » . من الذي يتحدّث الآن ؟

كان ألمازي سكران وبدا رقصه للآخرين سلسلة وحشيةً من الحركات . لم يبد في تلك الأيام أن علاقته معها جيدة . كان يقذفها من جانب إلى آخر

كأنها دميةٌ غُفلٌ ، واختنق من الشراب بسبب حزنه على رحيل مادوكس . كان صاخباً على الطاولات معنا . حين يكون « ألمازي » هكذا ، غالباً ما نتفرّق ، إلا أن هذه كانتْ ليلة مادوكس الأخيرة في القاهرة فبقينا . عازف بيانو مصري سيء يحاكي ستيفن كرابلي ، وكان « ألمازي » ككوكب خارج السيطرة . رفع الكأس : « نخبنا نحن الغرباء الكونيين » . أراد أن يرقص مع الجميع رجالاً ونساءً . صفّق بيديه وأعلن ، « الآن إلى الضمّة البوسفورية . أنت ، بيرنهارت ؟ هيزرتون ؟ تراجع معظم الموجودين . استدار إلى زوجة « كليفتون » الشابّة التي كانتْ تراقبه في غضبٍ مؤدب وتقدمت إلى الأمام حين توسّل ثم هجم عليها واضعاً حنجرته على كتفها اليسرى على ذلك النجد العاري فوق النثار المعدني اللّماع . تصاعدت موسيقا تانغو مسعورة إلى أن ضيّع أحدهما الخطوة . لم تعد بسبب غضبها ، رفضت أن تجعله يربح بسيرها وعودتها إلى الطاولة محدقة إليه بحدّة حين أعاد رأسه إلى الخلف ، ليس بوقارٍ بل بوجه هجومي . فمه غمغم حين أحنى وجهه متفوهاً ربما بأغاني « وردة صريمة الجدي » .

لم يرَ أحدٌ أبداً ألمازي بين البعثات في القاهرة كثيراً . بدا إما بعيداً أو قلقاً . كان يعمل في المتحف نهاراً ويؤم بارات السوق في شمال القاهرة ليلاً . ضائعٌ في مصر أخرى . جاء جميعهم إلى هنا من أجل مادوكس فقط . إلا أن ألمازي كان يرقص الآن مع « كاثرين كليفتون » . لمسَ خطَّ النباتات نحولها . دار معها ورفعها ثم سقط . بقي « كليفتون » على كرسيه يراقبهما نصف مراقبة . يستلقي ألمازي فوقها ثم يحاول أن ينهض ببطء مرجعاً إلى الخلف شعره الأشقر منحنياً فوقها في الزاوية البعيدة للغرفة . كان في أحد الأوقات رجل كياسة .

كانت الساعة بعد منتصف الليل . لم يستمتع أحد من الضيوف الموجودين سوى الزوار المنتظمين الذين يستمتعون بسهولة ويألفون حفلات الأوروبيين الصحراويين هذه . كانت نساء بروافد طويلة من الفضّة تتدلى من

آذانهن ، نساء بنثار لمّاع ، قطرات معدنية صغيرة دافئة من حرارة البار ، كان ألمازي في الماضي متحيّزاً لهن . كنَّ أثناء رقصهن يقذفن الأقراط الفضيّة الناتئة إزاء وجهه . كان يرقص معهن في ليالٍ أخرى ويحمل إطارهن كله على مرتكز ضلعه الصدري حين يزداد سُكْرُه . نعم ، كن يتسلّين ، ضاحكاتٍ على معدة ألمازي حين يرتخي قميصه ولايبهجهن وزنه الذي يستند إلى أكتافهن حين يتوقّف أثناء الرقصة ، منهاراً في مابعد ، في نقطة ما أثناء رقصة الشُتش ، على الأرض .

كان من المهم أثناء أمسياتٍ كهذه الدخول في حبكة المساء ، بينما كانت الكوكبات البشرية تدور وتتزحلق حولك . لا تفكير أو تدبّر . الملاحظات الميدانية للمساء جاءتْ فيما بعد في الصحراء ، في التشكيلات الأرضية بين الداخلة والكفرة . ثم سيذكر الصيحة التي تشبه صيحة الكلب التي حين صدرت نظر حوله بحثاً عن كلبٍ على أرضية الرقص وأدرك ، وهو يفكر بقرص البوصلة الذي يعوم في النفط أنه يمكن أن يكون امرأة عثر عليها .

على مرأى واحة سيفتخر برقصة مُلوّحاً بذراعيه وساعة رسغه عالياً إلى السماء .

ليالٍ باردة في الصحراء . انتزع خيطاً من حشد الليالي ووضعه في فمه كالطعام . حصل هذا أثناء اليومين الأولين للبحث عن مخرج ، حين كان في موطن النسيان بين المدينة والنجد . لن يفكر أبداً بالقاهرة أو بالموسيقا أو بالشوارع والنساء بعد مرور ستة أيام ، في هذا الوقت كان يتحرك في زمن قديمٍ ، بعد أن كيّف نفسه مع النماذج المتنفّسة للمياه العميقة . كانت صلته الوحيدة مع عالم المدن هي هيرودت ، دليله القديم عن الأكاذيب المفترضة . حين اكتشف حقيقة مابدا كذبةً ، أخرج وعاء الغراء وألصق خريطةً أو قصاصة أنباء أو استخدم فراغاً في الكتاب ليرسم رجالاً يرتدون القمصان مع حيواناتٍ

مجهولةٍ ذاوية إلى جانبهم . لم يرسم سكان الواحة الأوائل عادةً القطيع ، رغم أن هيرودت أدّعى أنهم فعلوا ذلك . كانوا يعبدون ، إلهة وكانت معظم لوحاتهم الصخرية عن النساء الحوامل .

لم تدخل حتى فكرة المدينة إلى ذهنه طوال أسبوعين أبداً . بدا الأمر وكأنه سارتحت ميلمتر الضباب تماماً فوق الخيوط المحبّرة لخريطةٍ ، تلك المنطقة النقيّة بين الأرض والخريطة ، بين المسافات والأسطورة ، بين الطبيعة والراوي . سمّى « ستانفورد » ذلك بالجيومورفولوجيا* المكان الذي اختاروا أن يجيئوا إليه ، أن يكون ذواتهم المفضلة ، أن يكونوا غير واعين بالأسلاف . هنا ، بغض النظر عن بوصلة الشمس وعدّاد المسافات الميلي والكتاب ، كانت وحدته من ابتكاره الخاص . كان يعرف أثناء تلك الأوقات كيف يعمل السراب ، لأنه كان فيه .

يستيقظ فيكتشف أن « هنا » تغسله . توجد خزانة خفيضة إلى مستوى الخصر . تنحني ، يداها تُخرجان الماء من الحوض الخزفيّ إلى صدره . حين تنتهي ، تمرّر أصابعها المبلّلة عبر شعرها بضع مرّات فيصبح رطباً وقاتماً . تنظر إلى الأعلى فترى أن عينيه مفتوحتان وتبتسم .

حين يفتح عينيه مرةً ثانية يكون « مادوكس » هناك ، يبدو رثّ الملابس ، منهمكاً ، يحمل محقنة المورفين وعليه أن يستخدم كلتا يديه لأنهما بلا إبهامين . كيف يحقن نفسه ؟ يفكّر . يتعرّف على العين ، عادة اللسان الذي يرفرف على الشفتين ، صفاء دماغ الرجل يلتقط كل مايقوله . طائران عجوزان .

يراقب « كارافاجيو » اللون القرنفلي في فم الرجل حين يتحدّث . قد تمتلك اللثة لون اليود الفاتح الذي تمتلكه الرسوم الصخرية التي اكتشفت في

* دراسة شكل الأرض وتضاريسها وتوزّع اليابسة والبحار على سطحها .

« العوينات » . ثمت المزيد من أجل الاكتشاف ، من أجل أن يُخرَج من هذا الجسد الذي على السرير ، الذي ليس فيه سوى فمه وشريان في الذراع وعينين ذئبيتين رماديتين . مايزال منبهراً من وضوح النظام في الرجل ، الذي يتحدث أحياناً في صيغة المتكلّم وتارة أخرى في صيغة الغائب ، الذي مايزال لا يعترف بأنه ألمازي .

من الذي كان يتحدث عندئذ ؟

« يعني الموت أنك في صيغة الغائب » .

يتقاسمان طوال النهار المورفين . يسافر « كارافاجيو » داخل شيفرة الإشارات ليستخرج القصّة . حين يبطئ الرجل المحروق أو حين يشعر « كارافاجيو » أنه لايفهم كل شيء ـ قصة الحب ، موت مادوكس ـ يلتقط المحقنة من العلبة الصفيحية اللماعة التي على شكل كليةٍ ، يحطم سدادة زجاجة المورفين بضغط برجمةٍ ويملؤها . إنه عديم الإحساس مع « هنا » حول هذا الآن بعد أن شق الكمّ عن ذراعه اليسرى بشكلٍ كامل . يرتدي « ألمازي » قميصاً تحتانياً فقط وهكذا تستلقي ذراعه السوداء عارية تحت الغطاء . تفتحُ كلُّ بَلْعَةِ مورفين باباً إضافياً في جسمه ، أو يقفز عائداً إلى رسومات الكهف أو إلى طائرة مدفونة أو يتريّث مرة أخرى مع المرأة التي إلى جانبه تحتَ مروحةٍ واضعة خدّها على معدته .

يلتقط « كارافاجيو » كتاب هيرودت . يقلب صفحة ، يعثر على كثيبٍ ليكتشف « كيلف كبير » العوينات ، جبل كيسو . حين يتحدّث « ألمازي » يبقى قربه معيداً ترتيب الأحداث . الرغبة تجعل القصة ضالة فقط ، تترجرج كإبرة البوصلة . وهذا هو عالم البدو بأية حال ، قصة مشكوك بصمتها . ذهن يسافر شرقاً وغرباً في قناع عاصفةٍ رملية .

على أرض كهف السبّاحين بعد أن حطّم زوجها الطائرة قطعَ ومدَّ المظلة

التي كانت تحملها . تمددت عليها مكشّرة من الألم والإصابات . وضع أصابعه بلطفٍ في شعرها باحثاً عن جراحٍ أخرى ، ثم لمسَ كتفيها وقدميها .

لم يكن يريد أن يفقد جمالها في الكهف ، رشاقتها ، تلك الأعضاء . كان يعرف مسبقاً أنه يمتلك طبيعتها مشدودة في قبضته .

كانت امرأة تترجم وجهها حين تضع المساحيق التجميلية ، حين تدخل إلى حفلةٍ ، تتسلّق إلى فراشٍ ، تضع أحمر شفاه دموياً ، مسحة قرمزية فوق كلّ عين .

نظر إلى أحد رسوم الكهف وسرق الألوان منها . ذهب لون المغرة إلى وجهها ، دهن بالأزرق حول عينيها . سار عبر الكهف ، يداه سميكتان من اللون الأحمر ومشط شعرها بأصابعه وأصبح جلدها كلّه ، وكذلك ركبتها التي برزتْ من الطائرة في ذلك اليوم الأول بلون الزعفران . العظم العاني . أطواق لونية حول ساقيها بحيث ستصبح منيعةً على البشر . تقاليد اكتشفها في كتاب هيرودت يحتفل فيها المحاربون بعشيقاتهم عن طريق موضعتهن أو وضعهنّ في أي عالمٍ يجعلهن أبديات ـ سائل لوني ، أغنية ، رَسْمٍ على الصخر .

كان الكهف بارداً ، لفّها بالمظلة ليدفئها . أشعلَ ناراً صغيرةً وأحرق أغصان الأقاقيا ونشرَ الدخان في جميع زوايا الكهف . اكتشف أنه لايستطيع أن يتحدّث معها بشكلٍ مباشر وهكذا تحدّث رسمياً ، صوته إزاء الإرتداد الناجم عن جدران الكهف . «أنا ذاهب لأطلب النجدة ياكاثرين . أتفهمين ؟ هناك طائرة أخرى في الجوار ، إلا أنه لايوجد نفط . يمكن أن أقابل قافلةً أو سيارة جيبٍ ، وهذا يعني أنني سأعود بسرعة . لا أعرف» . أخرج نسخة كتاب هيرودت ووضعها إلى جانبها . حدثَ هذا في أيلول ١٩٣٩ . خرجَ من الكهف من خارج وهج ضوء النار وهبط في الظلمة إلى الصحراء المعمورة بضوء القمر .

اجتاز الجلاميد هابطاً إلى قاعدة النجد ووقف هناك .

لا شاحنة . لا طائرة . لا بوصلة . القمر وظلّه هو فقط . عثر على العلامة الحجرية القديمة التي أشارت إلى اتجاه التاج الى الشمال الغربي . حفظَ زاوية ظله وبدأ يسير . على بعد سبعين ميلاً توجد السوق التي تحوي شارع الساعات . كانت حقيبة الماء الجلدية التي ملأها من العين تتدلى على كتفه وتتحرّك بعنف كالمشيمة .

مرّت فترتان لم يستطع أن يتحرّك فيهما . ظُهْراً حين كان الظلّ تحته وشفقاً ، بين الغروب وظهور النجوم . عندئذٍ أصبح كل شيء متشابهاً في قُرص الصحراء . لو تحرّك لكان من الممكن أن يخطئ ويبتعد تسعين درجة عن مساره . انتظر الخريطة الحيّة للنجوم ثم تحرك إلى الأمام وهو يقرؤها كلّ ساعة . حين كان لديهم في الماضي أدلاّء صحراويون كانوا يعلّقون مصباحاً على عمودٍ طويل وسيتبع الجميع تقافز الضوء فوق قارئ النجوم .

يسير الإنسان بسرعة الجمل ميلين ونصفاً في الساعة ، وإذا كان محظوظاً فسيعثر على بيض النعام ، أما إذا كان سيء الحظّ فستمحو عاصفة رملية كل شيء . سافر ثلاثة أيامٍ دون طعام رافضاً أن يفكّرَ بها . إذا وصل إلى التاج سيأكل «الأبْرا » التي تصنعها قبائل جوران من الحنظل بعد غلْي البذار للتخلص من المرارة ثم تسحق مع التمر والجراد . سيسير عبر شارع الساعات والجصّ . ليجعل الله الأمل رفيقاً لك ، هذا ماقاله مادوكس . وداعاً . تلويحة يد . الله في الصحراء فقط ، هذا ما أراد أن يعترف به . خارج هذا ، التجارة والسلطة ، المال والحرب . طغاةُ مالٍ وعَسْكر صاغوا العالم .

كان في بلادٍ محطّمة ، تحرّك من الرمل إلى الصخر . رفضَ أن يفكّر بها ، ثم ظهرت التلال كقلاع قروسطية . سار إلى أن خطَا بظلّه داخل ظلّ جبلٍ . شجيرات ميموزا . حنظل . صرخ باسمها للصخور . لأن الصدى هو روح الصوت تثير نفسها في الأمكنة الجوفاء .

ثم ظهرتْ التاج . تخيّل شارع المرايا طوال رحلته ، حين وصل إلى حواف المستوطنات أحاطت به سيارات الجيب العسكرية الانكليزية وأخذته

بعيداً دون أن تصغي إلى قصته عن المرأة المصابة في عوينات على بعد سبعين ميلاً فقط ، أو إلى أي شيء قاله في الحقيقة .

« هل تقول لي إن الإنكليز لم يصدقوك ؟ أن لا أحد أصغى إليك ؟ » .

« لم يصغ أحد .

« لماذا ؟

« لم أعطهم اسماً صحيحاً

« اسمك ؟

« اعطيتهم اسمي » .

« ثم ما الذي حدث ؟

« اسمها ، اسم زوجها » .

لا يقول شيئاً .

« استيقظ . ما الذي قلته ؟

« قلت إنها زوجتي . قلتُ كاثرين . ماتَ زوجها . قلت إنها مصابة بشكل سيء ، في كهف في « كيلف كيبر » ، في عوينات إلى الشمال من بئر عين دوا ، إنها تحتاج للماء والطعام . إنني سأعود معهم لأدلهم . قلتُ إن كل ما أريده هو سيارة جيب ، واحدة من سياراتهم اللعينة... ربما بدوتُ كواحدٍ من أبناء الصحراء المجانين بعد الرحلة ، إلا أنني لا أعتقد هذا . كانت الحرب قد بدأت . كانوا يلمّون الجواسيس من الصحراء . إن أي شخصٍ يحمل اسماً أجنبياً ويصل إلى بلدات الواحات الصغيرة هذه هو مشبوه . كانت تبعد سبعين ميلاً فقط ولن يُصْغوا . فريق انكليزي ما ضالّ في التاج . لابدّ أنني أصبحت مسعوراً جداً آنذاك . كانوا يستخدمون السجون المصنوعة من الأماليد بحجم حمّام صغير . وُضعتُ في واحدٍ ونُقِلْتُ في شاحنة . درتُ فيه إلى أن سقطت في الشارع وأنا ما أزال داخله . كنتُ أصيح باسم كاثرين . اسم كيلف كيبر ، بينما كان الإسم الوحيد الذي كان يجب أن أصيحه وله وقع كبطاقة دعوةٍ في

أيديهم ، كان اسم « كليفتون » .

« رفعوني إلى الشاحنة ثانية . كنتُ جاسوساً محتملاً من الدرجة الثانية ، ابن زناً عالمياً آخر فقط .

يريد « كارافاجيو » أن ينهض ويسير بعيداً عن هذه الفيلا ، عن البلاد وحطام الحرب . إنه مجرّد لص فقط . مايريده « كارافاجيو » هو أن يضع ذراعيه حول الّلغام وهنا ، أو بشكلٍ أفضل ، حول بشرٍ من عمره في بارٍ حيثُ يعرف الجميع ويستطيع أن يرقص ويتحدث مع امرأة ويريح رأسه على كتفها ويسند رأسه على جبينها ، أي شيء ، إلا أنه يعرف أولاً أنه يجب أن يخرج من هذه الصحراء وهندستها المورفينية . يريد أن يبتعد عن الطريق اللامرئية التي تؤدي إلى التاج . إن هذا الرجل الذي يعتقد أنه ألمازي استخدمه هو والمورفين ليعود إلى عالمه الخاصّ ، إلى حزنه الخاص . لم يعد يهم في أي جانبٍ كان أثناء الحرب .

إلا أن « كارافاجيو » ينحني إلى الأمام .

« أريد أن أعرف شيئاً ما » .

« ماذا ؟

« أريد أن أعرف إذا كنت قد قتلت كاثرين كليفتون . أي أنك قَتلْتَ كليفتون وبفعلتك هذه قتلتها .

« لا . لم أتخيّل هذا أبداً » .

« سبب سؤالي هو أن جيوفري كليفتون كان يعمل مع الاستخبارات البريطانية . لم يكن رجلاً انكليزياً بريئاً فقط . صبيّك الحبّاب كان يراقبُ مجموعتك الغريبة في الصحراء المصرية الليبية . كان الإنكليز يعرفون إن الصحراء ستكون مسرحاً للحرب يوماً ما . كان مصوراً جوياً . لقد أقلقهم موته ومايزال . مايزالون يثيرون السؤال . عرفت الاستخبارات عن علاقتك بزوجته من البداية حتى ولو لم يعرف « كليفتون » . ظنوا أن موته هُندسَ كنوع من

الحماية ، رفع جسراً متحركاً . كانوا ينتظرونك في القاهرة . إلا أنك عدت طبعاً إلى الصحراء . فيما بعد ، حين أرسلت إلى إيطاليا ، فقدتُ الجزء الأخير من قصتك . لم أعرف ماذا حصل لك .

وهكذا طاردتني وعثرت عليّ أخيراً .

« جئت بسبب الفتاة . أعرف والدها . إن آخر شخص توقعَت أن أجده هنا في هذا الدير المقصوف هو الكونت لاديسلو دي ألمازي . وبشرفي أصبحت مولعاً بك أكثر من ولعي بمعظم البشر الذين عملت معهم » .

كان الضوء المستطيل الذي انتقل عبر كرسي « كارافاجيو » يؤطّر صدره ورأسه بحيث بدا الوجه للمريض الإنكليزي كصورةٍ . ظهر شعره مظلماً في الضوء المُصْمَتْ . إلاّ أن الشعر البريّ أُضيء وتوهج ومحيتْ الدوائر التي حول عينيه تحتَ ضوء الفجر القرنفلي المتأخر .

أدار الكرسي بحيث يستطيع أن يستند أماماً إلى ظهرها مواجهاً ألمازي . لم تبزغ الكلمات من « كارافاجيو » بسهولة . يدلّك فكّه ، ووجهه يتغضّن ، العينان مغمضتان ليفكر في الظلمة وعندئذٍ فقط سيتفوّه بشيءٍ ما مُخَلّصاً نفسه من أفكاره . كانت تلك الظلمة التي ظهرت فيه حين جلس في الإطار الضوئي الشبيه بالمعيّن ، مقوّس الظهر فوق كرسي إلى جانب سرير « ألمازي » أحدُ الرجلين العجوزين في القصة هذه . « أستطيع أن أتحدث معك يا « كارافاجيو » لأنني أشعر أننا كلينا فانيان . الفتاة والصبيّ غير فانيين بعد ، رغم ما مرّا فيه . كانت « هنا » حزينة جداً حين قابلتها في البداية » .

« قُتلَ والدها في فرنسا » .

« أعرف . لن تتحدث عن ذلك . كانتْ بعيدةً عن الجميع . كانت الطريقة الوحيدة للتواصل معها هي أن أطلب منها أن تقرأ لي... أتدرك أننا كلينا بلا أبناء ؟

يتوقّف وكأنه يُفكّر باحتمالٍ .

سأله ألمازي : « هل لديك زوجة ؟ »

جلس « كارافاجيو » في الضوء القرمزي واضعاً يديه فوق وجهه ليمحو كلَّ شيء بحيث يستطيع أن يفكّر بدقّة وكأن هذا كان موهبة أخرى من فترة الشباب لم تعد تأتي إليه بسهولة .

« يجب أن تتحدّث معي يا « كارافاجيو » . أم هل أنا مجرّد كتاب ؟ شيء للقراءة ، مخلوق يجب إغراؤه للخروج من بحيرة ثم حقنة مليئة بالمورفين ، مليئة بالممرات . الأكاذيب ، العشب المهلهل جيوب من الحجارة .

« لقد استخدم لصوص مثلنا كثيراً أثناء هذه الحرب . كنا شرعيين . لقد سرقنا ، ثم بدأ بعضنا يوجه النصائح . استطعنا أن نقرأ عبر تمويه الخداع بشكل أكثر طبيعية من الاستخبارات الرسمية . ابتكرنا خدعاً مزدوجة . هذا المزيج من المخادعين والمفكرين أدار حملاتٍ كاملة . كنت في كل أنحاء الشرق الأوسط . هناك سمعت عنك أول مرة . كنتَ لغزاً ، فراغاً على خرائطهم . ولقد قَدَّمْتَ معرفتك بالصحراء للأيدي الانكليزية .

« حدث الكثير في « التاج » في ١٩٣٩ . عندما تمَ التقاطي ، وتصوّروا أنني جاسوس » .

« إذاً هذا حين ذهبت إلى الألمان » .

صمت .

وكنت ماتزال غير قادر على العودة إلى كهف السبّاحين والى العوينات ؟

« ليس حتى تطوعت لآخذ « إيبلر » عبر الصحراء » .

« هناك شيء يجب أن أخبرك به ، يتعلّق بـ ١٩٤٢ ، حين قُدْت الجاسوس الى القاهرة » .

« عملية سلام » .

« نعم . حين كنت تشتغل لروملِ » .

« رجل متألق... ما الذي ستقوله لي ؟ » .

« كنت سأقول لك إنه حين انطلقت عبر الصحراء متجنّباً قوات الحلفاء ، مسافراً مع « إيبلر » ـ كان عملاً بطولياً . من واحة « جيالو » طوال الطريق إلى مصر . أنت الوحيد الذي يمكن أن يوصل رجلَ رومل إلى القاهرة مع نسخته من رواية « ربيكا » .

« كيف عرفتَ هذا ؟ » .

« ماأريد أن أقوله هو إنهم لم يكتشفوا « إيبلر » في القاهرة فحسب ، بل كانوا يعرفون عن الرحلة كلّها . تمّ فكّ شيفرة ألمانية قبل ذلك بوقت طويل إلا أنه لم يكن بوسعنا أن نجعل « رومل » يعرف ذلك والاّ سيتمّ اكتشاف مصادرنا ، وهكذا توجّب علينا أن ننتظر في القاهرة للقبض على « إيبلر » .

« راقبناك طوال الطريق ، عبر الصحراء ولأن الاستخبارات تمتلك اسمك وعرفت أنك متورّط ، أصبحتْ أكثر أهتماماً . كانت تريدك أيضاً . كان من المُفترض أن تُقْتَل... إذا كنت لا تصدّقني ، لقد غادرت « جيالو » واستغرق هذا عشرين يوماً . اتبعت طريق البئر المدفونة . لم تستطع أن تقترب من « العوينات » بسبب وجود قوات الحلفاء ، وتجنّبت « أبو بالاس » . مرّتْ أوقاتُ أصيبَ فيها « إيبلر » بحمّى صحراوية وكان عليك أن تعتني به رغم أنك قلت بأنك لم تحبّه...

« من المفترض أن الطائرات فقدتْ أثرك إلا أنك روقِبْتَ بعناية . لم تكونوا أنتم الجواسيس ، كنا نحن الجواسيس . ظنّت الاستخبارات أنك قتلت « جيوفري كليفتون » بسبب المرأة . عثروا على قبره في ١٩٣٩ ، إلا أنه لم يكن يوجد أثرُ لزوجته . لقد أصبحت العدوّ ليسَ حين صففت مع ألمانيا بل حين بدأتَ علاقتك مع « كاثرين كليفتون » .

ـ صحيح .

« بعد أن غادرت القاهرة في ١٩٤٢ فقدنا أثرك . كان من المفترض أن يقبضوا عليك ويقتلوك في الصحراء . إلا أنهم فقدوا أثرك . يومان في العراء . لابد أنك كنت مجنوناً غير عقلاني ، وإلا لوجدناك . لغمنا سيارة الجيب

المخبأة وعثرنا عليها متفجّرة فيما بعد ولكن لم يكن يوجد لك أثر . لابُدّ أن تكون هذه رحلتك العظيمة ، وليس الرحلة إلى القاهرة ، حين لابدّ أنك كنت مجنوناً » .

« هل كنت معهم في القاهرة تتعقّبني ؟ »

« لا . اطلعْتُ على الملفات . لقد ذهبت إلى إيطاليا وظنّوا أنكَ هناك » .

ـ « هنا » .

« نعم » .

تحرك الضوء الشبيه بالمعيّن على الجدار تاركاً « كارافاجيو » في الظلّ . أصبح شعره داكناً مرة أخرى . استند إلى الخلف ، كتفه على الأوراق .

تمتم ألمازي : « أعتقد أن هذا لايهمّ » .

ـ « هل تريد مورفيناً ؟ »

ـ لا . أنا أرتّب التفاصيل . كنت دائماً رجلاً منعزلاً . من الصعب أن أدرك أنني نوقِشت .

« كنت تعيش علاقة مع شخص ما مرتبط بالاستخبارات . كان هناك أشخاص في الاستخبارات يعرفونك شخصياً .

« على الأرجح باغنولد » .

توقّف « كارافاجيو » .

« يجب أن أتحدث معك عن شيءٍ واحدٍ أخير » .

« أعرف » .

« ماذا حدث لكاثرين كليفتون ؟ ماذا حدث تماماً قبل الحرب ليجعلك تعود إلى كيلف كيبر ثانية ؟ بعد أن غادر مادوكس إلى انكلترة ؟ » .

كان من المفترض أن أقوم برحلة إضافية إلى كيلف كيبر لأحزم ما تبقى في معسكر القاعدة في « العوينات » . انتهت حياتنا هناك . ظننت أن لاشيء سيحدث بيننا . لم أقابلها كعاشق لمدة عامٍ تقريباً . كانت الحرب تحضّر

نفسها في مكانٍ ما كيدٍ تدخل في نافذة عليّة . وأنا وهي كنا انسحبنا إلى ما وراء جدران عادتنا السابقة في التظاهر بالعلاقة البريئة . لم نعُد نتقابل كثيراً .

خلال صيف ١٩٣٩ كان عليّ أن أذهب براً إلى كيلف كيبر مع « كيو » وأحزم مخيم القاعدة و « كيو » سيغادر بالشاحنة أما كليفتون فسيطير ويلتقطني ، ثم سنفترق خارج المثلث الذي نما بيننا .

حين سمعتُ الطائرة وشاهدتها كنت أتسلق صخور النجد . كان « كليفتون » متأهباً للعمل دائماً .

توجد طريقة لهبوط طائرة شحن صغيرة على الأرض بعد أن تنزلق من مستوى الأفق . تُمَيّلُ جناحيها في ضوء الصحراء ثم يتوقّف الصوت وتهبط نحو الأرض . لم أفهم أبداً كيف تعمل الطائرات بشكل كامل . كنتُ أراقبها تقترب مني في الصحراء وكنت أخرج دائماً من خيمتي خائفاً . تميّل أجنحتها عبر الضوء ثم تدخل ذلك الصمت .

جاءتَ طائرة « الموث » منزلقة فوق النجد . كنت ألوّح بالمشمّع الأزرق . خفّض « كليفتون » ارتفاعه وزأر فوقي منخفضاً حتى أن شجيرات الأقاقيا فقدت أوراقها . انحرفت الطائرة إلى اليسار ودارت وبعد أن شاهدتني ثانية دارتْ وتوجّهت نحوي بشكلٍ مستقيم . وعلى بعد خمسين ياردة مني مالتْ فجأة وسقطت . بدأت أركض نحوها .

اعتقدت أنه وحيدٌ . كان من المفترض أن يكون وحيداً إلا أنني حين وصلتُ إلى هناك لأسحبه كانت إلى جانبه . كان ميتاً . كانت تحاول تحريك الجزء الأسفل من جسمها وتنظر أمامها مباشرة . كان الرمل دخل عبر نافذة حجرة الطيّار وملأ حجرها . لم يبدُ أن هناك علامة عليها . امتدت يدها اليسرى إلى الأمام لاتقاء تحطّم طائرتهما . أخرجتها من الطائرة التي سمّاها « كليفتون » « روبرت » وحملتها إلى الكهوف الصخرية ، إلى كهف السبّاحين حيث كانتْ الرسوم . على ارتفاع ٢٣,٣٠ على الخريطة ، خط طول

١٥ , ٢٥ . دَفَنْتُ « جيوفري كليفتون » في تلك الليلة .

أكنتُ لعنةً حلَّتْ بهم ؟ بها ؟ بمادوكس ؟ بالصحراء التي اغتصبتها الحرب ، قُصِفتْ وكأنها رَملٌ فقط ؟ البرابرة إزاء البرابرة . سيمرّ الجيشان عبر الصحراء دون أن يشعرا بها . صحاري ليبيا . ليبيا . أبْعِدْ السياسة وستكون أجمل عبارةٍ أعرفها . كلمة جنسية متواصلة ، بئر تلاطَف لتجود بمائها . الباء والياء . قال مادوكس إنها إحدى الكلمات القليلة التي تسمع اللسان فيها يلتوي . أتذكر « ديدو » في صحاري ليبيا ؟ **يجب أن يكون الإنسان كأنهار الماء في المكان الجافَ...**

لا أعتقد أنني دخلت أرضاً ملعونةً أو أنني علقتُ في موقفٍ كان شريراً . كان كل مكان وشخصٍ هبةً لي بعد أن عثرت على الرسوم الصخرية في كهف السبّاحين . غنائي « للأعباء »* مع مادوكس أثناء البعثات . ظهور « كاثرين » بيننا في الصحراء . طريقة سيري نحوها فوق الأرضية الإسمنتية الحمراء المصقولة وركوعي على ركبتي ، بطنها إزاء رأسي وكأنني كنتُ ولداً . قبيلة البنادق تشفيني . حتى أربعتنا ، « هنا » وأنت و اللّغام .

لقد أُخِذَ مني كلُّ ما أحببته ومنحته قيمةً .

بقيتُ معها . اكتشفت أن ثلاثة من الأضلاع مكسورة . بقيت منتظراً عينها المترجرجة ، التواء رسغها المكسور ، كلامَ فمها الهادئ .

كيفَ كرهتني ؟ همستْ . لقد قتلتَ كلَّ شيء فيّ تقريباً .

كاثرين... لم -

« احضنّي . توقّف عن الدفاع عن نفسك . لاشيء يغيّرك » .

كانت تحديقتها متواصلة . لم أستطع أن أخرج عن هدف النظرة . سأكون الصورة الأخيرة التي ستشاهدها . ابن آوى الذي في الكهف سيرشدها

* اسم أغنية .

ويحميها ولن يخدعها أبداً . أخبرتها عن مئات الآلهة المرتبطين بالحيوانات . الآلهة المرتبطة بأبناء آوى ـ أنوبيس ، دواموتيف ، ويبواويت . هذه مخلوقات تقودك إلى مابعد الحياة ـ كما رافقك شبحي الأول في تلك الأعوام قَبْل أن نلتقي . جميع تلك الحفلات في لندن و « أوكسفورد » حيث كنت أراقبك . جلستُ إزاءك بينما كنت تقومين بأعمال المدرسة حاملة قلم رصاص ضخماً . كنتُ هناك حين قابلت « جيوفري كليفتون » في الساعة الثانية ظهراً في مكتبة « يونيون » في أوكسفورد . كانت معاطف الجميع منتشرة على الأرض وكنت حافيةً تشقين طريقك بينها كمالك الحزين . إنه يراقبك ، إلا أنني أراقبك أيضاً ، رغم أنك تفتقدين حضوري ، تتجاهلينني . أنت في سنٍ تستطيعين أن تشاهدي فيها الرجال جميلي المظهر فقط . لست مدركةً بعد أولئك الذين هم خارج مجال رشاقتك . لايُستخدم ابن آوى كثيراً كحارسٍ شخصيّ في « أوكسفورد » ، بينما أنا رجلٌ أصوم إلى أن أشاهد ما أريده . كان الحائط خلفك مغطًى بالكتب ويدك اليسرى تمسك عقداً طويلاً من اللآلئ يتدلى من عنقك . قدماك الحافيتان تلتقطان طريقهما إلى الداخل . تبحثين عن شيء . كُنت ريّانةً أكثر في تلك الأيام ، رغم أنك جميلة بشكلٍ مناسب للحياة الجامعية .

كان ثلاثتنا في مكتبة يونيون في أوكسفورد . إلا أنك تعثرين فقط على « جيوفري كليفتون » . ستكون قصة حُبٍّ كالدوّامة . كان يمتلك عملاً ما مع الأركيولوجيين في شمال أفريقيا ، من جميع الأمكنة . طائرٌ عجوزٌ غريب أعمل معه . « كانت أمّك مسرورة جداً من مغامرتك » .

إلا أن روح ابن آوى الذي كان « فاتح الطرق » والذي كان اسمه ويبواويت أو المازي وقف في الغرفة معكما . ذراعاي مطويّتان ، أراقب محاولاتك في حديثٍ حماسي قصير حول مشكلةٍ لأنكما كنتما مخمورين . كان رائعاً أنه أثناء سكر الساعة الثانية ظهراً ، عرفَ كلّ منكما القيمة والمتعة المستمرتين للآخر . ربما وَصَلْتِ مع الآخرين ، ربما ستعاشرين آخرين ، إلا

أنكما عثرتما على قدركما .

في الساعة الثالثة ظهراً تشعرين أنك يجب أن تغادري ، إلا أنك لم تقدري على العثور على فردة حذاء . تحملين الأخرى بيدك ، مشاية وردية اللون . أشاهد الفردة الأخرى نصف مدفونة قربي وألتقطها . لمعانُها . من الواضح أنه حذاء مُفَضَّل ، مع ثلمة أصابع قدميك . تقولين شكراً بعد أن تأخذيها وأنت تغادرين حتى دون أن تنظري إلى وجهي .

أؤمن بهذا . حين نلتقي مع أولئك الذين نقع في غرامهم ، يوجد مظهر من روحنا يكون مؤرخاً ، معلماً ، يتخيّل أو يتذكّر مقابلةً حين مرّ الآخر ببراءةٍ ، تماما كما يمكن أن يفتح لك « كليفتون » باب السيارة منذ عامٍ ويتجاهل قدرَ حياته . إلا أن جميع أجزاء الجسم يجب أن تكون مستعدةً للآخر ، يجب أن تقفز جميع الذرّات في اتجاهٍ واحدٍ لكي تحصل الرغبة .

عشتُ في الصحراء طوال أعوامٍ وآمنت بأشياء كهذه . إنها مكانُ جيوبٍ . وهم الزمن والماء . ابن آوى الذين بعينٍ واحدةٍ الذي ينظر إلى الخلف والشخص الذي يفكر بالممر الذي تفكّرين بالسير عليه . في فكّه قِطَعُ من الماضي يرسلها لك وحين يَكْتَشف ذلك الزمن كلّه بشكلٍ تام سيبرهن أنه كان معروفاً في السابق .

نظرت عيناها إليّ ، متعبتين من كلّ شيء . انهاك مريعٌ . حين أخرجتها من الطائرة حاولتْ تحديقتها أن تتلقّى كلّ شيءٍ حولها . الآن العينان محروستان وكأنهما تحميان شيئاً في الداخل . اقتربت وجلستُ على كعبيَ . انحنيتُ إلى الأمام ووضعتُ لساني على العين اليمنى الزرقاء متذوقاً الملوحة . غبار الطلع . حملتُ ذلك الطعم إلى فمها . ثم تراجعتُ إلى الخلف . بدتْ مسحةُ بياضٍ على تحديقتها . باعدتُ بين شفتيها وهذه المرة جعلتُ الأصابع تدخل عميقاً وضغطتُ لأفرق الأسنان . كان اللسان ملتوياً ، وكان عليَ أن أشدّه إلى الأمام ، كان يوجد خيط ، نَفَسُ موتٍ فيها . كان الوقت متأخراً

جداً . انحنيت إلى الأمام وحملتُ بلساني غبار الطلع الأزرق إلى لسانها . تلامسْنا مرةً بهذه الطريقة . لم يحدث شيء . تراجعتُ ، أخذتُ نَفساً تم تقدّمت ثانية . حين قابلتُ اللسان كان فيه انتفاض .

بعد ذلك الزمجرة المريعة ، عنيفة وحميمية ، ارتجافة تعبر جسمها كلّه كتيّارٍ كهربائي . قُذِفَتْ عن وضعية الاستناد إلى الحائط ذي الرسوم . دخل إليها المخلوق وقفز وسقط عليّ . بدأ الضوء يضعف في الكهف . تحرّك عنقها ، جيئة وذهاباً .

أعرفُ مكائد الشيطان . تعلّمت حين كنتُ طفلاً عن عاشقة الشيطان . سمعتُ عن غاوية جميلة جاءتْ إلى غرفة شاب وسيطلب هو إن كان حكيماً أن تستدير لأن الشيطان والساحرات لا ظهورَ لهم ، يمتلكون فقط ما يرغبون في أن يقدّموه لك . ما الذي فعلته ؟ أي حيوانٍ زرعته فيها ؟ تحدّثتُ معها على ما أظن لأكثر من ساعة . هل كنتُ عشيقها الشيطان ؟ هل كنت الصديق الشيطان لمادوكس ؟ هل رسمت خرائط هذه البلاد وحوّلتها إلى ساحة حَرْبٍ .

من المهم الموتُ في الأمكنة المقدّسة . كان هذا أحد أسرار الصحراء وهكذا دخل « مادوكس » إلى كنيسة في « سومرست » ، المكان الذي شعرَ أنه فَقَدَ قدسيته وارتكب ما آمن بأنه فِعْلٌ مُقدّس .

حين قَلبْتها ، كان جسدها كُلّه مغطّى بصباغٍ مُشعّ . أعشاب وأحجار وضوء ورماد الأقاقيا لجعلها خالدة . ضغط الجسم على لونٍ مقدّس ، أزيل أزرق العين ، جعلت غُفْلاً ، خريطة عارية حيث لم يُرسم شيء ، لا توقيع بحيرة ، لاعنقود أسود لجبل كما يوجد في شمال بوركو إينيدي تيبيستي ، لا مروحة ليمون أخضر حيث تدخل أنهار النيل إلى الراحة المفتوحة للإسكندرية ، حافة أفريقيا .

وجميع أسماء القبائل ، بدو الإيمان الذين ساروا في الاطراد الرتيب للصحراء وشاهدوا التألق والإيمان واللون . كيف يصبح حجر أو صندوق

معدني مكتشف أو عظم محبوباً وخالداً بواسطة الصلاة . إنها تدخل الآن إلى مَجْدِ هذه البلاد وتصبح جزءاً منه . نموت ونحن نحتوي غنى العشّاق والقبائل ، الأشياء التي تذوقناها ، أجساداً انغمسنا فيها وسبحنا كأنها أنهار من الحكمة ، شخصيات تسلّقناها كأنها أشجار ، مخاوف اختبأنا فيها كأنها كهوف . أرغب في أن يُعَلَّم كل هذا على جسمي حين أموت . أؤمن برقص كهذا ـ أن تضع الطبيعة علاماتٍ علينا ، ألاّ نسمّي أنفسنا على خريطة كأسماء الأغنياء على الأبنية . نحن تواريخ مشاعيّة ، كتب مشاعيّة . لَسنا مُمتلكين أو أحاديين في ذوقنا وتجربتنا . كل ما رغبتُ فيه هو أن أسير على أرضٍ كهذه بلا خرائط .

حملتُ كاثرين كليفتون إلى الصحراء ، حيث يوجد الكتاب المشاعي لضوء القمر . كنا بينَ شائعات الآبار ، في قصر الرياح .

سقط وجه ألمازي إلى اليسار ، دون أن يحدّق بأي شيء ـ ربما بركبتي « كارافاجيو » .

ـ هل تريدُ بعض المورفين الآن ؟

ـ لا .

ـ هل أحضر لك شيئاً ؟

ـ لاشيء .

X

آب

هبط « كارافاجيو » الدرجَ في الظلام ودخلَ إلى المطبخ . كان على الطاولة بعض الكرفس واللفت الذي ماتزال جذوره موحلة وكان الضوء الوحيد يصدر عن نارٍ بدأتْ « هنا » بإشعالها . كانت تدير ظهرها له ولم تسمع وقع خطواته . أيامه في الفيلا قد أراحتْ جسمه وخلّصته من توتّره فبدا أكثر كبراً وامتداداً في إيماءاته ، لم يبق سوى صمت حركاته فقط . بالأحرى كان يوجد غياب للفاعلية سهلٌ بالنسبة له الآن ، إغفاء في إيماءاته .

سحب الكرسيّ وهكذا ستستدير وتدرك وجوده في الغرفة .

« مرحباً ديفد » .

رفعَ ذراعه . شعرَ أنه كان في الصحاري فترة طويلة جداً .

« كيف حاله ؟ » .

« نائم . تفوّه بكل شيء » .

« أهوَ كما ظننت ؟ » .

« إنه بخير . نستطيع أن نبقيه » .

« اعتقدت هذا . أنا و « كيب » متأكدان أنه انكليزي . يعتقد « كيب » أن أفضل الناس هم غريبو الأطوار ، عملَ مع واحدٍ منهم .

« أعتقد أن « كيب » هو غريب الأطوار . أين هو بأية حال ؟

« إنه يخطط لشيء على الدكّة ، لايريدني أن أخرج . شيء ما من أجل

عيد ميلادي . وقفت « هنا » بعدَ انحناءٍ على البوابة ماسحة يدها على الساعد المقابل .

قال : « سأروي لكِ قصة من أجل عيد ميلادك » .

نظرتْ إليه .

« ليس عن باتريك ، اتفقنا ؟

« جزءٌ عن باتريك ومعظمها عنك » .

« مازال لا أستطيع الاستماع لهذه القصص ياديفد » .

« الآباء يموتون . تستمرين في حبهم بأية طريقةٍ . لا يمكنك أن تخبئيه في قلبك » .

« تحدث معي حين يزول مفعول المورفين » .

جاءت إليه ووضعتْ ذراعيها حوله ثم ارتفعتْ وقبّلت خدّه .

اشتد عناقه حولها ، لحيته التي لم تُحلق كالرمل على جلدها . تحب هذا فيه الآن ، كان في الماضي مُوسوِساً دائماً وفَرْقة شعره مثل شارع « يونغ » في منتصف الليل ، كما قال « باتريك » . كان « كارافاجيو » يتحرك في الماضي كإله في حضورها . الآن بعد أن هزُلَ جذعه ووجهه وشابَ أصبح إنساناً أكثر وداً .

حضّر اللغام عشاء الليلة . لم يكن « كارافاجيو » ينتظر ذلك . كان يعتبر أن وجبة مع ثلاثة هي خسارة . عثرَ « كيب » على الخضار وقدّمها مطبوخة قليلاً مع الحساء . كانتْ وجبةً أخرى بلا طعم ، ليس ماتمنّاه « كارافاجيو » بعد يومٍ كهذا حين كان يصغي إلى العجوز في الدور العلوي . فتح الخزانة التي تحت المغسلة حيث لحم مُجفّف ملفوف بقماشٍ رطب ، قطّعه « كارافاجيو » ووضعه في جيبه .

« أستطيع أن أخلّصك من المورفين ، أنت تعرف . أنا ممرضة جيّدة » .

« أنتِ مُحاطة بالمجانين » .

« نعم ، أعتقد أننا جميعاً مجانين .

حين استدعاهما « كيب » خرجا من المطبخ إلى الدكّة التي كان تخمها بدرابزونه الحجريّ المنخفض مزيّنا بحلقات الضوء .

بدتْ لـ« كارافاجيو » كخيطٍ من الشموع الكهربائية الصغيرة التي يعثر عليها في الكنائس المغبرة واعتقد أن اللّغام تجرأ كثيراً في نزعها من كنيسة ، حتى من أجل عيد ميلاد « هنا » . سارت « هنا » ببطء إلى الأمام واضعة يديها فوق وجهها . لا ريح . ساقاها وفخذاها تحرّكا عبر تنورة ردائها وكأنها مياه رقيقة . حذاؤها الرياضي صامتٌ على الأحجار .

قال اللّغام : « كنت أعثر على حلازين ميتة أينما حفرت » .

مايزالان لايفهمان . انحنى « كارافاجيو » فوق رجرجة الأضواء . كانت أصداف حلازين معبأة بالزيت . نظر إلى صفّها ملياً ، يجب أن يكون هناك أربعون منها .

قال كيب : خمسة وأربعون ، أعوام هذا القرن . نحتفل في بلادي بالعصر كما نحتفل بأنفسنا .

تحركت « هنا » على طولها واضعة يديها في جيوبها بالطريقة التي يحبَ « كيب » أن يراها فيها ، مسترخيةً وكأنها تخلّصت من ذراعيها من أجل الليل وهي الآن في حركةٍ بسيطةٍ بلا ذراعين .

أشاح « كارافاجيو » بصره بسبب الحضور المدهش لثلاث زجاجات نبيذ أحمر على الطاولة . سار إليها وقرأ اسم نوعها وهزّ رأسه منبهراً . كان يعرف أن اللّغام لن يشرب أياً منها . كانت الزجاجات الثلاث مفتوحة . لابدّ أن « كيب » استعان بكتاب اتكيت من المكتبة . ثم شاهدَ الذرة واللحم والبطاطا . لفّت « هنا » ذراعها حول ذراع « كيب » وجاءتْ معه إلى الطاولة .

أكلوا وشربوا ، وكانت الكثافة اللامتوقعة للخمرة كاللحم على ألسنتهم عبّروا عن سخافتهم حالاً في شرب نخب اللّغام ـ الناهب العظيم ـ ونخب المريض الإنكليزي . شربا نخب بعضهما وشارك كيب بكوب ماء . حدثَ هذا

حين بدأ يتحدّث عن نفسه . « كارافاجيو » يضغط عليه ولا يصغي دائماً ، يقف أحيانا ويسير حول الطاولة معبّراً عن سعادته حيال كل هذا . يريدهما أن يتزوّجا ، وتاق إلى أن يجبرهما شفهياً على ذلك ، إلا أنه بدا أنهما يمتلكان قواعدهما الغريبة حيال علاقتهما . ماذا كان يفعل في هذا الدور . جلسَ ثانية . وكان يلاحظ بين فينة وأخرى انطفاء ضوء . كانت أصداف الحلازين تحمل كمية محدودة من الزيت فقط . سينهض « كيب » ويملؤها ثانية بالبارافين القرنفلي .

« يجب أن نبقيها مشتعلة حتى منتصف الليل » .

ثم تحدثوا عن الحرب التي أصبحتْ بعيدة جداً . قال كيب :

« حين تنتهي الحرب مع اليابان سيذهب الجميع أخيراً إلى أوطانهم » .

سأله « كارافاجيو » : و« إلى أين ستذهب ؟ »

أدار اللّغام رأسه بنصف انحناءة ونصف هزّة وفم مبتسم . وهكذا بدأ « كارافاجيو » يتحدّث معظم الأوقات مع كيب .

اقترب الكلب من الطاولة بحذر ووضع رأسه في حِجر « كارافاجيو » . طلبَ اللّغام قصصاً أخرى عن تورنتو وكأنها مكانٌ للعجائب الخاصة . الثلج الذي أغرق المدينة وجمّد المرفأ ، المعدّيات في الصيف حين يصغي البشر إلى الحفلات . إلا أن ماكان مهتما به فعلياً هو المفاتيح لفهم طبيعة « هنا » ، رغم أنها تتملّص وتبعد « كارافاجيو » عن القصص التي تتضمّن لحظةً من حياتها . أرادت من « كيب » أن يعرفها فقط في الحاضر ، شخصية ربما فيها أخطاء أكثر أو عاطفة أكبر أو أقسى ، أو أكثر هوساً من الفتاة أو المرأة الشابّة التي كانَتْها آنذاك . يوجد في حياتها أمها « أليس » ووالدها « باتريك » وزوجة والدها « كلارا » و« كارافاجيو » . أقرّتْ سابقاً بهذه الأسماء « لكيب » وكأنها أوراق اعتمادها ، مهرها . كانت بلا أخطاء ولا تحتاج إلى نقاش . استخدمتها كمراجع في كتاب تستطيع أن تشير إليها بالطريقة الصحيحة لسلق بيضةٍ ، بالطريقة الصحيحة لحشو اللحم بالثوم . كان يجب ألا يشكك بها .

والآن ـ لأنه مخمور تماماً ـ روى « كارافاجيو » قصّة غناء « هنا » للنشيد الوطني الفرنسي ، التي رواها لها من قبل . « نعم . لقد سمعتُ الأغنية » ، قال « كيب » وحاول أن يقلّدها . « لا ، عليك أن تغنيها بصوت مرتفع ، وأنت واقف » ، قالتْ « هنا » .

وقفتْ ، انتزعت حذاءها التنسي وصعدت إلى الطاولة . كانت ثلاثة أضواء صدفية ترتعش ، على وشك الانطفاء ، على الطاولة قرب قدميها الحافيتين . « هذه لكَ ، يجب أن تتعلمها هكذا ياكيب . إنها لك » .

غَنَّتْ في الظلمة وراء ضوئهم الصدفي ، وراء مربّع الضوء القادم من غرفة المريض الإنكليزي إلى السماء المظلمة التي تتموّج بظلال السرو . أخرجت يديها من جيوبها .

كان « كيب » سمع الأغنية في المخيّمات حيث غنّتْها مجموعات الرجال ، غالباً أثناء لحظات غريبة ، مثلاً قبل بطولة كرة قدم مرتجلة . وحين سمعها « كارافاجيو » في السنوات القليلة الأخيرة للحرب لم يحبها أبداً ولم يحب أن يصغي إليها .

إلا أنه أصغى بمتعةٍ الآن لأنها كانتْ تغنّي ثانيةً ، وتبدّل هذا بسرعة بسبب طريقة غنائها . ليس الولع بها في سن السادسة عشرة ، بل تذكّر دائرة الضوء حولها في الظلام . كانت تغنيها وكأنها شيء ينمّ عن أذى عاطفي ، وكأن المرء لايستطيع أن يجمع كل أمل الأغنية مع بعضه . بدّلتها السنوات الخمس التي تقود إلى ليلة عيد ميلادها الواحد والعشرين في السنة الخامسة والأربعين للقرن العشرين بصوت مسافر متعب ، وحيدةً إزاء كل شيء . عهد جديد ، لم يعد يوجد يقين بالأغنية ، استطاع المغنّي أن يكون صوتاً واحداً ضدَ جميع جبال السلطة . كان هذا هو اليقين الوحيد . كان الصوت هو الشيء الوحيد غير الفاسد . أغنية ضوء حلزوني . أدرك « كارافاجيو » أنها تغني مع قلب اللّغام وتردّد صداه .

أمضيا في الخيمة ليالي بلا كلامٍ وأخرى مليئة به . ليسا متأكدين أبداً ما الذي سيحدث ، جزء ماضي مَن سيبزغ وأية لمسة ستكون غُفلاً وصامتة في ظلمتها . حميمية جسدها أو جسم لغتها في أذنه حين يستلقيان على المخدة الهوائية التي يصرّ على نفخها واستخدامها كلّ صباح . لقد فُتِن بهذا الابتكار الغربي . يفرغها من الهواء بطاعةٍ ويطويها ثلاث طيّات كل صباح كما فعل طوال الطريق في المساحة الواسعة لإيطاليا .

يستند « كيب » إلى عنقها في الليل ، يتلاشى تحت أظافرها التي تحك جلده . أو يضع فمه على فمها ، معدته على رسغها .

تغنّي وتدندن . تتخيّله في ظلمة هذه الخيمة نصف طائر ـ نوعية الريش عليه ، الحديد البارد على رسغه . يتحرّك بكسلٍ كلما كان في ظلمةٍ كهذه معها ، ليس سريعاً كالعالم ، بينما ينزلق في ضوء النهار عبر كل الفوضى التي حوله كما يندمج لون في لون .

إلا أنه يعانق الحذرَ في الليل . لا تستطيع أن ترى نظامه وانضباطه دون أن ترى عينيه . لا مفتاح له . يلمس في كل مكان مداخل عمياء ، وكأن الأعضاء ، القلب ، صفوف الأضلاع يمكن أن تُرى تحت الجلد ، اللعاب الذي على يدها والذي هو لونٌ الآن . رسم خريطة حُزنها أكثر من أي شخص آخر ، وكأنها تعرف الممر الغريب للحب الذي يمتلكه تجاه أخيه الخطير . « أن نكون جوّالين هذا في دمنا . لهذا السجن صَعْب جداً على طبيعته وسوف يقتل نفسه ليتحرّر » .

في ليالي السمَر ، يسافران إلى بلده ذي الأنهار الخمسة . الستلج ، جيلم ، رافي ، شيناب ، بيز . يرشدها إلى المعبد العظيم خالعاً حذاءها يراقبها حين تغسل قدميها ، يغطّي رأسها . بني المكان الذي دخلا إليه في ١٦٠١ ، انتهك في ١٧٥٧ وبني ثانية على الفور . أضيف إليه الذهب والرخام في ١٨٣٠ . لو أخذتكِ قبل الصباح ستشاهدين أولاً الضباب فوق المياه ، ثم ينقشع ليكشف المعبد في الضوء . ستسمعين ترتيلات القدّيسين ـ

رامانانـدا ، نـاناك وكـابير . إن الـغنـاء هو في محـور الـعبادة . تسـمعيـن الأغنيـة تشـمّين الفـاكهة من حديقة المـعبد ـ الرمّان والبرتقال . إن المـعبد مـلاذٌ في اندفاعة الحياة ، متاح للجميع . إنه السفينة التي عبرتْ محيط الجهل » .

يـتحركـان عبـر الليل ، عبـر البـاب الـفضّي إلى الـضريـح حيث يـستلقي الكتاب المـقدّس تحت ظلّة من القماش المطرّز . يرتّل الكهنة اشعار الكتاب بمواكبةٍ من الموسيقيين . يغنّون من الرابعة صباحاً إلى الحادية عشرة ليلاً . يُفتح الـكتـاب* عـشوائياً ويـتـم اخـتيـار اقتبـاسٍ ولـمـدة ثـلاث ساعـاتٍ قبـل أن ينقشع الضباب عن البحيرة ليكشف المعبد الذهبي ، تمتزج الأشعار وتنطلق في قراءةٍ لا تنقطع .

يجعلها « كيـب » تمشي إلى جانـب بركـةٍ إلى شجرة الضريـح حيث دُفنَ « بابا كـوجهاجي » ، الـكاهن الأول للمعبد . شجرةُ خرافاتٍ ، عمرها أربعمائة وخمسون عاماً . « جاءت أمي إلى هنا لتربط خيطاً إلى غصن وتـتوسّل للشجرة لتـرزقها ولـداً ، وحين وُلِدَ أخي عادت وطلبتْ منها أن تـباركها بآخر . أشجار مقدّسة ومياه سحرية في جميع أنحاء البنجاب » .

« هنا » صامتة . يعرف عمق الـظلمـة فيـها ، فقدانها للطـفل وللإيـمان . ينتزعها دائماً عن حافة حقول حزنها . طفلٌ مفقود . أب مفقود . قال لها : « لقد فقـدتُ شـخصاً كـالأب أيضاً . إلا أنـهـا تـعرف أن هـذا الـرجل الـذي إلـى جانبها هو أحد المـفتونـين ، وتـرعرع كـلامُنْتمٍ وهكذا يـسـتطيع أن يغيّر الـولاءات أن يعوّض الخسـارة . يـوجد أولئك الـذيـن حطمـهم الظـلم وأولئك الـذيـن لم يـحطـمهم . إذا سـألَتْهُ سيـقول إنـه عاشَ حيـاةً جيّدة ـ شـقـيقه في الـسجن ، أصدقـاؤه ماتـوا في الانفجارات ،وهـو يجازف بحياته كل يوم في الحرب .

رغم اللطف الـذي في بـشرٍ كـهؤلاء كـانوا غيـر عـادلين بـشـكلٍ مريع . يستطيع أن يمضي النهار كلّه في حفرةٍ موحلةٍ ليعطّل قنبلةً يمكن أن تقتله في

* Granth Sahib .

أية لحظة ، يستطيع أن يعود إلى المنزل من عملية دفن لغَام زميل بمعنويات منخفضة ولكن مهما كانت المشاكل حوله فثمت دائماً حلٌّ وضوء . إلا أنها لم تشاهد أياً منهما . توجد بالنسبة له خرائط القدر المتنوّعة . وفي معبد « أمريتسار » يُرحّب بجميع الأديان والطبقات . والناس يأكلون معاً . سَيُسمح لها هيَ أن تضع النقود أو زهرة على الملاءة المفروشة على الأرض ثم تنضمُّ إلى الغناء العظيم المستمرّ .

رغبتْ في هذا . كان في داخلها حزن من الطبيعة . هو نفسه سيسمح لها أن تدخل من أي البوابات الثلاث عشرة لشخصيته ، لكنها عرفت أنه إذا كان مُعرّضاً للخطر فلن يعود أبداً ليواجهها . سيخلق مكاناً حوله ويركّز . كانت هذه هي صنعته . قال إن السيخ متألقون في التكنولوجيا . « تجمعنا قرابة صوفيّة... ماهي ؟ . « صلةٌ » . نعم ، صلة مع الآلات » .

سيضيع من بينهم طوال ساعات ، يصل إيقاع الموسيقا الصادرة عن المستقبلة البلورية إلى جبهته وشعره . لم تصدّق أنها استطاعت أن تستدير كليةً إليه وتصبح عاشقةً له . يتحرك بسرعة تسمح له أن يستبدل الخسارة . هذه هي طبيعته . لن تحكم عليها . أي حق تمتلكه لتفعل هذا ؟ يخرج كيب كلّ صباحٍ وحقيبته تتدلّى من كتفه اليُسرى ويسير في الممرّ مبتعداً عن فيلا « سان جيرولامو » . تراقبه كل صباح وترى جدّته حيال العالم ربّما للمرة الأخيرة . بعد دقائق سينظر إلى أشجار السرو التي مزّقتها الشظايا ، وتحطمتْ أغصانها الوسطى . لابدّ أن « بليني » سارَ في ممرٍّ كهذا ، أو « ستاندال » ، لأن الممرات في رواية « دير بارم » هي في هذا الجزء من العالم أيضاً .

ينظر « كيب » إلى الأعلى ، فوقه قوس الأشجار العالية المجروحة ، الممرّ أمامه قروسطيٌّ ، وهو شاب يمتهن أغربَ مهنةٍ ابتكرها عصره ، لغَام ، مهندس عسكري يتحرّى عن الألغام ويفككها . يبزغ كل صباح من خيمته ، يستحم ويرتدي ثيابه في الحديقة ثم يبتعد عن الفيلا ومحيطها ، حتى أنه لايدخل

المنزل ـ قد يلوّح لها بيده إذا شاهدها ـ وكأن اللغة ، البشرية ، ستشوشانه ، تدخلان كالدم إلى الآلة التي يجب أن يفهمها . ستشاهده على بعد أربعين ياردة من المنزل ، في فسحة من الممر .

كانت هي اللحظة التي يتركهم فيها جميعاً خلفه . اللحظة التي يُغلق فيها الجسر المتحرك وراء الفارس ويصبح وحيداً مع هدوء موهبته الصارمة . في « سيينا » اللوحات التي شاهدتْها . لوحة جصّية لمدينة . على بعد بضع ياردات خارج جدران المدينة تفتّتتْ رسوم الفنان ، وهكذا لايوجد حتى أمن الفن ليقدّم بستاناً في الدونمات البعيدة للمسافر المغادر للقلعة . كانتْ تشعر أن كيب يذهب إلى هناك أثناء النهار ليخرج كل صباح من المشهد المرسوم نحو الجروف المظلمة للعماء . الفارس . القدّيس المحارب . ترى البزّة الخاكية تترجرج عبر أشجار السرو . سمّاه الرجلُ الإنكليزي هاربَ القدر . خمّنتْ أن تلك الأيام بدأت بالنسبة له مع متعةِ رفْع عينيه عالياً إلى الأشجار .

نقلوا اللّغامين بالطائرات إلى نابولي في بداية تشرين ١٩٤٣ بعد أن اختاروا أمهرهم من سلك الهندسة والذين كانوا في جنوب إيطاليا ، وكان « كيب » بين الرجال الثلاثين الذين أُحْضِروا إلى المدينة المفخّخة .

خطّط الألمان في الحملة الإيطالية لأحد الإنسحابات الأكثر تألقاً وهولاً في التاريخ . استغرق تقدّم الحلفاء ، الذي كان يجب أن يتم في شهرٍ ، عاماً . كانت نارٌ في طريقهم . وكان اللغامون يركبون على رفراف الشاحنات حين كانت الجيوش تتقدّم شمالاً لتبحث أعينهم عن تغيرات جديدة في التربة تشير إلى وجود ألغام أرضية أو فردية . كان التقدّم بطيئاً جداً . وبعيداً في الشمال ، على الجبال كانت فرق أنصار غاريبالدي التي ترتدي مناديل حمراء للتعارف تلغمُ الطرقات بالمتفجرات التي تنفجر حين تمرّ الشاحنات الألمانية فوقها .

إن وزن زراعة الألغام في إيطاليا وشمال أفريقيا لايمكن تصوّره . في نقطة اتصال طريق كيسمايو ـ أفمادو ، عُثِرَ على ٢٦٠ لغماً . وعثر على ٣٠٠ في منطقة جسر نهر أومو . وفي ٣٠ حزيران ١٩٤١ زرع اللغامون من جنوب أفريقيا ٢٧٠٠ لغم من نوع « مارك » في يوم واحد في مرسي مطروح . بعد أربعة أشهر أزال البريطانيون من مرسي مطروح (٧٨٠٦) ألغام وزرعوها في مكانٍ آخر .

كانت الألغام تُصنع من كلّ شيء . تحشى أنابيب مطلية بالزنك طولها ٤٠ سنتمتراً بالمواد المتفجرة وتُترك على طول الممرات العسكرية . كانت الألغام في الصناديق الخشبية تُترك في المنازل . وكانت الأنابيب تُملأ بالجلجنت* ، وقطع المعدن والمسامير . كان لغامو جنوب أفريقيا يصنعون الحديد والديناميت في صفائح نفطٍ تتسع لأربعة غالونات تستطيع أن تدمّر السيارات المصفّحة .

كان الأمر أكثر سوءاً في المدن . كانتْ وحدات نزع الألغام القليلة

* نوع من الديناميت .

التدريب تُنْقل بالسفن من القاهرة والإسكندرية . أصبحت الكتيبة الثامنة عشرة مشهورة . أزالتْ خلال ثلاثة أسابيع (١٤٠٣) قنابل عالية الإنفجار في تشرين الأول ١٩٤١ . كانت إيطاليا أسوأ من أفريقيا ، وكانت الصمّامات التي تعمل بالساعة غريبةً بشكل كابوسي ، والآليات النابضيّة تختلف عند الآليات الألمانية التي تدربَتْ عليها الوحدات . حين يدخل اللغامون المدن يسيرون في شوارع تتدلى فيها الجثث عن الأشجار أو شرفات الأبنية ، وغالباً ما كان الألمان يردّون بقتل عشرة إيطاليين إذا قُتلِ ألمانيّ واحد . كانت بعض الجثث المعلّقة ملغومة وكان يجب تفجيرها في الجو .

أفرغَ الألمان نابولي في الأول من أكتوبر ١٩٤٣ . أثناء غارةٍ للحلفاء في أيلول الماضي خرج مئات السكان وبدأوا يعيشون في الكهوف خارج المدينة . قصف الألمان أثناء انسحابهم مداخل الكهوف وأجبروا المواطنين على البقاء تحت الأرض . انتشر وباء التيفوئيد . وفي الميناء لُغِّمتْ السفن الغارقة تحت الماء .

سار اللغامون الثلاثون في مدينة مفخخة . قنابل مؤقتة مختومة على جدران الأبنية العامة . جميع العربات ملغومة تقريباً . وبدأ اللغامون يشكون بأي شيء يوضع عرضياً في غرفةٍ . يفقدون الثقة بأي شيء يوضع على طاولةٍ إلا إذا كان مواجهاً « الساعة الرابعة » . بعد سنوات من الحرب يضع لغّام قلماً على طاولةٍ وسوف يموضعه جاعلاً النهاية الأسمك مواجهة « للساعة الرابعة » .

استمرتْ نابولي كمنطقة حرب ستة أسابيع وكان « كيب » هناك مع الوحدة طوال الفترة . اكتشفوا بعد أسبوعين المواطنين في الكهوف . جلودهم سوداء من الخراء والتيفوئيد . كان موكبهم في طريقه إلى مستشفيات المدينة ، موكبَ أشباحٍ .

بعد أربعة أيام انفجر مكتب البريد وقُتل إثنان وسبعون شخصاً أو جرحوا . أحرقتْ أغنى مجموعة من السجلات القروسطية في أوروبا . أحرقت في أراشيف المدينة .

في عشرين تشرين الأول قبل ثلاثة أيام من إعادة التيار الكهربائي ، استسلم ألماني ، قال للسلطات إن آلاف القنابل المخبأة في قسم الميناء من المدينة متصلة بالنظام الكهربائي المعلّق ، وحين يعود التيار الكهربائي ستتلاشى المدينة في اللهب . حُقِّقَ معه أكثر من سبع مرات في مراحل مختلفة من اللين والعنف ولم تتأكد السلطات من صحة اعترافه . أفرغت هذه المرة منطقة كاملة من المدينة . الأطفال والشيوخ ، الموتى تقريباً ، الحوامل ، الذين أخرجوا من الكهوف ، الحيوانات ، سيارات الجيب الجديدة ، الجنود الجرحى ، الكهنة والراهبات في الأديرة . في مساء ٢٢ تشرين الأول ١٩٤٣ ، بقيَ اثنا عشر لغاماً فقط .

يجب أن تعود الكهرباء في الثالثة بعد الظهر ، في اليوم التالي . لم يكن أيٌ من اللغامين في مدينةٍ فارغةٍ من قبل ، وكانت هذه الساعات الأغرب والأكثر إزعاجاً في حياتهم .

كانت العواصف الرعدية تهدر فوق توسكانيا في الليل وكان البرق يسقط نحو أي معدن أو برجٍ يخرج من المشهد . يعود « كيب » دائماً إلى الفيلا عبر الممرّ الأصفر بين أشجار السرو حوالي السابعة مساءً ، وقتَ يبدأ الرعد إن كان هناك رَعْدٌ . التجربة القروسطية .

يبدو أنه يحب عادات مؤقتة كهذه . ستشاهد هي أو « كارافاجيو » شكله في المسافة ، يتوقّف في سيره إلى المنزل لينظر إلى الخلف ، إلى الوادي ليرى كم يبعد المطر عنه . تعود « هنا » و« كارافاجيو » إلى المنزل . يتابع « كيب » طريقه الذي يبلغ نصف الميل صعوداً على الممر الذي يلتف ببطءٍ إلى اليمين

ثم ببطءٍ إلى اليسار . يُسْمَع صخب بوطه على الحصى . تصله الريح في هبّاتٍ ضاربةً أشجار السرو كيفما اتفق فتميل وتدخل أكمام قميصه .

يسير طوال عشر دقائق غير متأكدٍ أبداً من أن المطر سيطاله . سيسمع المطر قبل أن يشعر به ، طقطقة على العشب الجافّ ، على أوراق الزيتون ، إلا أنه الآن في ريح الهضبة العظيمة المنعشة ، في طليعة العاصفة .

إذا طاله المطر قبل أن يصل إلى الفيلا ، يتابع السير في الخطوة نفسها يضع الرداء المطاطي على جراب عدّته ويتابع السير .

يسمع في خيمته الرَعْدَ الصافي ، قرقعاته الحادّة فوق رأسه ، صوت عجلة عربةٍ حين يختفي في الجبال . ضوء شَمْسٍ مفاجئٍ من البرق عبر حائط الخيمة ، يبدو له أكثر تألقاً من شعاع الشمس ، ومِيض فوسفوريٌ ، شيءٌ كالآلة يتعلّق بالكلمة الجديدة التي سمعها في غرف الدروس وعبر مستقبلته البلّورية ، والتي هي : « نوويّة » . يحلّ العمامة المبلّلة في الخيمة ، يجفّف شعره ويلفّ رأسه بأخرى .

تتدحرج العاصفة خارجةً من « بييد مونت » إلى الجنوب والى الشرق . يسقط البرق على أبراج الكنائس الألبيّة الصغيرة التي تعيدُ لوحاتها تمثيلَ مراحلَ الصلب أو ألغاز المسبحة . وفي بلدات « ڤاريس » و « فازاللو » الصغيرة تظهرُ أشكال من الطين النضيح أكبر من الحياة نحِتَتْ في (١٦٠٠) بشكل قصيرٍ عاكسةً أشكالاً توراتية . الذراعان المكبّلتان للمسيح المعاقب مُرْجَعتان إلى الخلف ، السوط وهو يهبط ، الكلب النابح ، ثلاثة جنود في لوحات الكنيسة الصغيرة التالية يرفعون الصليب إلى الأعلى نحو الغيوم المرسومة .

تتلقى فيلا سان جيرولامو ، المتوضّعة حيث هي ، لحظات من البرق كهذه أيضاً ــ الصالات المظلمة ، الغرفة التي يستلقي فيها المريض الإنكليزي ، المطبخ حيث تشعل « هنا » ناراً ، الكنيسة الصغيرة المقصوفة ـ تُضاءُ كلها فجأة ، دون ظلٍّ . سيسير « كيب » بلا مخاوف تحت الأشجار في

رقعته الحديقة أثناء عواصف كهذه ، لأن الأخطار التي تعترضه من الصواعق محدودة بالمقارنة مع خطر حياته اليومية . الصور الكاثوليكية الساذجة ضمن تلك الأضرحة في البلدات التي إلى جانب التلّ التي رآها ترافقه في نصف ظلمته ، بينما يحصي الثواني بين البرق والرعد . ربما هذه الفيلا لوحة مشابهة ، أربعتهم في حركةٍ خاصّة ، مضاءة بشكل خاطف ، معلّقةً بسخرية إزاء هذه الحرب .

شقّ اللغامون الذين بقوا في نابولي طريقهم في المدينة . دخلوا طوال الليل إلى الأنفاق المختومة ، هبطوا في المجارير باحثين عن خطوط الصمامة التي يمكن أن تكون موصولة بالمولدات المركزية . يجب أن يبتعدوا في الثانية بعد الظهر قبل أن تُشَغّل الكهرباء .

مدينة الإثني عشر . كلٌّ منهم في أجزاء مختلفة من البلدة . واحد عند المولّد ، آخر عند الخزّان ، مايزال يغوص ـ السلطات متأكدة تماماً أن الدمار سيحصل من الطوفان . كيف يمكن تلغيم مدينة . الأعصاب مثارة بسبب الصمت . كل مايسمعونه من العالم البشري هو نباح الكلاب وأغاني الطيور التي تجيء من نوافذ الشقق فوق الشوارع . حين يحين الوقت ، سيدخل إلى إحدى الغرف مع طائرٍ . شيء بشريٌّ ما في هذا الفراغ . يعبر متحف الآثار الوطني حيث وضِعَتْ بقايا «بومبي» و «هيركولانيوم» . شاهدَ الكلب العريق مجمداً في رفات أبيض .

يشعل ضوء اللّغام القرمزي المُثَبَتْ إلى ذراعه اليُسرى ـ حين يسير ، المصدر الوحيد للضوء في «السترادا كاربونارا» . يُصابُ بالإعياء من البحث الليلي ، ويبدو الآن أن لديه القليل ليفعله . يمتلك كل منهم هاتفاً لاسلكياً لكن

يجب أن يُستخدم من أجل اكتشافٍ طارئ فقط . يُخيّم صمتٌ مرعبٌ في الساحات الفارغة والأحواض الجافّة يجعله مُتعباً جداً .

يتعقب طريقه في الواحدة بعد الظهر نحو كنيسة « سان جيوفاني آكاربونارا » المصابة حيث يعرف كنيسة صغيرة لصلاة المسبحة . كان سار عبر الكنيسة منذ بضع ليالٍ حين ملأ البرق الظلمة وشاهدَ أشكالاً بشريةً ضخمة في الصور . ملاك وامرأة في غرفة نوم . حلّتْ الظلمة مكان المشهد القصير وجلسَ منتظراً على مقعد خشبي ، إلا أنه لم يحدث كشف آخر .

يدخل إلى زاوية الكنيسة مع أشكال الطين النضيح المرسومة بلون بشرٍ بيض . يعكس المشهد غرفة نومٍ حيث تتحدث امرأة مع ملاكٍ . يكشف شعر المرأة الرمادي المجعّد نفسه تحت الرداء الأزرق المفكوك الأزرار ، أصابع يدها اليُسرى تلمس عظم صدرها . حين يخطو إلى الأمام إلى الغرفة ، يُدرك أن كلّ شيء أضخم من الحياة . رأسه ليس أكثر أرتفاعاً من كتف المرأة . تصل ذراع الملاك المرفوعة إلى ارتفاع خمسة عشر قدماً . تمثل هذه الأشياء صداقة بالنسبك لكيب . إنها غرفة مسكونة وهو يسير داخل نقاش هذه المخلوقات التي تُمَثّلُ خرافةً ما عن البشرية والسماء .

ينزل حقيبته عن كتفه ويواجه السرير . يريد أن يستلقي عليه ، إلا أنه يتردّد بسبب وجود الملاك فقط . سار سابقاً حول الجسم الأثيري ورأى لمبات الضوء الغبارية المثبتة إلى ظهره تحت الجناحين داكني اللون ، وعرف رغم رغبته أنه لا يستطيع أن ينام بسهولة بحضور شيءٍ كهذا . ثلاثة أزواج من مشايات المسرح ، تنم عن رقّة مهندس الديكور ، تظهر من تحت السرير . إنها حوالي الرابعة والأربعين دقيقة .

ينشر رداءه على الأرض ، يحوّل الحقيبة إلى مخدةٍ ويستلقي على الحجر . نام معظم أيام طفولته في « لاهور » على أرض غرفته . وفي الحقيقة لم يعتدْ أبداً على أسرّة الغرب . كل ما يستخدمه في خيمته حشية قش ومخدّة هوائية ، بينما في انكلترة ، حتى حين كان يمكث مع اللورد سفولك كان

يغوص برهاب في عجينة الفراش ويستلقي هناك أسيراً ومستيقظاً إلى أن يزحف لينام على السجادة .

يتمدّد إلى جانب السرير . يلاحظ أن الأحذية أكبر من الحياة أيضاً . تنزلق فيها أقدام الأمازونيات . فوق رأسه ذراع يمنى حذرة لامرأة . وراء قدميه الملاك . حالاً سيُشَغّل أحد اللّغامين كهرباء المدينة ، وإذا كان سيتفجر سيفعل هذا في حضرة هذين الإثنين . سيموتون أو يصبحون آمنين . لا شيء آخر يستطيع أن يفعله على أية حال . كان مستيقظاً طوال الليل من أجل بحثٍ أخير عن خبايا الديناميت والذخيرة المؤقتة . ستتفتّتْ الجدران حوله أو سيسير عبر مدينةٍ من الضوء . على الأقل عثر على هذه الأشكال الأبويّة . يستطيع أن يسترخي في وسط مسرحية هذه المحادثة .

وضع يديه تحت رأسه مُلتقطاً فظاظة جديدة في وجه الملاك لم يلحظها من قبل . خدعته الزهرة البيضاء التي يحملها . الملاك محاربٌ أيضاً . في وسط هذه السلسلة من الأفكار يغمض عينيه ويستسلم للتعب .

ينهض بابتسامةٍ على وجهه وكأنه ارتاح أخيراً لأنه نام ، من رفاهية شيء كهذا . راحة يده اليسرى مستندة إلى الإسمنت . لون عمامته يذكّر بلون ياقةٍ شريطيّةٍ على عنق مريم .

عند قدميها اللّغام الهندي الصغير في بزّته إلى جانب ست مشايات . يبدو أن لا زمن هنا . كل منهم اختار موقعاً أكثر راحة لينسى الزمن . وهكذا سيتمّ تذكّرنا من قبل الآخرين . في راحةٍ مبتسمة كهذه عندما نثق بمحيطنا . الصورة الآن تحوي « كيب » عند أقدام شكلين يوحيان بأنهما يتناقشان حول قدره . الذراع المرفوعة وَقْفٌ للإعدام ، وَعْدٌ بمستقبل عظيم لهذا النائم ، الشبيه بالطفل ، الأجنبيّ . ثلاثتهم عند نقطة القرار ، الاتفاق .

تحتَ الغطاء الرقيق للغبار يمتلك وجه الملاك فرحاً قوياً . هناك ست لمباتٍ مثبتة إلى ظهره ، اثنتان معطّلتان ولكن رغم هذا ، تضيء أعجوبة

الكهرباء جناحيه من الأسفل فجأة ، بحيث أن لونها الأحمر الدموي والأزرق والذهبي والذي بلون حقول الخَردل ، يشعّ مفعماً بالحيوية إبّان الأصيل .

أينما كانت « هنا » الآن أو في المستقبل ستتذكر خط حركة جسم « كيب » في خروجه من حياتها . ذهنها يكرّر ذلك . الممر الذي أغلقه بينهم . حين تحوّل إلى حجرٍ من الصمت في وسطهم . تذكر كل شيء في ذلك اليوم الآبيّ ـ كيف كانت السماء والأشياء التي على الطاولة أمامها تُعْتِمُ تَحْتَ الرعد .

تشاهده في الحقل ، يداه تمسكان رأسه ، ثم تدرك أن هذه ليست إيماءة ألم بل تعكس حاجته ليثبّت السماعات . يبعد عنها مائة ياردة في الحقل الأسفل حين تسمع صرخةً تبزغ من جسمه الذي لم يرفع صوته بينهم أبداً . يسقط على ركبتيه كأنه يسترخي . يمكُث هكذا ثم ينهض ببطءٍ ويتحرّك بشكل مائلٍ نحو خيمته ، يدخل إليها ويغلقها خلفه . تسمعُ قرقعةَ الرعد وتشاهدُ اعتامَ ذراعيها .

يخرج « كيب » من الخيمة حاملاً بندقية . يدخل إلى فيلا سان جيرولامو ويعبرها متحركاً ككرةٍ فولاذية في « لعبة الأركيد »* عبر المدخل ثم يصعد الدرجَ ثلاث درجات كل مرة ، نفسه سريعٌ ، وقع خطواته على الأقسام العمودية للدرج . تسمع قدميه على طول المدخل وهي تتابع الجلوس إلى الطاولة في المطبخ ، الكتاب أمامها ، القلم ، هذه الأشياء مجمّدةٌ ومظلّلة في ضوء ماقبل العاصفة .

---

* arcade game .

يدخل إلى غرفة النوم ، يقف عند قدم السرير حيث يستلقي المريض الإنكليزي .

مرحباً أيها اللّغام .

سناد البندقية على صدره ، معلاقها مثبَتٌ على ذراعه المثلّثية .

ما الذي يجري في الخارج ؟

يبدو « كيب » مُداناً ، مفصولاً عن العالم ، وجهه الأسمر يبكي . يستدير الجسم ويطلق النار على الحوض القديم ، ويرتفع غبار المرمر على السرير . يستدير إلى الوراء فتصبح البندقية مسدّدة إلى الإنكليزي . يبدأ بالارتجاف ، ثم يحاول كلُّ شيءٍ فيه أن يسيطرَ على هذا .

ضعْ البندقية يا « كيب » .

يضرب ظهره بالحائط ويوقف ارتجافه . غبار المرمر في الجوّ حولهما .

جلستُ عند قدم هذا السرير واستمعتُ إليك ، أيها العمّ في هذه الأشهر الأخيرة . حين كنتُ صبياً فعلتُ الشيءَ ذاته . اعتقدت أنني أستطيع أن أملأ نفسي بما علّمني إياه البشر الأكبر سناً . آمنت أنني أستطيع أن أحملَ تلك المعرفة ، وأبدّلها ببطءٍ ، ثم ، على أية حال ، أنقلها عبري إلى آخر .

تربيّت على تقاليد من بلادي ، ولكن ، فيما بعد وغالباً ، من بلادكَ . جزيرتكم البيضاء الهشّة التي غيّرتْ بالعادات وقواعد السلوك والكتب والمفوّضين والعقل بقيةَ العالم . دافعتم عن السلوك الدقيق . كنت أعرفُ أنني إذا رفعتُ كوبَ الشاي بالإصبع الخطأ ، سوف أُطْرَد . إذا ربطتُ العقدة الخطأ في ربطة العنق سأكون مطروداً . أهي السفن فقط التي منحتكم قوةً كهذه ؟ أكان السبب ، كما قال أخي ، أنكم امتلكتم التواريخ وآلات الطباعة ؟

أنتم ، ثم فيما بعد الأميركان بدلّتمونا بقواعدكم التبشيرية . بدّد الجنودُ الهنود حياتهم كأبطالٍ بحيث يصبحون خالدين . تزدهر حروبكم كلعبة الكريكيت . كيف تخدعوننا في هذا ؟ هنا... استمعوا أيها الناس إلى ما فعلتم .

يرمي البندقية على السرير ويتحرّك نحو الإنكليزي ، المستقبلة البلورية

معلّقة من حزامه . يفكها ويضع السماعات فوق الرأس السوداء للمريض ، الذي يجفل من ألم جلدة رأسه ، إلا أن اللّغام يتركها عليه ، ثم يسير إلى الخلف ويلتقط البندقية . يشاهد « هنا » على الباب .

قنبلة واحدة . ثُمَّ أخرى . هيروشيما ، ناغازاكي . يحرف البندقية نحو التجويف . يبدو الصقر في جوّ الوادي يحلّق مُتعمِّداً في لوحة المنظار . لو يغمضُ عينيه سيشاهد شوارع آسيا تتآكل في النار التي تتدحرج عبر المدن كخريطةٍ متفجّرة ، إعصار الحرارة يُذْبِلُ الأجسام حين يقابلها . ظلال البشر فجأة في الجو . ارتعاشة الحكمة الغربية .

يراقب المريض الإنكليزي واضعاً السماعات مركزاً عينيه ، مصغياً . يهبط منظار البندقية عن الانف الرقيق إلى تفاحة آدم ، فوق عظم الترقوة . يتوقّف « كيب » عن التنفّس ، مسدداً البندقية من زواياها الصحيحة . لا حركة .

ثم تنظر إليه عينا الإنكليزي .

أيها اللّغام .

يدخل « كارافاجيو » الغرفة ويصل إليه ، يضرب ضلعه بكعب البندقية . ضربة من برثن حيوان . ثم ، وكأن هذا جزء من الحركة نفسها عاد إلى وضعية الزاوية اليمنى الثابتة للتسديد الخاصة بفرق الإعدام والتي تعلمها في ثكنات مختلفة في الهند وانكلترة . العنق المحروقة في منظاره .

تحدّث معي يا كيب .

وجهه الآنَ سكّين . تم احتواء البكاء من الصدمة والهول ، ويرى كلَّ شيء ، جميعَ من حوله ، في ضوء مختلف . يمكن أن يخيّم الليل بينهم ، يمكن أن ينتشر ضبابٌ ، إلا أن عيني الشاب الداكنتين ستصلان إلى العدو الجديد المكشوف .

قال لي أخي : لا تدر ظهرك أبداً لأوروبا . عاقدو الصفقات . مبرمو لعقود . راسمو الخرائط . لا تثق أبداً بالأوروبيين ، هذا ما قاله . لا تصافحهم أبداً . إلا أننا نحن تأثرنا بسهولة ، بالخطب والأوسمة ومراسمكم . ما الذي كنتُ أفعله في تلك السنوات القليلة الأخيرة ؟ أقطع وأعطِّل القنابل ، أعضاء الشرّ . من أجل ماذا ؟ من أجل أن يحدث هذا ؟

ماهذا ؟ قُلْ لنا يا يسوع!

سأترك لك الراديو لتبتلع درسكم التاريخي . لا تتحرك ثانية يا « كارافاجيو » . جميع أحاديث الحضارة تلك عن الملوك والملكات والرؤساء... أصوات النظام التجريدي تلك . شمّها . أصغ إلى الراديو وتنشّق الاحتفال الذي فيه . في بلادي ، حين يسيء الأبُ إلى العدالة ، يقْتل الأب .

لاتعرف من هذا الرجل .

لا يتزحزح منظار البندقية عن العنق المحروقة ثم يحرفه اللّغام إلى عيني الرجل .

افعلْها ، يقول ألمازي .

تتقابل عينا اللّغام وعينا المريض في هذه الغرفة نصف المظلمة المحتشدة الآن بالعالم .

يهزّ رأسه لّلغام .

افعلها ، يقول بهدوء .

يخرج « كيب » الطلقات ويمسكها حين تبدأ بالسقوط . يرمي البندقية على السرير ، تبدو كالأفعى التي جُمع سمها . يرى « هنا » في المحيط .

ينزع الرجل المحروق السماعات عن أذنيه ويضعها بهدوء أمامه . ثم يرفع يده وينتزع المساعد السمعيّ ويسقطه على الأرض .

افعلها يا كيب . لا أريد أن أسمع أي شيء .

يغمضُ عينيه . ينزلق في الظلمة ، بعيداً عن الغرفة .

يستند اللّغام على الحائط طاوياً يديه خافضاً رأسه . يستطيع « كارافاجيو » أن يسمع الهواء يدخل ويخرج من أنفه ، سريعاً وحاداً ، كالمِكْبَس .

إنه ليس إنكليزياً .

لايهمني إن كان أميركياً أو فرنسياً . حين بدأتم تقصفون سلالات العالم السمراء كنتم انكليزاً . كان يحكمكم ليوبولد ملك بلجيكا والآن يحكمكم هاري ترومان المُنْتاك رئيس الولايات المتحدة الأميركية . تعلمتم جميعكم هذا من الإنكليز .

لا . ليس هو . هذا خطأ . ربما كان إلى جانبك من بين جميع الناس . تقول « هنا » إنه سيقول بأن هذا لايهمّ .

يجلس « كارافاجيو » على الكرسي . يعتقد أنه دائماً يجلس على هذا الكرسي . يصدر في الغرفة صوتٌ حادٌّ خفيف عن المستقبلة البلّورية ، مايزال الراديو يبث بصوته التحتمائي . لايستطيع أن يستدير وينظر إلى اللّغام أو ينظر إلى ضبابية ثوب « هنا » . يعرف أن الجندي الشاب على صواب . لن يستخدموا أبداً قنبلةً كهذه ضدَّ أمّةٍ بيضاء .

يخرج اللّغام من الغرفة تاركاً « هنا » و« كارافاجيو » قرب السرير . تركَ الثلاثة لعالمهم ، ولم يعد حارسهم . في المستقبل إذا أو حين يموت المريض سيدفنه « كارافاجيو » و« هنا » .,د ع الموتى يدفنون موتاهم . لم يكن متأكداً أبداً ماذا كان يعني هذا . هذه الكلمات القليلة القاسية في الكتاب المقدّس .

سيدفنان كلَّ شيء ـ باستثناء الكتاب ـ الجسدَ ، البطانيات ، الملابس ، البندقية . سيصبح وحيداً مع « هنا » حالاً . وباعث كل هذا في المذياع . حدثٌ مريعٌ يبزغ من الموجة القصيرة . حَربٌ جديدةٌ . موتُ حضارةٍ .

مايزال الليل مخيّماً . يستطيع أن يسمع الصقور الليلية ، صرخاتها المنخفضة ، الصوت المكتوم لأجنحتها وهي تستدير . ترتفع أشجار السرو فوق خيمته هادئةً في هذه الليلة التي بلا ريح . يستلقي ويحدّق بالزاوية المظلمة للخيمة . حين يُغْمضُ عينيه يشاهد النار ، البشرَ يتقافزون في الأنهار والخزّانات ليتجنّبوا اللهب أو الحرارة التي تحرقُ كلَّ شيء في ثوانٍ ، كل مايتمسكون به ، شعرهم وجلدهم وحتى المياه التي يقفزون فيها . حُمِلَتْ القنبلة المتألقة في طائرةٍ فوق البحر عابرةً القمر في الشرق نحو الأرخبيل الأخضر ورميتْ .

لم يتناول طعاماً أو يشرب ماءً ، ليس قادراً على ابتلاع أي شيء . قَبْلَ أن يخبو الضوء يجرِّد الخيمة من جميع المعدّات العسكرية ، جميع أجهزة تعطيل القنابل ، جميع شارات بزّته . قبل أن يستلقي حلَّ عمامته ومشّط شعره ثم ربطه إلى الأعلى في قنزعة واستند إلى الخلف وشاهدَ الضوء يتبدّد ببطءٍ على جلد الخيمة وصادفتْ عيناه آخر زرقةٍ للضوء سامعاً هبوب الريح في السكون ثم انحراف الصقور حين تصدر أجنحتها صوتاً مكتوماً وجميع الأصوات الرشيقة للهواء .

يشعر أن جميع رياح العالم تمتصُ آسيا . يبتعد عن القنابل الصغيرة الكثيرة لمهنته نحو قنبلة بحجم مدينةٍ على مايبدو ، كبيرة بحيث تجعل الأحياء يشهدون موت السكان حولهم . لايعرف شيئاً عن هذا السلاح ، فيما إذا كان هجوماً مفاجئاً للمعدن والانفجار أو هواءً مغلياً يخترق أي شيءٍ بشري . يشعر بأن كل مايعرفه هو أنه لم يعد يستطيع ترك أي شيء يقترب منه ، لايستطيع أن يأكل الطعام أو حتى يشرب من بركة متجمعة على مقعد حجري على الدكة . لايشعر بأنه يستطيع اخراج عود ثقابٍ من حقيبته ليشعل المصباح لأنه يعتقد أن المصباح سيلهبُ كلَّ شيء . قبل أن يتبخّر الضوء من الخيمة أخرج صورة عائلته وحدّق بها . اسمه « كيربال سينج » ولا يعرف ماذا يفعل هنا .

يقف الآن تحت الأشجار في حرارة آب دون عمامة مرتدياً الكُرْتة* فقط . لا يحمل شيئاً في يديه ، يسير على طول الأسيجة الشجرية ، قدماه الحافيتان على العشب أو على حجر الدكة أو في رماد نار قديمة . جسده حيٌ في يقظته واقفاً على حافة الوادي الكبير لأوروبا .

تشاهده في الصباح الباكر واقفاً إلى جانب الخيمة . بحثت أثناء المساء عن ضوءٍ ما بين الأشجار . أكلَ كلٌّ منهم بمفرده في الفيلا ذلك المساء ، أما الإنكليزي فلم يأكل شيئاً . تشاهد الآن ذراع اللّغام تدفع بقوة إلى الأعلى والجدران القماشية تنهار فوق بعضها كشراعٍ . يستدير ويتجه نحو المنزل ، يتسلّق الدرج إلى الدكة ويختفي .

يعبُر في الكنيسة الصغيرة المقاعدَ المحترقة إلى الجزء الناتئ نصف الدائري حيث توجد تحت غطاءٍ مشمّع مُثقل بالأغصان دراجة بخارية . يبدأ بسحب الغطاء عن الآلة . ينحني إلى جانب الدراجة ويبدأ بتزييتها .

حين تجيء « هنا » إلى الكنيسة التي بلا سقف تجده جالساً هناك مسنداً ظهره ورأسه إلى العجلة .

« كيب »

لايقول شيئاً وهو ينظر عبرها .

كيب ، هذه أنا . ما الذي يجب أن نفعله حيال ذلك ؟

إنه حجرٌ أمامها .

تنحني حتى تصل إلى مستواه وتستند إليه ، جانب رأسها على صدره ، تبقى هكذا .

قلبٌ نابض .

حين لا يتبدّل صمته تعود فتستند إلى ركبتيها .

قرأ الإنكليزي لي شيئاً ما من كتابٍ : « إن الحب صغيرٌ جداً بحيث

---

* Kurta .

يستطيع أن يمزّق نفسه لدى عبوره من ثقب إبرة » .

يستند إلى ناحيته بعيداً عنها ، وجهه يتوقف على بعد بضعة إنشاتٍ من بركة مطرية .

صبيّ وفتاة .

بينما كان اللّغام يخرج الدراجة من تحت القماش المشمّع كان « كارافاجيو » يستند إلى حاجز الشرفة واضعاً ذقنه على ساعده . شعر أنه لا يستطيع أن يتحمّل مزاج المنزل فسارَ بعيداً . لم يكن هناك حين دوّر اللّغام الدراجة وجلس عليها بينما تثب نصف وثبةٍ وهي حية تحته و « هنا » تقف قربه .

لمس « سنج » ذراعها وجعل الآلة تتحرّك على المنحدر وعندها فقط أعادها إلى الحياة .

عند منتصف ممر البوابة كان « كارافاجيو » ينتظره حاملاً بندقية . لم يرفعها حتى بشكلٍ رسمي نحو الدراجة حين أبطأ الصبيّ إذ وقف « كارافاجيو » في طريقه . جاءَ إليه « كارافاجيو » ووضع ذراعيه حوله . ضمّةٌ عظيمة . شعرَ اللّغام بشعر ذقنه على جلده للمرة الأولى . شعرَ بأنه مسحوب مشدود إلى العضلات : « سوف أتعلّم كيفَ أشتاق إليك » ، قال « كارافاجيو » . ثم انطلق الصبيّ وسارَ « كارافاجيو » عائداً إلى المنزل .

ضجّت الآلة بالحياة حوله . كان دخان « الترايمف » والغبار والحصى الدقيق يتطاير عبر الأشجار . قفزت الآلة فوق سياج الماشية المصبّع عند البوابات ثم بدأ يخرج من القرية عابراً عطر الحدائق على جانبيه تلك المسمَّرة إلى المنحدرات في زاويتها المخادعة .

انزلق جسمه في موضع العادة ، صدره متواز تقريباً مع صفيحة النفط ويلمسها تقريباً ، ذراعان أفقيان في شكل مقاومةٍ قليلةٍ . اتجه جنوباً متجنباً فلورنسا بشكل كامل ، عبر « غريف » عابراً إلى « مونتيغارشي » و« أمبر » ، بلدات صغيرة تجاهلتها الحرب والغزو . وحينَ ظهرت تلالٌ جديدة بدأ يتسلّق عمودها الفقري نحو « كورتونا » .

سافر عكس اتجاه الغزو كأنه يعيد لفّ مكبّة الحرب ، الطريق الذي لم يعد متوتراً بالحضور العسكري . سارَ في طرقٍ يعرفها فقط ، مشاهداً بلدات القلاع المألوفة من مسافةٍ . جلس ثابتاً على « الترايمف » وهي تحترق تحته بدموعها على طول طرق البلاد . حمل القليل وترك جميع الأسلحة خلفه . كانت الدراجة تسرع عبر كل قريةٍ دون أن تبطئ من أجل بلدةٍ أو ذكرى حرب . « ستترنَح الأرض كسكَيرٍ وستُزال ككوخٍ » .

فتحتْ حقيبته الظهرية . يوجد مسدّس ملفوف بمشمّع ، فاحتْ رائحته حين فتحته . فرشاة أسنان وبودرة أسنان ، رسوم بقلم رصاص على دفتر تتضمن رسماً لها ـ وهي تجلس على الدكة وكان ينظر من غرفة الإنكليزي . عمامتان ، زجاجة نشاء . مصباح نزع ألغامٍ مع سيوره الجلدية يُلْبس أثناء الطوارئ . أشعلته فامتلأتْ الحقيبة بالضوء القرمزي .

عثرت في الجيوب الجانبية على قطع تجهيزات تتعلّق بنزع القنابل ، لم تشأ أن تلمسها . كان يوجد أنبوب معدني ملفوف بقطعة قماش أخرى صغيرة قدمته له وكان يستخدم لاستخراج سكَر القيقب من الشجر في بلادها .

عثرت على صورة لابدّ أنها لعائلته . حملتْ الصورة في راحة كفّها . سيخيٌ وعائلته .

شقيقٌ أكبر كان في الحادية عشرة فقط في هذه الصورة . « كيب » إلى جانبه يبلغ الثامنة من العمر . « حين نشبتْ الحرب صفتَ أخي مع كل من كان ضد الإنكليز » .

كان يوجد أيضاً دليلٌ صغير يحتوي على خريطة للقنابل ورسمٌ لقدّيس يرافقه موسيقيّ .

أرجعت كلّ شيء ماعدا الصورة التي حملتها في يدها غير المنشغلة . حملتْ الحقيبة عبر الأشجار ، سارتْ عبر الرواق وأدخلتها إلى المنزل .

كان يبطئ ليقف كل ساعة ، يبصق على منظار الوقاية ويمسح عنه الغبار بكُمّ قميصه . نظر إلى الخريطة مرة ثانية . سيذهب إلى البحر الأدرياتيكي ثم جنوباً . كانت معظم القوات على الحدود الشمالية .

صعدَ إلى « كورتونا » وصوت الدراجة المرتفع يملأ المكان حوله . ركب « الترايمف » صاعداً الدرجات إلى باب الكنيسة ثم دخل . كان هناك تمثال على سقالة . أراد أن يقترب من وجهه إلا أنه لم يكن يمتلك منظار بندقية وكان جسده متصلّباً بحيث لايقدر على تسلّق أنابيب البناء . تجوّل تحته كشخص لا يقدر على دخول حميمية منزلٍ . هبط دافعاً الدراجة على درجات الكنيسة ثم انطلق عبر الكروم الممزّقة ، وذهبَ إلى « آريزو » .

في « سانسيبولكرو » أخذ طريقاً ملتوية نحو الجبال ، إلى ضبابها فكان عليه أن يبطئ إلى السرعة الدنيا . البوكا ترابارِيا . كان يحسّ بالبرد إلا أنه طرد الطقس من رأسه . أخيراً صعدَ الطريق فوق البياض وكان الضباب سريراً خلفه . مرّ عند حافّة « آربينو » حيث أحرق الألمان جميع أحصنة العدو . قاتلوا هنا في هذا الإقليم لمدة شهر ، الآن عبرَ في دقائق متعرّفاً فقط على أضرحة « المادونا السوداء » .

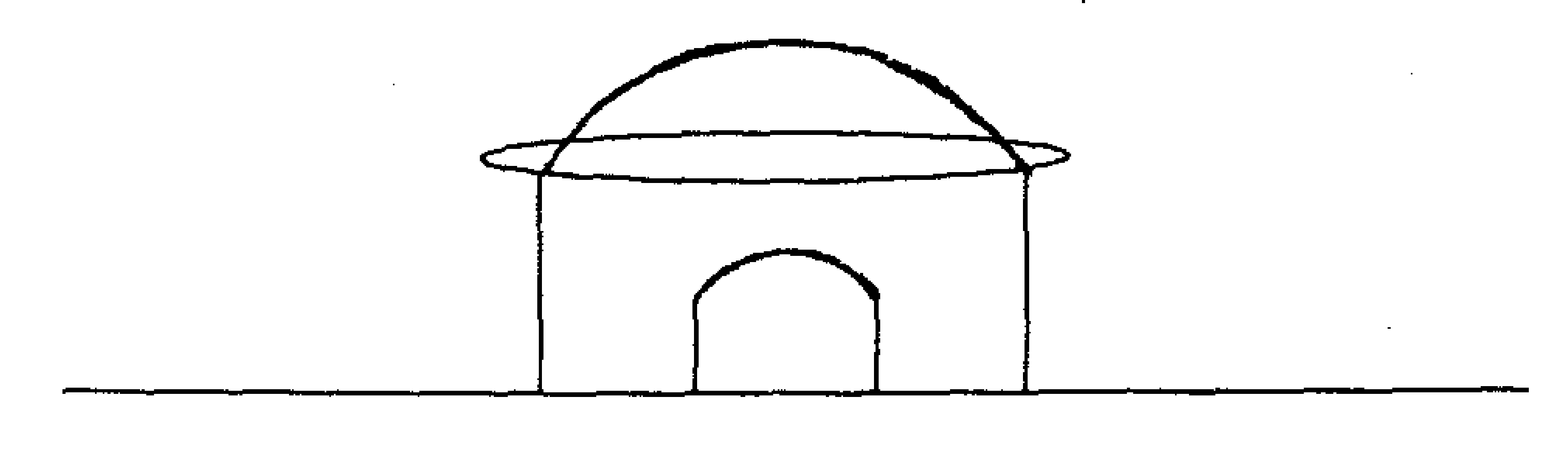
جعلت الحرب جميع المدن والبلدات متشابهة . انحدر باتجاه الساحل إلى كابيتشي مير ، حيث رأى العذراء تبزغ من البحر . نام على الهضبة المطلة على الجرف والمياه قُرْبَ المكان الذي أُخِذ إليه التمثال . كانت هذه نهاية يومه الأول .

عزيزتي كلارا ـ عزيزتي مامان :

« مامان » كلمة فرنسية ، كلارا كلمة دائرية توحي بالعناقات ، إنها كلمةٌ شخصية يمكن أن تُصْرَخ علناً . شيء ما مريحٌ وأبديٌّ كمركب للاحتفالات . رغماً أنك ، روحياً ، كما أعرف ، ماتزالين قارباً . تستطيعين أن تنحرفي وتدخلي شقاً في ثوانٍ . ماتزالين مستقلةً ومنعزلةً . لست مركباً مسؤولاً عن كل ماحوله . هذه رسالتي الأولى طوال أعوامٍ يا « كلارا » ولست معتادة على رسمية الرسائل . أمضيتُ الأشهر القليلة الماضية مع ثلاثة آخرين وكانت أحاديثنا بطيئة وعارضةً . لست معتادة على التحدّث بأية طريقةٍ إلا هذه الآن .

العام هو ـ ١٩٤ ماذا ؟ نسيت لثانيةٍ ، لكنني أعرف الشهر واليوم . في أحد الأيام بعد أن سمعنا أن القنبلتين أسقطتا على اليابان ، شعرنا بأن الأمر مثل نهاية العالم . من الآن فصاعداً أؤمن أن الشخصي سيظلَ إلى الأبد في حالة حرب مع الجماهير . إذا استطعنا أن نعقلن هذا ، نستطيع أن نعقلن أي شيء .

ماتَ « باتريك » في برج حمامٍ في فرنسا ، في فرنسا . في القرنين السابع والثامن عشر كانوا يبنون أبراج الحمام ويجعلونها ضخمةً وأكبر من معظم المنازل وبهذا الشكل :



كان الخط الأفقي ، ثلث الطريق إلى الأسفل ، يُدْعى طنف الجرذان ـ ليمنع الجرذان من الجري على الآجر ، وهكذا تبقى الحمامات آمنة . آمنٌ كبرج حمام . مكانٌ مقدّس . ككنيسةٍ بطرق عديدة . مكان مريح . مات « باتريك » في مكان مريح .

أدار « الترايمف » في الخامسة صباحاً ورمتْ العجلة الخلفية الحصباء على حافة بنطاله . كان مايزال في الظلمة ، غير قادر على تمييز البحر في الفسحة التي خلف الجرف . لم يكن معه خرائط في رحلته من هنا إلى الجنوب ، إلا أنه استطاع أن يتعرّف على طرقِ الحرب ويتبع الطريق الساحلية . حين خيّم ضوء الشمس كان قادراً على مضاعفة سرعته . كانت الأنهار ماتزال أمامه .

وصل إلى « أورتونا » حوالي الثانية بعد الظهر حيث وضع الّلغامون جسور بيلي ، التي أغرقتها العاصفة تقريباً وسط النهر . بدأ المطر يسقط وتوقّف ليضع غطاءً مطاطياً . سار حولَ الآلة في البلل . حين انطلق ، تغيّر الصوت في أذنيه . حلّ صوت مكان صوت الطنين والعواء ، وقذفتْ العجلة الأمامية الماء الى بوطه . كان كل شيء شاهده عبر منظار الوقاية رمادياً . لن يفكّر بـ « هنا » ، طوال الصمت الذي خيّم داخل ضجّة الدراجة لم يفكّر بها . كان يمحو وجهها كلما ظهر ، يسحب المقود لينحرف ثم عليه أن يركّز . إن كانت ثمت كلمات فلن تكون كلماتها ، ستكون أسماء على خريطة إيطاليا التي ينطلق عبرها .

يشعر أنه يحمل جسد الإنكليزي معه في طيرانه . يجلس على صفيحة البنزين مواجهاً له ، الجسد الأسود يعانق جسده ، مواجهاً الماضي فوق كتفه ، مواجهاً الريفَ ، وهما يطيران منه ، القصر المتراجع للغرباء على الهضبة الإيطالية والذي لن يعاد بناؤه أبداً . « **وكلماتي التي وضعتها في فمك لن تفارق فمك ولافم ذريتك ولا فم ذرية ذريتك** » .

غنّى صوت المريض الإنكليزي كلمات إشعيا في أذنه كما فعل في بعد الظهر

ذاك حين تحدّث الصبيّ عن الوجه الذي على سقف الكنيسة الصغيرة في روما . « يوجد مائة إشعيا بالطبع . سترغب يوما في أن تشاهده كعجوزٍ ــ في جنوب فرنسا تحتفل به الأديرة كعجوز مُلْتحٍ ، إلا أن القوة ماتزال هناك في نظرته » . غنّى الإنكليزي في الغرفةِ ذات الرسوم . « انظر ، سيحملك الإله بعيداً مأسوراً وبالتأكيد سيغطّيك . بالتأكيد سيستدير بعنف ويقذفك ككرةٍ في بلادٍ كبيرة » .

كان ينطلق عميقاً في المطر الكثيف . لأنه أحب الوجه الذي على السقف أحبّ الكلمات . كما آمن بالرجل المحروق وبمروج الحضارة التي مال إليها . كان إشعيا وإرميا وسليمان في كتاب الرجل المحروق الذي إلى جانب السرير ، كتابه المقدّس ، كل ما أحبّه ألصقه عليه . أعطى كتابه لّلغام وقال الّلغام نحن نمتلك أيضاً كتاباً مقدساً .

انفتح المطاط الذي على المنظار الواقي خلال الأشهر الماضية وبدأ المطر يملأ كلّ جيب هواءٍ أمام عينيه . سينطلق بدونه ، الصوت الجديد للدراجة بحر متواصل في أذنيه وجسده المنحني متصلّب ، بارد ، وكانت فقط فكرة الحرارة من هذه الآلة التي ركبها بحميميةٍ ، البخار الأبيض الذي يخرج منها حين ينزلق عبر القرى كنجمةٍ منسابة ، زيارة لنصف ثانية حيث بوسع الإنسان أن يتمنى أمنية . « لأن السماوات ستتلاشى كدخانٍ والأرض ستتشمّع وتشيخ كثوب . وأولئك الذين يعيشون فيها سيموتون بالطريقة ذاتها . سيأكلهم العثُ كثوبٍ وستأكلهم الديدان كصوفٍ» . سِرٌ صحارى من « العوينات » إلى هيروشيما .

كان يزيل المنظار حين خرج من منعطفٍ إلى جسرٍ فوق نَهْرِ « أوفانتو » ، بدأ ينزلق وذراعه اليُسرى مرفوعة تحمل المنظار . أسقطه وهدّأ الدراجة إلا أنه لم يكن مستعداً للاصطدام بحافة الجسر ، الدراجة سقطتْ تحته إلى اليمين . بدأ فجأة ينزلق معها نحو مركز الجسر ، شراراتٌ زرقاء من المعدن المخدوش حول ذراعيه ووجهه .

طارتْ علبة ثقيلة وعبرت فوق كتفيه ، ثم انحرف هو والدراجة إلى اليسار

ولم يكن يوجد حاجز للجسر فانقذفا متوازيين إلى الماء هو والدراجة بشكل منحرف ، يداه ارتمتا فوق رأسه . انفصل عنه الرداء المطاطي ، عن ما كان آلة أو بشراً ، أصبح جزءاً من عنصر الهواء .

توقّف الجندي والدراجة في الجوّ ثم دارا إلى الأسفل نحو الماء ، الجسم المعدني بين ساقيه اللتين تمسكتا به بشدّة يفتح ممراً أبيض عبر الماء ويختفي . المطر يدخل أيضاً إلى النهر . « سيقذفك ككرةٍ في بلادٍ كبيرة » .

كيفَ ماتَ باتريك في برج حمام يا كلارا ؟ تركته وَحْدَتُه محترقاً ومجروحاً . كانت أزرار قميصه محروقة بحيث أصبحت جزءاً من جلده ، جزءاً من صدره العزيز ، الذي قبّلتهُ أنا وأنت . وكيف أُحْرِقَ والدي ؟ الذي كان بوسعه أن ينحرف كالأنقليس ، أو كقاربك ، وكأنه مسحورٌ ، عن العالم الواقعي ، في براءته العذبة والمعقدة . كان أكثر الرجال صَمْتاً ، وأنا مندهشة من أن النسوة أحببنه دائماً . نميل إلى محبة رجل متكلمٍ حولنا ، نحن العقلانيين ، الحكماء ، وكان غالباً ضائعاً ، غير متيقّنٍ ، صامتاً .

كان رجلاً محروقاً وكنتُ ممرضةً وكان بوسعي أن أعتني به . هل تفهمين حُزْنَ الجغرافيا ؟ كان بوسعي انقاذه أو على الأقل أن أكون معه حتى النهاية . أعرف الكثير عن الإحتراق . كم أمضى من الوقت مع الحمام والجرذان ؟ مع المراحل الأخيرة للحياة والدم فيه ؟ حمامات فوقه . الرفرفة حين كانت تندفع حوله ، غير قادر على النوم في الظلام . كان يكره الظلمة دائماً وكان وحيداً دون حبيبة ـ أو قريب .

أنا مريضة من أوروبا يا كلارا . أريد أن أعود إلى الوطن إلى كوخك الصغير وصخرتك الوردية في خليج جورجيان . سأستقل باصاً إلى « باري ساوند » . ومن البرّ سأرسل رسالة عبر راديو الموجة

القصيرة إلى « البانكيكز » وأنتظرك . أنتظر لأشاهد صورتك الظلية في قارب يأتي لينقذني من هذا المكان الذي دخلناه جميعاً وقمنا بخيانتك . كيف أصبحتِ ذكية هكذا ؟ كيف صممّتِ هكذا ؟ كيف لم تُخْدَعي مثلنا ؟ أنتِ عفريت المتعة الذي أصبح حكيماً ، الأنقى بيننا ، حبة الفول الأكثر دكنةً ، الورقة الأكثر اخضراراً .

« هنا »

تبزغ رأس اللّغام من الماء ويشهق مستنشقاً الهواء كلّه الذي فوق النهر .

صنع « كارافاجيو » جسراً مجدولاً من حَبْلٍ قُنّبيّ ومدّه إلى سقف الفيلا المجاورة . ربط الحبل من هذه الناحية حول خصر تمثال « ديميتريوس » ثم ربطه بالبئر . كان الحبل بالكاد أعلى من قمتي شجرتي الزيتون في الممر .

يخطو عليه ، قدماه تمسكان القُنّب . كم تبلغ قيمة هذا التمثال ؟ سأل « هنا » مرةً بالصدفة فأخبرته بأن المريض الإنكليزي قال لها إن جميعَ تماثيل ديمتريوس لاقيمة لها .

تختم الرسالة وتقف ، تنتقل عبر الغرفة لتغلق النافذة ، وفي تلك اللحظة ينزلق البرق عبر الوادي . تشاهد « كارافاجيو » في الجوّ في منتصف الممر الضيق الذي يستلقي كندبةٍ عميقة إلى جانب الفيلا . تقف هناك وكأنها في أحد أحلامها ثم تتسلق إلى تجويف النافذة وتجلس ناظرة إلى الخارج .

في كل مرةٍ يلمعُ فيها البرق ، يتجمد المطر في الليل الذي يُضاءُ فجأة .

تشاهد الصقور الجارحة تطير في السماء ، تنظر إلى « كارافاجيو » . يكون في منتصف الطريق يشمّ المطر الذي يبدأ بالسقوط على كل جسمه ، يتمسك به ، وفجأة يوجد الوزن الزائد لثيابه .

تضع كفيها المطويتين خارج النافذة وتبلّل شعرها بماء المطر .

تغرق الفيلا في الظلام . تشتعل في الصالة قرب غرفة نوم المريض الإنكليزي الشمعة الأخيرة ، ماتزال حية في الليل . كلما فتح عينيه مستيقظاً شاهد الارتجاج القديم للضوء الأصفر .

العالم بالنسبة له بلا صوتٍ الآن ، حتى الضوء يبدو شيئاً نافلاً . سيخبر الفتاة في الصباح أنه لايحتاج إلى لهبِ شمعةٍ ليرافقه وهو نائم .

حوالي الثالثة صباحاً ، يشعرُ بحضورٍ في الغرفة ، يشاهد للحظةٍ شكلاً عند قدمِ سريره ، إزاء الحائط ، أو ربما مرسوماً عليه ، لايمكن تمييزه تماما في ظلمة الأوراق التي وراء ضوء الشمعة . يغمغمُ شيئاً ، شيئاً أرادَ أن يقوله . إلا أنه يوجد الصمت والشكل الأسمر الضئيل ، الذي يمكن أن يكون ظلاً ليلياً ، لا يتحرّك . شجرة حور . رجلاً يرتدي ريشاً . شكلاً سابحاً . ويعتقد أنه لن يكون محظوظاً ليتحدث مع اللّغام الشاب ثانية .

يبقى مستيقظاً على أية حال تلك الليلة ، ليرى إن كان الشكل يتحرّك نحوه . متجاهلاً الحبوب التي تزيل الألم ، سيبقى مستيقظاً إلى أن ينطفئ الضوء وتدخل رائحة دخان الشمعة إلى غرفته وإلى غرفة الفتاة . إذا استدار الشكل لن تكون هناك رسوم على ظهره ، حيث وقف حزيناً إزاء صور الأشجار . حين تنطفئ الشمعة سيكون قادراً على رؤية هذا .

تمتدُّ يده ببطءٍ وتلمس كتابه وتعود إلى صدره الأسود . لا يتحرك شيءٌ آخر في الغرفة .

أين يجلس الآن وهو يفكّر بها ؟ تلك الأعوام ، فيما بعد . حجرٌ من التاريخ يثبُ فوق المياه قافزاً بحيث تهرمُ هي وهو قبل أن يلمسَ السطح ثانيةً ويغرق .

حيث يجلس في حديقته يفكر مرةً ثانية أنه يجب أن يدخل ويكتب رسالةً أو يذهب في أحد الأيام إلى محطة الهاتف ، يملأ استمارة ويحاول أن يتصل بها في بلادٍ أخرى . إنها هذه الحديقة ، هذه البقعة المربّعة من العشب الجاف المقصوص هي التي تعيده إلى الأشهر التي أمضاها مع « هنا » و « كارافاجيو » والمريض الإنكليزي شمال فلورنسا في فيلا « سان جيرولامو » . إنه طبيب ، أنجب ولدين ويمتلك زوجة ضحوكةً . مشغولٌ بشكلٍ دائمٍ في هذه المدينة . في الساعة السادسة بعد الظهر ينزع معطفه الأبيض المخبري . يرتدي تحته بنطالاً داكناً وقميصاً قصير الأكمام . يغلقُ العيادة ، حيث يضع على أوراق عمله أثقالاً من أنواع مختلفة ـ أحجاراً ، محابر ، لعبةَ شاحنةٍ لم يعد ولده يلعب بها ـ لكي لا يطيّرها هواء المروحة . يركب دراجته ويسوق أربعة أميال إلى منزله عبر البازار . يحرف ، كلما استطاع ، دراجته ، إلى الجزء المظلّل من الشارع . وصل إلى سنٍّ أدرك فيه فجأة أن شمس الهند تنهكه .

يمرّ تحت أشجار الصفصاف إلى جانب القناة ثم يتوقّف في حارةٍ من المنازل الصغيرة ، يزيل مشابك دراجته ويحملها هابطاً الدرجات إلى الحديقة الصغيرة التي رتبتها زوجته .

شيء ما في هذا المساء أخرجَ الحجرَ من الماء وسمح له أن ينتقل في الجوّ نحو البلدة التلّية في إيطاليا . ربما كان الحرق الكيميائي على ذراع الفتاة التي عالجها اليوم ، أو الدرج الحجري حيث كانت الأعشاب الرمادية تنمو بحماسة على الدرجات . كان يحمل دراجته وكان في منتصف الطريق على الدرجات قبل أن يتذكّر . حدثَ هذا في الطريق إلى العمل ، وهكذا أجّل زناد الذاكرة حين وصل إلى المستشفى ودخل في سبع ساعات من المرضى

المتواصلين والأعمال الإدارية ، أو ربما كان السبب هو الحرق على ذراع الفتاة الشابّة .

يجلسُ في الحديقة . يراقب « هنا » التي طالَ شعرها في بلادها . وماذا تفعل ؟ يشاهدها دائماً ، وجهها وجسمها ، إلا أنه لايعرف ماهي مهنتها ماهي ظروفها ، رغم أنه يشاهد ردودَ فعلها على البشر الذين حولها ، انحناءها للأولاد ، باب براد أبيض خلفها ، خلفية من عربات الترام ، غير الصاخبة . هذه هديةٌ محدودةٌ قُدِّمَتْ له ، وكأن فيلم كاميرا يكشفها ، هي فقط ، في الصمت . لايستطيع أن يميّز الرفقة التي تتحرّك بينها ، حكمها ، كل ما يستطيع أن يشهده هو شخصيتها وطول شعرها الداكن الذي يسقط مرة بعد أخرى على عينيها .

يدرك الآن أنها ستمتلك وجهاً جدياً دائماً . انتقلتْ من كونها فتاة شابّة إلى امتلاك النظرة الخشنة لملكةٍ ، لامرأةٍ ما صنعتْ وجهها وفق رغبتها لتكون نوعاً معيّناً من الأشخاص . مايزال يحبّ فيها هذا ، ذكاءها ، حقيقة أنها لم ترثْ تلك النظرة أو ذلك الجمال ، إلا أنه كان شيئاً بحثت عنه وسيعكسُ دائماً مرحلة حاضرة من شخصيتها . يبدو أنه في كل شهر أو شهرين يراها بهذه الطريقة ، وكأن لحظات الوحي تلك هي استمرار للرسائل التي كتبتها له طوال عامٍ دون أن تحصل على جواب ، إلى أن توقّفت عن إرسالها وابتعدتْ بسبب صمته ، بسبب شخصيته ، كما افترض .

الآن هناك إلحاحات ليتحدث معها أثناء وجبةٍ ويعود إلى تلك المرحلة التي كانت تجمعهما فيها علاقة حميمية في الخيمة أو في غرفة المريض الإنكليزي اللتين تحتوي كل منهما على النهر المضطرب للمكان بينهما . مستذكراً ذلك الوقت ، هو مُتيّم بنفسه هناك كما هو معها ـ صبيانيٌّ وجديٌّ ، ذراعه الرشيقة تتحرّك عبر الجوّ نحو الفتاة التي وقعَ في غرامها . بوطه المبلّل قرب الباب الإيطالي ، الرباط موصول ببعضه ، ذراعه تمتدُّ إلى كتفها ، وهناك الشكل المنبطح على السرير .

يراقب أثناء وجبة المساء ابنته تتصارع مع السكاكين محاولة أن تحمل الأسلحة الضخمة بيديها الصغيرتين . على هذه الطاولة كل أيديهم سمراء . يتحركون بسهولة مع أعرافهم وعاداتهم وعلّمتْهم زوجته جميعاً فكاهةً متوحشةً ورثها ولده . يحبّ أن يشاهد ذكاء ولده في هذا المنزل ، كيف يفاجئه دائماً ، متجاوزاً حتى معرفته هو وزوجته وفكاهتهما ـ الطريقة التي يعامل بها الكلاب في الشوارع ، مقلداً مشيتها ونظرتها . يحبّ حقيقة أن هذا الولد يستطيع تقريباً أن يخمّن رغبات الكلاب من تنوع التعابير في تصرّف الكلب .

ومن المحتمل أن « هنا » تتحرّك مع الرفقة التي ليستْ من اختيارها . هي ، حتى في هذه السن ، الرابعة والثلاثين لم تعثر على رفقتها ، على الأصدقاء الذين تريدهم . إنها امرأة شرف وذكاء يخرج حبّها الوحشي عن حدود الحظ ، يقوم دائماً بالمجازفات ، ويوجد شيء الآن على حاجبها تستطيع هي فقط أن تتعرف عليه في المرآة . كانت مثلاً أعلى ومثالية في ذلك الشعر الأسود المتوهج! الناس يعشقونها . ماتزال تذكر أبيات القصائد التي قرأها لها الإنكليزي بصوت مرتفعٍ من كتابه المألوف . إنها امرأة لا أمتلك معرفةً كافيةً لأحملها على جناحي ، إذا كان للكتّاب أجنحة ، أن آويها بقية حياتي :

وهكذا تتحرّك « هنا » ويستدير وجهها وتخفض شعرها ندماً . يلمس كتفها حافّة خزانةٍ وتسقط كأس . تنحدر يد « كيربال » اليسرى إلى الأسفل وتمسك الشوكة الساقطة على بعد إنشٍ من الأرض ويعيدها بلطفٍ إلى يدِ ابنته ، وتبدو تجعيدةٌ على حافةِ عينيه خَلْف النظّارة ،

ايضاحات

بينما بنيتُ بعض الشخصيات التي تظهر في هذا الكتاب على شخصياتٍ تاريخية، وبينما توجد كثيرٌ من المناطق التي وصفتُ مثل كيلف كيبر واستكشفت في الثلاثينات، من المهم أن أؤكد أن هذه القصّة وصور الشخصيات التي تظهر، متخيّلة مثلها مثل بعض الحوادث والرحلات.

أحب أن أشكر الجمعية الجغرافية الملكية في لندن لسماحها لي بقراءة المادة الأرشيفية وبالاطلاع في مجلاتها الجغرافية على عالم المستكشفين ورحلاتهم - التي غالباً ما سُجِّلتْ بشكلٍ جميلٍ من قبل كتابهم. اقتبست فقرةً من مقالة حسنين بيك، «عبر الكفرة إلى دارفور» (١٩٢٤) لوصف العواصف الرملية، ولقد استفدت منه ومن مستكشفين آخرين لاستحضار صحراء الثلاثينات.

المؤلف

المحتويات

«مايكل أونداتجي» *Michael Ondaatje* روائي وشاعر سيريلانكي يعيش في تورنتو بكندا . إنه مؤلف «في جلد الأسد» ، «المجيء عبر الذبح» ، «الأعمال الكاملة للولد بيلي» ، بالإضافة إلى ثلاث مجموعات شعرية . حظي بجائزة البوكر برايز على كتابه «المريض الإنكليزي» *The English Patient* .

مؤلفاته النثرية :

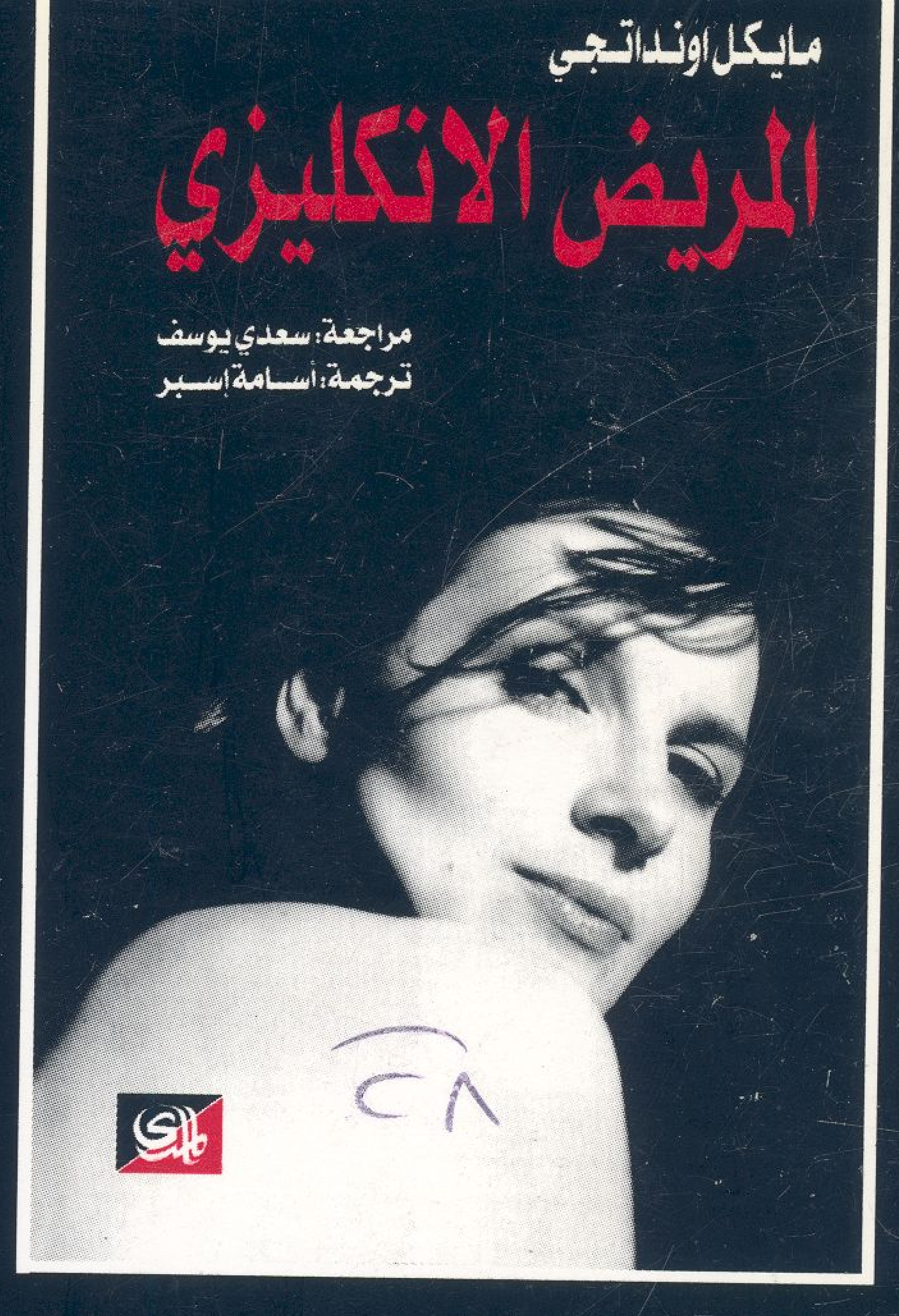
١ـ في جلد الأسد (رواية ١٩٨٧)
٢ـ المجيء عبر الذبح (١٩٧٦)
٣ـ الأعمال الكاملة للولد بيلي (١٩٧٠)
٤ـ الصفات التي تتناقلها العائلة (مذكرات ١٩٧٠)

مؤلفاته الشعرية :

١ـ قاشر القرفة : قصائد مختارة (١٩٩١)
٢ـ الحب الدنيوي (١٩٨٤)
٣ـ خدعة تتم بالمدية أحاول أن أتعلمها (١٩٧٩)







« إنها رواية تسحر اللب وتحتوي على طبقات عديدة »

صحيفة لوس أنجلس تايمز

« عميقة ، جميلة ، تُسرع نبضات القلب »

توني موريسون

« شِعر من الدخان والمرايا »

واشنطن بوست بوك وورلد

« حسيّة ، لغزية وعاطفية ، تنقل القارئ إلى عالم آخر... إنها سبر أونداتجي الأكثر عمقاً لطبيعة الهوية »

سان فرانسيسكو كرونيكل

« سرد يمتلك قوة ورشاقة مدهشتين... من أروع روايات الأعوام الأخيرة ـ ضخمة ، غنية ، عميقة الحكمة »

ميرابيلا

« إنها مغامرة ولغز وقصة حب ورواية فلسفية... مايكل أونداتجي روائي يمتلك قلب شاعر »

شيكاغو تريبيون



ISBN => 2-84305-036-7
EAN => 9782843050367